ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

t.me/twinkling4

بوحُ رَيْحانة

مقتبسة عن قصة حقيقية؛ حصلت تحديدًا في فترة التسعينات من القرن الماضي، وما تزال تحصل شبيهاتها حتى يومنا الحالي..

لذلك قررت أن أكتبها، وكأنها تحصل الآن.. بوقتنا الحاضر.. تحديدًا في هذه اللحظات والدقائق والساعات التي أكتبها فيها

بقلم / كاردينيا الغوازي

رواية في نصفها الأول حقيقة، وفي نصفها الباقي رؤيا..

لكل من يملك قلباً قوياً يقرأ به، ويستمع من خلاله إلى هذا البوح..

أول البوح...

كنت في الحادية عشرة عندما سمعت لفظ (رَيْحانة) للمرة الأولى، وقد كان اسماً لفتاة جديدة انضمت للمدرسة.. أعجبني الاسم، وعندما عدت للبيت ذهبت إلى أبي أسأله عن المعنى.. فرد عليّ شارحاً (أنّ رَيْحانة هي كل نبتٍ طيب الرائحة.. وتوصف به الأنثى كناية عن رقتها ونعومتها وجمال عطرها).

أحببت الاسم جدا حتى أردته لنفسي.. شعرت وكأنني تلك الأنثى الموصوفة أو تمنيت أن أكونها، ولهذا.. اخترتها عنواناً لما سأبوح به اليوم.. ربما لأخفف عنكم وطأة ما ستقرؤنه أو.. لأخفف عن نفسي كي أكتبه..

*****

وبعد العنوان لنبدأ أول البوح..

اسمي أشرقت.. كلما كنت أكتب اسمي في معاملة حكومية أو تسجيل بيانات كان ينتابني ذات الإحساس.. أنني لم آخذ قبساً واحدا من معاني حروف اسمي!

من أين أبدأ الحكاية؟ فالمرء عندما يقف مع نفسه هذه الوقفة يشعر أن التفاصيل كلها مهمة ويجب أن يذكرها.. ثم يبدأ يُدون، ويدون دون انقطاع في سطور أساسية يضيف عليها هوامش باستمرار لأحداث وتفاصيل كثيرة حصلت في حياته.. ثم يشعر أنه تاه بالشرح والتوضيح، وأن ما كتبه لن يفهمه غيره! ثم ينتابه إحساس مزعج أن ما كتبه يبخس حق حكايته، ولن يفهم ما مر به أحد..

لكني لن أفقد الامل.. سأكتب حتى يمّل القلم مني أو ينتهي مداد حياتي..

سأكتب عما يحصل خلف أحد الجدران التي يعجز الناس عن رؤيتها، ولا يعيشها إلا من كانت الجدران تستره.. وأول الجدران التي سترتني هي جدران بيت أبي رحمه الله..

لم أكن إلا فتاة عادية من أسرة كثيرة العدد، عائلها الوحيد هو الاب الذي قضى حياته يراوغ ويتحايل مع -خط الفقر- ما بين (تحت) و(فوق) في لهاث يومي لأجل قوته وقوت عياله.. وأنا من هؤلاء (العيال).. أنا الكبرى..

لي خمس أخوة صغار.. أما أُمنا فلا تجيد إلا فعلين في

حياتها.. الإنجاب وأخذ المال من أبي، حتى وإن لجأت لأخذه خفية دون علمه وضد إرادته..

لن أدخل في هذه التفاصيل الكئيبة، وسأختصرها لكم بما غيّر التفاصيل التي اعتدتها منذ وعيت وحتى بلغت السادسة عشرة.. ما حصل ببساطة أن المُعيل.. أبا العيال.. اختاره بارئه ليسترد الأمانة..

وهكذا استقبلني يوم عودتي من المدرسة الثانوية عويل أمي وولولتها، بينما أخوتي الصغار يبكون ويصرخون في فزع مبهم وإدراك منقوص لمعنى (موت الأب)..

ولم نختم أربعين يوماً على وفاة معيلنا حتى برز في الصورة.. عزّام.. عزّام الجابري..

ومنذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناي في عينيه علمت أنه سيقبض الحياة مني!

لا أعلم كيف ولماذا سيطر عليّ هذا الشعور؛ ربما من سِحنته التي تفصح عن الفسق والفجور، وربما من نظرات الاشتهاء الطامع التي خصّني بها.. لقد أشعرني كبضاعة.. كسلعة رميت في وجهه، أو تعثر بها على قارعة الطريق..

كان تاجرًا في السوق الشعبي وسط العاصمة؛ حيث عمل

أبي طيلة حياته كمحاسب لإحدى الوكالات التجارية، وأراد قدري أن يراني في عزاء أبي، ويجد فيّ جسدا فتيّا رخيص الثمن يتخذها خليلة تحت مسمى زوجة.. هو ابن السادسة والثلاثين وأنا التي عانقتْ للتو ربيعها السادس عشر..

وكان له ما أراد وأصبح بين ليلة وضحاها هو المُعيل.. وعادت أمي إلى ما تجيده في حياتها.. أخذ المال.. وتنازلت عن إنجاب العيال..

هل يهم إن قلت لكم كيف كانت ليلة الزفاف؟! هل يهم إن شرحت كيف سال دم العذرية مع الدموع وضحكات عزّام الساخرة، وهو يتركني أنزف في السرير؛ يجمدني الرعب والذهول والتقزز بينما ذهب هو ليصبّ لنفسه كأس خمر احتفالا بـ (رجولته)!

لا يهم.. لا أظنه يهمكم كثيراً أو يثير حماستكم لتعرفوه..

وسأختصر لكم الكثير فأنتم في غنى عن هذا البؤس، وما زال في جعبتي الكثير فلا تغلقوا الكتاب من فضلكم.. فقط أكملوا تتبع الأسطر وتقليب الصفحات..

لست سنوات لاحقة مع عزّام كنت أشبه بـ (عَبدة).. عَبدة تُطيع سيدها في كل شيء.. شبه سجينة بين أربعة

جدران.. تطبخ وتنظف وتفترش جسدها على السرير لينهشه كي يفرِغ غريزته كلما شاء، وتتلقى ضربه المبرح كلما عاد مخمورًا للدار ورائحة الغواني تفوح منه أكثر من رائحة الخمر..

أُجهضت ثلاث مرات بسبب الضرب المبرح.. كسور ما زلت أعاني آثارها في قفصي الصدري، ورحمي المنهك زهِد في حمل أجنة لا ترى النور..

ممنوع أن أغادر الدار إلا للسوق القريب، وبعد أخذ إذنه في كل مرة.. ممنوع أن أستخدم الهاتف الأرضي إلا للضرورات وطلبات البيت، وممنوع اقتناء هاتف نقّال رغم قدرة عزّام طبعا على شرائه وتوفيره.. وهكذا أقضي النهار على التلفاز؛ فهو متنفسي الوحيد..

ممنوع أن أستقبل ضيوفاً، ولا أزور أحدا من الجيران.. إذا أردت رؤية أمي وأخوتي في الحي الفقير؛ فلا يكون إلا بصحبته ولنصف ساعة فقط.. نسيت أن أخبركم أن أمي تزوجت من عمي!

أجل تزوجت.. وزوجها هو عمي الذي تخلى عن إعالة أبناء أخيه بعد فقدهم للمعيل، فقد عاد بعد أشهر، وقد شم رائحة مال (النسيب) فأعجبه أن ينهل من خيرات عزّام كما العيال وأمهم ينهلون؛ فاختار الزواج بأمي ومرافقة

عزّام أحياناً في مجونه الليلي إذا سمح له..

كل هذا لا يهم.. لن يهمكم كثيرًا.. ما يهم وسيثير اهتمامكم للغاية هو ما حصل لشبكة الهواتف الأرضية في الحي حيث بيت عزّام الذي أسكنه! فقد عانينا من حصول خلل في تلك الشبكة التي تتوسل حاجة للصيانة دون أن يسمعها أحد.. أصبحت الاتصالات تتشابك ببعض بشكل عشوائي متكرر.. أتستغربون تطرقي لهذا الموضوع الآن؟!

لا.. لا تستغربوا.. لست بمجنونة.. سأشرح لكم... لا تتسرعوا الحكم كعادتكم البشرية.. إذن فاسمعوا قبل إصدار الحكم.. اسمعوا للنهاية..

تشابكُ خطوط الهاتف كتشابك الأقدار يلعب دورا رئيسًا وهاماً في تغيير مسارات حياتنا وربطها بمسارات لم تخطر ببالنا.. تغيرت حياتي كلها وعلى نحو لم أتخيله سيحصل يوماً لي..

وإليكم ما جرى وكيف تشابك خطي مع خط زيد لأول مرة..

البوح الأول

اليوم الأول للتشابك...

انا (بتذمر): ألو.. هل تسمعني.. بقالة أبي سعيد؟

هو (بنبرة مستفزة): نعم و.. لا..

انا (باستهجان): ماذا تقصد نعم ولا!

هو (بخفوت): نعم أسمع صوتك.. و.. لا.. لست بقالة أبي سعيد..

انا (بإحراج فظيع): أنا آسفة.. آسفة

لحظات الإحراج لم تدم طويلا بعد أن أغلقت سماعة الهاتف.. كنت في واد آخر ذلك اليوم..

تنهدت إحباطاً من سوء خدمات الهاتف و.. سوء خدمات البقاء أحياء ونحن أحياء!

تطلعت حولي للجدران، وأنا أفكر بخزي أنها (مجدداً) شهدت ما حصل لي بالأمس..

أغمضت عيني بكل قوتي أحاول الاختباء من مواجهة تلك الجدران.. وموجة غثيان مألوفة تنتابني.. لا أطيق أن

يلمسني عزّام؛ بل لا أطيق شم رائحته وسماع صوته فكيف أطيق أن يعاشرني بتلك الطريقة المذلة؟! أن يلمس جسدي بذاك الاشتهاء الحيواني المنفر.. يشعرني كأني دابة مربوطة بحبل قصير ما أن يجره جرة خفيفة حتى أكون جارية صامتة مملوكة لنداء غريزة جسده..

ليلة الأمس كانت من تلك الليالي البائسة التي تستهوي عزّام أحياناً.. لقد أسال الدم من فمي وأذني.. أوجع عظامي ومزق لحمي.. اقتلع بعض الخصل من منابت شعري وهو يجبرني على فعل تلك الأمور المقززة.. فأفعلها منهكة ممزقة نازفة كذبيحة خرساء سيقت لنحرها، كأضحية في ليلة عزاء لا صباح عيد.. في محراب عبودية لا سكن زوجية..

أنا.. لم أعد أنظر في المرآة.. أكرهها! أكره ما أراه منعكساً فيها.. أحتقر نفسي (بصمت) مع كل أثر عنف وتهجم واغتصاب.. أجل.. أنا المغتصبة بكل شبر من جسدها.. رضوخي وانكساري أمام جبروت عزّام بات دائي المزمن الذي لا علاج ناجع له.. رضوخ يظن أنه يدفع ثمنه، وهو يغدق بالفساتين التي تلف جسدي المنتهك، والحليّ التي تداري آثار أصابعه وفمه على عنقي..

- لماذا تقفين كصنم الكفار هكذا؟!

ارتعدت فرائصي دون أن يكون لي قدرة على منع ردة فعلي.. فتحت عيني لأنظر إلى عزّام وهو يلقي إليّ بنظراته المستهينة ولمعة كالبرق في عينيه تذكرني بما حصل ليلة الأمس..

تجمدت روحي كما تجمد جسدي، وعزّام يقترب وهو يتساءل بنبرة ترعبني:

- بمن كنتِ تتصلين؟

شعرت أن الأنفاس انسحبت من رئتيّ، وعقلي يحاول مد يد الإنقاذ لي، وهو يَحُضُّني لأرد بشكل طبيعي لأني لم أفعل ما يغضبه..

قلت له وصوتي الخافت يرتعش:

- كنت أتصل.. بأبي سعيد..

كان يقف قبالتي الآن، يحدق في وجهي، ولا أدري ما يرى فيه ليقول بتساؤل:

- ولماذا لم تذهبي بنفسك للسوق؟! كنتِ تستطيعين الاتصال بي لاستئذاني..

دمعة أكرهها كانت ستدحرج على خدي عنوة، وأنا أشرح مكرهة وعيناي تنحدران بنظراتهما للأرض:

- لم أستطع الوصول إليك.. كان خطك مشغولا.. كما إني..

اقشعر جلدي وأنا أشعر بأصابعه الغليظة تمر بقسوة فوق موضع كدمة على خدي فيكمل هو ما عجزت عن قوله:

- كما إنك تخجلين من آثاري البسيطة على وجهك..

في لحظة انتفض في داخلي شيء ما! لا أعرف إن كانت بقايا كرامة تحتضر جعلتني أرفع عيني إليه وقد شع منهما ما أجهله وأيقظ غضبه!

صفعني صفعة أردتني قتيلة الكرامة على الأرض، وصرخ بأفظع الشتائم قبل أن يرفسني بقدمه في بطني وهو يصرخ:

- إياكِ أن تنظري إليّ هكذا مرة أخرى.. عيون العاهرات الوقحات هذه لا أريدها تحت سقف بيتي..

وبعدها لم أعد أفكر بشيء إلا متى ينتهي هذا الألم، وعزّام لا يتوقف عن ضربي ورفسي، بل يزيد ويزيد..

*****

بعد أسبوع

منذ نصف ساعة وأنا أحاول الاتصال والخط يتقطع.. لا أعرف ما علة هذه الخطوط! ضاق صدري وأنا كنت في حال كئيبة.. هذه المرة ليس عزّام السبب.. أقصد ليس بشكل مباشر.. نوبات ضيق نفس غريبة بدأت تنتابني مؤخرا.. لا أفهمها ولا أملك أن أتكهن بأسبابها.. أصحو وسط الليل تتخبط نظراتي يميناً وشمالا في الظلمة، وجسد عزّام جواري يغرق بنومه الثقيل فأشعر بمزيد من الثقل يجثم على صدري..

عزّام خرج منذ الصباح الباكر بعد ان رمى في وجهي أوراقاً نقدية وهو يأمرني بالقول الغليظ:

- منذ يومين أُخبرك أني أشتهي البيض المقلي، وأنت بمنتهى الغباء لا تفعلين شيئا إلا متابعة تلك المسلسلات الصينية التافهة..

وددت عفوياً التصحيح (كورية وليست صينية) لكن لساني لم ينطق، وضيق التنفس داهمني، بينما أنحني لألملم الاوراق من على الأرض، وعزّام يغادر الدار بمزاج متعكر..

قضيت النهار بالتنظيف.. لا أعرف لماذا لم أذهب بنفسي لأبي سعيد كي أشتري احتياجات الدار، وأتنفس بعض الهواء خارج هذا السجن، وقد أعطاني عزّام الإذن.. لكن ذاك الشعور العجيب كان يتأجج بداخلي من جديد.. أتراني أخدع نفسي أني قادرة على التمرد؟! هل وصل بي الضعف والرضوخ أن أُقنع نفسي أن هذا تمردا وثأرا لكرامة مُراقة منذ ست سنوات؟!

كل ما فعلته اللحظة أني.. هربت..

هربت من الإجابة.. هربت من التفكير.. ويا ليتني أهرب من الإحساس ومن الحياة كلها..

بجمود كامل أعدت الاتصال بدكان أبي سعيد، وكأن شيئا لم يدر بخلدي.. فتنتابني نوبة ضيق تنفس جديدة فارفع يدي الحرة لأدلك منطقة الصدر، بينما رنين الانتظار يجعلني أتوتر وشحنات من الغضب غير المبرر تجعل أصابعي ترتعش أمام ناظريّ..

وبعد طول رنين توقف للحظة، ثم فجأة فُتح الخط، وصوت رجل اخترق شحناتي وهو يقول بنبرة ناعسة: نعم..

أنا (بردة فعل عنيفة بعض الشيء): مرحبا أبا سعيد..

لماذا تأخرت بإرسال الخبز والبيض حتى الآن؟ أنتظرك منذ ساعة! فماذا تنتظر أنت لترسلها الي؟!

تركيزي ضائع، والضيق يشتد، وأنفاسي تتسارع، وإحساس بعرق بارد يرطب جبيني؛ حتى جاءني رده:

هو (بصوت متسلٍ): أنتظر.. العنوان...

أنا (في حالة صدمة):...

هو (بفضول محبب): ما الذي يغضبك هكذا؟

أنا لم أرد وهو صمت.. وطال الصمت ولا أعرف لِمَ طال.. ولِمَ ابتدأ من الأساس!

لماذا لا أغلق الهاتف ببساطة؟! لماذا لا أشتمه على سماجته ووقاحته؟! إنه هو نفسه من تشابك الخط معه قبل أيام.. لماذا وجدت نفسي لجأة في ركن مظلم بارد محشورة حشرًا فيه، وهناك من يتلصص عليّ من خرم الباب المقفل؟! وبدلا من أن يغضبني ويوترني هذا، على العكس أشعرني بالتراخي.. بالسكينة.. ببعض الحياة تدب في ظلمتي.. هل تعلمون عندما تعيشون كابوساً ما، وتستيقظون فزعين وأجسادكم تختض.. العرق يتصبب منكم، لكنكم وسط الظلمة تبحثون عن أي نفس لأي إنسان يشعركم أنكم لستم

وحدكم في هذا العالم المُقفر المخيف؟ هذا كان شعوري بالضبط..

حتى ضيق التنفس تلاشى تماما، ووجدت نفسي في حالة غريبة من الإحراج والخجل والألفة لأواجه مشاعري المختلطة هذه بطريقة انفعالية:

- يا إلهي.. ليس مرة أخرى...

هو (ضاحكاً بخفوت): لحسن الحظ.. أجل.. إنها مرة أخرى! كنت سأغضب كثيرا لو كان ما أيقظني من نومي مكالمة.. من أخرى..

أغلقت الخط وأنا أشعر بسخافتي وحمقي و.. احمرار وجهي وظل ابتسامة طاف فوق شفتي على غفلةٍ مني! إحساس أنساني من أنا اليوم وأين أنا وماذا غدوت.. إحساس قديم نفض الغبار عن نفسه ليعيدني بنت السادسة عشرة عندما يلاحقها شاب ويهمس في أذن براءتها ببعض كلمات الغزل البريء..

أسمع صوت ضحكاتكم الهازئة.. مؤكد لن تفهموا ولا أظنكم ستفهمون.. ربما تحبون قراءة الحكاية فقط فضولا للنهاية، أو ربما لتفرغوا حاجتكم لإحساس الترفع والمثالية الزائفة التي تسعون لتصديقها عن أنفسكم..

حسن.. لا تحملوا الأمر أكثر من طاقته فربما هذه.. آخر مرة.. كانت مجرد قطرة لشعور بشريّ بحت.. وربما ستكون (آخر مرة) أشعره.. أصابكم الفضول لتعرفوا إن كنت محقة بتوقعي أم لا؟! إذن تابعوا معي وستعرفون..

*****

بعد أيام

نظرت في المرآة، ولم أعد أشعر بشيء وأنا أعاين آثار لكمات عزّام على وجهي.. منذ يومين عاد سكراناً غاضباً وعبثا حاولت الاحتماء بجدار أو باب فقد كان له اليد الطولى ليقتحم أي موانع تمنعه عن تحويلي لكيس ملاكمة..

ومع ذكريات ليلة الأمس، والوجع المألوف روحاً وجسدا ارى انعكاس وجهي بالمرآة لا يعبر عن شيء البتة.. ساكن سكون الموت..

لم أشعر بيدي وهي ترتفع بهدوء، وأربت بأناملي على موضع الازرقاق ثم ثبتت نظراتي على شفتيّ لأراهما تتحركان بالفعل؛ ثم صوت يشبه صوتي يصل لمسامعي: «اتصلي بالعم أبو سعيد، واطلبي بعض الدهن والطحين»..

عند الهاتف شعرت بنفسي كأني مخدرة.. كأني تركت (أشرقت) عند المرآة تتحسس موضع الازرقاق، وأتيت إلى وسيلة التواصل الوحيدة التي أملكها لأتصل كأي بشر حي يرزق يمارس حياة طبيعية.. طبيعية جدا.. طبيعية إلى حد البكاء!

دموعي تهطل فوق يدي التي استرخت فوق جهاز الهاتف الأسود، وتبللت سبابتي التي تنقر بملل انتظار لا أشعره حقاً وإنما أجيد تمثيله..

جاء صوتي عادياً للغاية والخط يفتح.. مؤكد لم أكن أفكر على الإطلاق أن هذا تشابك جديد مع زيد؛ فكل ما كان يهمني ساعتها أنى أتقمص دور امرأة.. فتاة.. أي نموذج بشري يعيش حياة طبيعية..

أنا: ألو...

هو:......

أنا (مستغربة الصمت): ألو.. عم أبو سعيد لماذا لا ترد؟!

هو:......

أنا (بعبوس حانق): ألووو.... يا عم....

هو (بنبرة رجولية أصابت هدفاً ما في موضع ما): ماذا تريدين هذا الصباح؟ لدينا بيض طازج وقشطة بالعسل وجبنة بلدية... و... لدينا... أنا...

أنا (وكلمة «أنا» منه جعلتني أبتلع ريقي بصعوبة، وكأني وجدت « لقطة»! أردت أن أخبر هذا الغريب بكل شيء دفعة واحدة.. أردت أن اقول له تعال وانظر لوجهي وافعل شيئاً.. أي شيء! وبدلا من هذا اخترت أن أهبط للواقع؛ فمسحت قطرات الدمع وأنا أوضح له):

- هناك سوء فهم وليس كما تظن.. الخطوط تتشابك... لا بد أنه يحصل معك أنت أيضا. أنا آسفة... سأغلق الهاتف وأحاول من جديد..

هو (بنبرة رجاء): لحظة من فضلك...

انا (أرد عليه كبلهاء أو مومياء): نعم..

هو (بمحايلة مكشوفة): ما هو رقم هاتفكم؟ حتى أطلب من مركز الاتصالات فصل الخطوط المتشابكة...

أنا (أتجاهل محايلته عن عمد لأستمر في الرد ببلاهة): لا أستطيع إعطاءه لك... آسفة..

هو (بجرأة): ما رأيك أن أعطيك إذن رقم هاتفي؟

أنا (ما زلت أبحث عن ظل التجاهل لأختبئ فيه مما يعنيه): ألا تستطيع ببساطة ان تسجل شكوى لدى مركز الاتصالات؟

هو (يسأل بفضول): لماذا لا تفعلين أنت؟

أنا (الرد على سؤاله يتجسد بصورة عزّام، وكأنها قفزت فجأة في مخيلتي فأخرست لساني):.............

هو (بدا كمن يجس النبض ويتسلل لحوار أعمق): يمكنك أن تخبري والدك ليفعل.. أليس كذلك؟....

أنا (وقد شعرت بغتة بالنفور منه ومن نفسي ومن الدنيا بأكلها حتى إن حالة من الغثيان تملكتني): أعتذر سأغلق الهاتف.. وأعتذر منك لكل الإزعاج غير المقصود..

ما أن أغلقت الهاتف معه؛ حتى ظللت أدور حول نفسي! لا أعلم ما الذي كان يجعلني أفعل هذا.. لكنه فعل لا إرادي تملك جسدي وكأني أثبت دوران الأرض..

أجفلت وتوقف الدوران والهاتف يرن..

أرتعد دون إرادتي وأنا أقترب على عجالى.. لن يكون إلا عزّام المتصل.. ويا ويلها إن تأخرت بالرد..

يدي تختض، وأنا أرفع السماعة وصوتي لاهث يفوح عاليا برائحة الرعب: مرحباً

عزّام (بنبرة تعالٍ): أين كنت؟

كان الرد جاهزا على طرف لساني: في الحمام..

قلبي يقرع بقوة، وأنا أفكر هل هذه المرة الأولى التي يحاول الاتصال؟ هل حاول قبلها ووجد الخط مشغولاً؟

أكاد أسمع ضربات قلبي كصدى ترتج له الأركان بينما يقول عزّام بنبرة أعرفها وأميز معانيها: لن آتي للغداء.. لكن حضّري عشاء دسماً..

تلقائيا رفعت يدي أغطي بها فمي لمنع رغبة تقيؤ.. العرق أشعره يسيل على طول رقبتي.. كل هذا لمجرد تفكيري بما ينتظرني الليلة من جحيم معاشرته المقرفة..

احتجت للخروج اللحظة.. اللحظة بالذات.. كنت واثقة أني سأموت إن لم أخرج..

كلماتي خرجت مبعثرة غير محددة: أريد الذهاب للصيدلية.. و.. أحتاج خبزا..

هو (ببعض الارتياب): أي صيدلية؟ وهل هناك صيدلية تبيع خبزاً؟!

شعرت بحجر علق في حنجرتي.. بذلت جهداً خرافياً لإظهار صوتي معتدلا وأنا أوضح له: أقصد احتاج الاثنين معاً.. الصيدلية لشراء.. كريم طبي.. والخبز من أبي سعيد..

صمته أرهقني، وشعرت أنه سيرفض حتميا، فسارعت لإطلاق كذبة جديدة ونوبة اختناق رهيبة تسيطر على أنفاسي، وأنا أكاد أتوسل إليه ليمنحني الإذن: لن أتأخر.. أولاً سأذهب للصيدلية في الشارع العام القريب، وفي طريق العودة للبيت سأمر بأبي سعيد..

كنت سأقع مغمى عليّ وأنا اتوقع رفضه المعتاد، لكنه فاجأني بل صدمني وهو يوصيني بما لم يخطر لي على بال: اشتري لي من الصيدلية حبوب الـ(..) لدينا ليلة طويلة، وقد أعجبني تأثيرها ليلة الأمس..

لم يكن هناك داعٍ لأسأل عن ليلة الأمس لأنها مؤكد لم تكن ليلتي.. فاكتفيت أن أهمس رضوخاً مؤقتاً: حاضر.. سأفعل..

ضحكة لجة منه، قبل أن يغلق الهاتف في وجهي، ليتركني أهوي وساقاي تطويان تحتي..

نبض قلبي يخف ويخف وكأن الحياة تضيع مني.. حتى انتفضت نبضة.. نبضة واحدة جعلتني أرفع وجهي وأتوكأ على أي شيء مما حولي لأصلب طولي وأقف.. كانت مجرد نبضة صغيرة جعلتني أتابع خطواتي المترنحة حتى غرفة النوم لأختار أفضل ثيابي وأكثرها أناقة حتى أرتديها!

أهيم على وجهي في الشارع العام التجاري.. الجو شتوي بارد بامتياز، لكنه أنعشني، وجعلني أفيق من حالة الترنح والغثيان التي أصابتني..

مررت بأكثر من صيدلية لكن غضضت الطرف عنها.. لم أكن أريد العودة.. لم أكن قادرة على العودة.. ولا أعلم كيف يمكن أن (لا أعود)؟!

شجاعة ساذجة تملكتني وأنا أُتمتم (لا أعود).. صورة

عزّام تأخذ بالصغر كوهم مخادع.. فوجدتني أرفع رأسي وعيناي تبحثان في المباني التجارية المتراصة.. مبانٍ متوسطة بارتفاع لا يتعدى الست طوابق.. محلات.. مكاتب.. صالونات.. عيناي تقرآن على عجل أي إعلان معلق لطلب وظيفة، كان هدفي المنشود اللحظة.. حتى إني لم أصدق رؤيته وهو يتلألأ كالذهب أمام ناظري.. قلبي يخفق بجنون وأنا أقرأ المطلوب، ثم تخطو قدماي داخل المبنى، فأصعد السلالم مذهولة مرعوبة لا أصدق أني أفعلها!

كدت أصل لشركة (الشاهين) للحاسوب في الطابق الثالث حيث أشار إعلان الوظيفة وعلى بعد بضع خطوات من باب المكتب رأيت امرأة بارعة الجمال.. سمراء خمرية.. تخرج متعجلة من الباب حتى أنها ارتطمت بي دون أن تقصد..

ابتسمت لي ابتسامة خلابة، لكني لم أستطع حتى رد ابتسامتها، وعيناي تعلقان على اللوحة عند الباب القريب، واسم (الشاهين) كأنه يناديني لـ..فخ!

اعتذرت تلك المرأة الجميلة، وما زالت ابتسامتها متوهجة، وبدت كأنها توشك على سؤالي عندما رن هاتفها النقال فانكمشت غريزيًا والمرأة تتجاوزني، وهي ترد على المتصل، وتعتذر له عن التأخير..

مضت المرأة في حال سبيلها تهبط درجات السلم على عُجالى؛ لتتركني وحدي أواجه تعثرات خطواتي حتى وقفت عند باب شركة الحاسوب، أبحث عن أي وجه يطمئنني، ويخرجني من شعور الرعب والضياع..

كانت الشركة مجرد مكتب عادي.. وقد بدا لي خاليا فانكمشت بشعور أقوى مني.. لقد خانتني ثقتي، وتكاد تهوي بي إلى قاع الحضيض، وأوشكت أن أتراجع لأغادر عندما أطلّت عليّ امرأة حمراء الشعر؛ أخذت تتطلع إليّ في المقابل، وهي تقول بعفوية: كيف أخدمك عزيزتي؟

شعرت بأنفاسي تضيع مني، وتلك الصهباء تتطلع إليّ بفضول واضح، وكأنها تقيّم شكلي وهيئتي..

شعور بالنقص انتابني فجأة، وودت اللحظة أن تنشق الأرض وتبلعني.. أخذت الصهباء تقترب مني وأنا أقاوم رغبة قدميّ للهرب.. وكأن تلك المرأة تدرك ما أعانيه؛ فنظرت إليّ بإشفاق، وهي تسألني بلطف بالغ: هل أستطيع المساعدة؟

كفاي تشبثتا بحقيبتي الجلدية، وكأني أبحث عن شجاعة لا وجود لها في قاموس حياتي لكن لساني يعاند وهو ينطق بثقة مهزوزة: هناك.. إعلان عن وظيفة..

ارتفع حاجبا الصهباء وهي تعاود النظر لملابسي ثم قالت بتأنٍ: هل قرأتِ الإعلان جيداً؟ نحن نحتاج لمن يصنع القهوة والشاي، ويعتني بنظافة المكتب.

هززت رأسي واضطرابي يصل ذروته؛ لكني رددت بتشبث الغريق بقشة: نعم قرأته.. هل... أستطيع.. أن آخذ الوظيفة؟

فجأة انفتح باب إحدى الغرف، ليخرج رجل ضخم أشعث الشعر، وهو ينادي بصوت جهوري مخيف متذمر: سمارا! تعالي وخذي قردك الأسود هذا! إنه مريع ويخيفني شخصياً..

خطواتي ارتدت للخلف، وأنا أحدق في ضخامة الرجل بوجل حقيقي حتى تدخلت الصهباء سمارا وهي توبخه بالقول: توقف شاهين لقد أرعبت الفتاة.. ستفر هاربة من صوتك المرعب هذا!

تحولت عينا شاهين فورياً إليّ.. نظرته شعرتها وصلت لعمقي مباشرة؛ فاهتزت روحي، وبحركة دفاعية تلقائية وجدتني أتراجع عن كل شيء، فأتمتم باعتذار غبي: أنا آسـ.. لكن اعتذاري لم يكتمل، وقد خنقتني الغصة، شعرت بجسدي كله يرتجف ولم أجد إلا جملة متخاذلة تخرج من بين شفتيّ بمرارة الهزيمة: أنا سأرحل.. أنا...

آسفة..

كنت سأستدير لأهرب، عندما اوقفني صوت شاهين الثابت بلطف لا يوصف: توقفي لحظة.. هل نستطيع المساعدة بشيء؟

كان قد تقدم مني، ليقف قبالتي، يضيق عينيه، وهو يحدق فيّ بتركيز سمّرني مكاني، بينما ترد سمارا عن سؤاله : لقد أتت لأجل إعلان الوظيفة..

شعرت وكأني سجنت بينهما.. شعرت بأني أضعف من أي وقت مضى.. أني جبانة.. لا ليس الجبن وحده.. بل الخوف من مصير أسود لإخوتي.. عمي لن يتوانى في بيع أختي حالما تبلغ مفاتن الأنثى ويلتف عودها.. الرعب تمكن مني بتلك الصور القاتمة، وأنا أتخيل ليلة زفاف اختي كليلة زفافي أو ربما.. أسوأ.. أنقل نظراتي بين الاثنين.. شاهين وسمارا فأتوسل إليهما أن يحرراني لأعود لعبوديتي: غيرت رأيي، أنا.. لا أنفع.. أرجوكما..

تراجعت أكثر، وأنا أكاد اصرخ مستنجدة بهما من شدة الخوف لمصير ينتظرني لباقي عمري، بينما شاهين ذاك لا ييأس وهو يوقفني مجددا: لحظة من فضلك..

ثم ابتسم في وجهي ابتسامة لن أنساها طوال حياتي،

وكأنه يقدم وعوداً مبهمة لم يجرؤ أحد قبله على تقديمها إليّ، فرفع كفه الضخمة ليشير لنفسه قائلا: دعينا نبدأ من جديد.. أنا شاهين.. مدير هذا المكتب المتواضع.. نادني أبا يوسف..

ثم يحرك كفه ناحية سمارا التي تقدمت لتقف جواره مضيفاً بألفة وأريحية: وهذه الحمراء هي سمارا أخت زوجتي ورفيقتي بالنضال... ويفترض أنها أم فرح وقرد صغير أسود قابع على أريكة مكتبي في الداخل..

تضربه سمارا في كتفه، وهو يضحك بصبيانية مشاكسة، بينما أنا كالبلهاء أنظر إليهما في حسرة! شعرت أنني أوشك على الانهيار في البكاء، وأنا أتمنى أن أعود طفلة رضيعة كذاك الرضيع الذي يعتني به رجل ضخم مخيف الهيئة، يمنح شعوراً بالطمأنينة دون مجهود يبذله..

لم يخرجني من حالتي إلا صوت سمارا وهي تسألني بقلق: هل أنت بخير عزيزتي؟

كنت أهز رأسي، وأنا أسلم بالخسارة.. لن أكون رضيعة من جديد.. ولن أحظى بأهل كهؤلاء.. لقد فات الأوان.. فاعترفت لهما كما اعترفت لنفسي: أنا أخطأت المجيء هنا.. يجب أن أعود للبيت في الحال.. كان خطئًا فادحاً..

قدماي تحركتا للباب القريب كي أغادره كما دخلته، لكن صوت شاهين يلاحقني كأنه النداء الأخير: لا تبدين بخير.. كيف ستعودين؟

تخيلت خلال لحظات ما يمكن أن يحدث بين هذا الرجل وبين عزّام.. لا.. يجب أن أبتعد.. أخذت تلقائيا أشوح بيدي كأني أبعدهما عني، وأنا أرد على السؤال بجواب مبهم: بيتي قريب... سأعود مشياً كما أتيت.. أنا تسرعت.. لم يكن يفترض أن أتصرف بحماقة و... أدخل هنا..

لم أكن أنظر إليه وأنا أهرب بخطى ثقيلة للغاية، بينما أسمعه يحثني بتصميم: فقط لحظة واحدة رجاء قبل أن تغادري..

نظرت إليه فأراه كيف يبحث في جيوبه، ثم أنظر إلى سمارا وأنا أستشعر الدقائق تمر سريعا فاستنجد بها؛ بينما يهرول شاهين أمام ناظري إلى غرفة مكتبه ليعود إليّ حاملا بطاقة صغيرة بيضاء وهو يقول لي بابتسامة عريضة مرحبة: خذي هذه البطاقة معك.. والوظيفة بانتظارك دوماً..

مرت لحظات طوال، وأنا أنظر للبطاقة البيضاء في يد

شاهين دون أن أجرؤ على أخذها.. شعرت بأصابع عزّام تلتف حول رقبتي، وتخنق أنفاسي ببطء! جاء صوت سمارا يحثني بعزم لا يعرف اليأس: خذيها عزيزتي.. ربما تغيرين رأيك، وتنسين العنوان، فلا تستطيعين العودة لطلب الوظيفة..

لم أعرف لماذا فعلتها.. لكني فعلتها وأخذت البطاقة منه، وغادرت مهرولة هذه المرة لأهبط درجات السلم، والرعب يمزقني إربا، ولساني يتمتم: سيقتلني عزّام.. سيقتلني لا محالة..

لم أعد للبيت إلا وحبوب (عزّام) في حقيبتي، وكيس الخبز في يدي.. مررت بين أزقة الحي، وأشعر الكل ينظر إليّ بإشفاق واستهانة..

و.. كانت ليلة طويلة.. صرخاتي عالية وأنا اتلقى من عزّام معاشرة جسدية تقوض الروح، وتوهن الجسد.. كنت أصرخ بصوت أعلى وأعلى وعزّام مستمتع يظن لحولته (السبب).. وكنت ممتنة لتلك الظنون منه فظللت على صراخي حتى تشققت حنجرتي كما تشقق قلبي كمداً على موتي البطيء..

كنت أصرخ بأمنية مستحيلة.. أن أموت نهائيًا دون مراحل، ثم أولد من جديد رضيعة في حياة أخرى..

*****

بعد أسبوعين

أنا (بصوت رتيب شبه ميت): مرحباً.. هل لديك رزا وعدساً يا عم.. سآتي بنفسي لأخذها... لا داعٍ لإرسال الصبي.

هو (بنبرة غريبة): مضى أسبوعان لم تتصلي...

أنا (لم أجد ما أقوله):......

هو (مسترجعاً حسه الفكاهي): الوووووووو... هل ما زلتِ معي؟ أستطيع أن أحضر لك بنفسي الرز والعدس من أبي سعيد، فقط ردي عليّ..

أنا (غمرني شعور بالاضطهاد، وحاجة ملحة أن أفسر له وأدافع عن نفسي): أنت تسيء الظن بي حقاً، ولا تصدقني.. ولعلمك أنا غيرت وقت الاتصال لأني اكتشفت أن التشابك يحصل نهارًا، ولا أدري كيف حصل عصر اليوم.

هو (بصوت هادئ ونبرة عقلانية): أنا أعلم أنك لا

تتعمدين تشابك الخطوط.. لقد سألت بنفسي في مركز الاتصال..

أنا (بجدية وصدق): هل سجلت شكوى لحل المشكلة؟

هو (بنفس الجدية والصدق): لا...

أنا (بدهشة لم أُخفِها): لماذا؟!

هو (بتساؤل ملح): ولماذا لم تفعلي أنت؟!

أنا (بخزي أخفي أسبابه): لا أعرف... التعامل بهذه الأمور..

هو (بنبرة خافتة فيها صدق وفيها شقاوة): لحسن الحظ!

أغلقت السماعة بهدوء، ولم أشعر للحظة أني ارتبكت خطأ.. كان الأمر يفوق قدرتي على تصويره كخطأ.. كل ما شعرته أنني ممتنة لما أعطاني إياه هذا الغريب الذي لا أعرفه ولا أعرف حتى اسمه..

*****

بعد عشرة أيام

صباحي ابتدأ بصفعتين على الخدين! تكرارًا لجملة (أنت ليس لك إلا طاعتي.. لقد اشتريتك وأهلك بمالي..)

كانت إحدى نوبات عزّام الغاضبة، وإن كنت بدأت ألاحظ عليه توترا أكثر من المعتاد.. إنه يمر بمصاعب عمل تجعله أقرب لثور هائج متوحش لا ينتظر حتى القطعة الحمراء لينطح بقرنيه..

ألامس خديّ المسفوعين بالتتابع، وأنا أخفي عنه عينيّ تحسباً لكشف ما يعتمل في نفسي من شعور الشماتة! أجل أشمت به.. وأشمت من إحساسه بالقلق على تجارته وماله..

ليت كل تجارته تحترق أمام عينيه..

فكرت ساعتها كم أتمنى رؤيته ذليلاً يعاني العوز! بل تماديت بأفكاري، إنه ربما الحل الوحيد لوضعي.. فعندها سأكون قادرة على مواجهته ومواجهة عمي وأمي.. وربما.. سأعود لذلك المكتب.. مكتب شاهين.. وأجد عملا بسيطا أعتاش منه..

وجدتني أشعر بانتعاش لهذه الأفكار المريضة الشامتة! أصبحت ترضيني.. ترضي جانبا أسود يرغب بالثأر

والانتقام من عزّام..

كنت أغني وأنا أعد طعام الغداء.. دوماً كان صوتي جميلاً ويعجب أبي رحمه الله.. قررت أني اليوم سأعد أشهى الأطباق التي أحبها.. سأدلل نفسي بأشهى الطعام.. فتحت إحدى الخزانات فوجدت بعض المؤن نفدت وأحتاجها لإتمام الطبخ.. أطفأت النار تحت القدر ولم يزعجني التأخير.. كان مزاجي جيدا جدا!

ذهبت لأتصل بالعم أبي سعيد، ولم أكن أدري أن هذا الاتصال هو فصل جديد ومنحنى لم أتوقعه وقتها من حكايتي مع زيد..

أنا (بمزاج رائق): يا عم.. أحتاج لمعجون طماطم وبعض البقوليات؟ سجلها لو سمحت..

جاءني صوت زيد الذي أصبح مألوفاً لديّ هو (بتلهف كأنه وجد ضالته): تشابكت الخطوط في وقتها... كنت بحاجتك جدا اللحظة..

انا (باستغراب حقيقي): عفواً!

هو (وكأنه يكلم نفسه): قضيت ساعتين من التوتر والغضب الداخلي المكبوت وأنا أحاول تهدئة أمي...

أنا (شعرت بالارتباك والحرج): والدتك؟!

هو (بدا متوترًا على نحو كبير): انهيار انفعالي منها بسبب أفعال أخي الأصغر الطائش.. يا إلهي إنه مجرد فتى في السادسة عشرة، وجزء من مرحلته العمرية هذه أن يكون طائشًا وأحمقاً...

أنا (لم أجد ما أعلق به):....

هو (باسترسال): رغم أن أفعال الفتى مثيرة للسخط، إلا أن الأمر لم يكن يستحق كل هذا الانهيار بالبكاء!

أنا (ما زلت أشعر بحرج أن أعلق):...............

هو (بعطف مسني كثيراً): أظنها تمر بإحدى تلك النوبات...

أنا (أتساءل بدهشة): نوبات؟!

هو (يشرح بإسهاب): نعم... نوبات تأتيها بين فترة وأخرى.. تنهار وتنفعل لأسباب تافهة، ثم ينتهي الأمر بالبكاء على كتفي.. لكن في الواقع هي تعاني لأنها لا تستطيع التعامل حتى اللحظة مع فقدانها لأبي رغم مرور

خمسة أعوام..

أنا (بتأثر لم أخفه سألت): هل والدك متوفٍ؟

هو (يرد بنبرة حادة باردة): بل طلقها ليتزوج من فتاة تصغرني بعام.

أنا (عدت لحالة الحرج): أنا.. آسفة!

هو (أعادني للإحساس كأنه يكلم نفسه): كان يغار من نجاحها كمحامية معروفة فكسرها كامرأة.

أنا (بدأت أشعر بغضب يتفاعل بداخلي؛ تآزرا مع ما يقوله عن أمه، لكني لم أقل كلمة):...

هو (بانفعال وتحيز كامل لأمه): أكره ما فعله بها... كانت تبذل مجهودا مضاعفاً كي لا تشعره بنجاحها هذا.. حتى لا تشعره أن ما تنفقه على البيت من كَدِّها وتعبها يفوق ما ينفقه هو بل يكاد يكون الضعف...

أنا (رغم اعتمال الغضب في داخلي؛ لكني وجدت نفسي مبهورة بشعوره المميز بأمه):.......

هو (كان غاضبا هذه المرة وصوته عال مرتفع وهو

يقول): هل ذنبها أنها امرأة كي تبذل كل هذا الجهد لإرضائه والتغطية على شعوره بالنقص، ثم يتزوج عليها في النهاية مرضياً رجولته اللعينة؟!

دمعة سالت على خدي، وابتسامة شعرتها تذوب فوق شفتي.. وشعور انتابني كذاك الشعور عندما تمنيت أن أعود رضيعة؛ ليهتم بي أناس آخرون يحمونني ويحافظون عليّ..

أنا (أهمس بجملة تختصر حالتي بصدق): أنا.. أحسد والدتك..

هو (يتساءل ببلاهة): تحسدينها؟!

أنا (أمسح دمعتي السخيفة، وأنا أجلس على الأرض، وأشرح له مقصدي): إنها امرأة قوية تملك زمام نفسها.. ناجحة في عملها، وتربي ولديها، وتقف على قدميها رغم هجر زوجها لها، وزواجه من أخرى..

هو (أطبق الصمت من جهته):....

أنا (جاء دوري لأكلم نفسي كما كان هو يفعل معي قبل لحظات): أعرف.. شابة.. متزوجة بالغصب من سكير حقير عربيد مذ كانت في السادسة عشرة.. يضربها

كل ليلة وهو يعود مخمورا يكاد يفقد وعيه.. رائحة النساء المبتذلات تفوح منه مع رائحة الخمر..

للمرة الأولى تحكيها لشخص غريب بسلاسة وببساطة هكذا.. بل هي المرة الأولى على الإطلاق، فأمها لم تنصت منذ البدء ومنعتها الشكوى..

هو (يسايرني بأسلوب الكلام عن «الغائبة» المتكلمة): ولماذا لا تتركه؟!

أنا (أواصل اللعبة، وأرد بوجع اعتدت عليه كما يعتاد من ابتلاه الله بمرض مزمن): لأن أمها باعتها له... مقابل أن يتولى الإنفاق عليها وعلى أخوتها الخمس الصغار... لذلك هي لا تستطيع تركه كما لا تستطيع... أن أن...

لا أعلم كيف تجمعت كل هذه الدموع في عيني، وألجمت لساني، فجاء صوته كَيَدٍ تطبطب علي، وتمنحني الثقة مع الإنصات، وهو يتكلم معي بحوار موجه لي بدلا من توجيهه (للغائبة)..

هو: أخبريني.. لا تستطيعين ماذا أيضا؟

أنا (شلال من الدموع يتفجر من المنابع هادراً كما تفجرت الكلمات من أحشاء معاناتي): لا أستطيع

التحمل... لم أعد أستطيع... إنه مريض يعاملني وكأني حشرة... يدوسها بحذائه متى أراد... يراقبها تنازع تحت قدمه، حتى الرمق الأخير ليفلتها في آخر لحظة قبل أن.. أن تلفظ الأنفاس.. ليته يقتلني وأرتاح...

أخذت أبكي كالمجانين، وهو صامت كأنه يستوعب قضيتي كما احتجت أنا أن أستوعبها.. أن أحكيها هكذا لإنسان لهو إخراجها عنوة للعلن بدلاً من أن كانت تقتلني ببطءٍ في الخفاء..

هو (تساءل بعد دقائق لا أحصيها): ألا تعملين؟

أنا (أحاول أن أفيق من انهياري لأتماسك وأنا أرد عليه): أنا لم أكمل دراستي الثانوية حتى... أخذني بمريول المدرسة.. كما أنني لست موهوبة بشيء... وفي كل الأحوال هو يمنعني العمل..

هو (يتساءل بهدوء): لماذا يمنعك؟

أنا (باشمئزاز ونفور من نفسي قبل أن يكون نفوراً من عزّام): لأني ملكه... دوما يقول لي إنه اشتراني..

هو (رد بانفعال): يقول ما يشاء.. المهم هل أنت مقتنعة بهذا؟ هل في قرارة نفسك تؤمنين أنه اشتراك؟

سؤاله يتردد للمرة الأولى في عقلي.. دوماً آمنت أنهم باعوني له.. لكن هل تؤمن حقاً أنها ملك عزّام؟! وجدت نفسي أصرخ بالإجابة..

أنا: لا.. لا... لقد كنت طفلة وباعوني له... أكرهوني على كل شيء.. يضربني بعنف حتى أجهضت ثلاث مرات.

هو (مفجوعا بما قالته): يا إلهي... أجهضك ثلاث مرات؟! إنه حيوان! لماذا لم تخبري الشرطة؟!

أنا (بضحكة خرقاء): أضحكتني! لقد صرخت واتهمته أول مرة، وأثرت فضيحة في المستشفى، لكنه اكتفى أن يتفرج على أمي، وهي تلطمني على وجهي كي أصمت! ثم هددتني أني إذا ابلغت الشرطة ستأخذ صف زوجي وتتهمني أنني فعلت هذا بنفسي وعن عمد.. أما زوجي اكتفى بأن قال.. المال يشتري كل شيء... فكما اشتراني يستطيع شراء الحقائق واستبدالها بأي قصة مفبركة تدمرني.. كأن يتهمني بالجنون!

هو (بحماسة حقيقية): دعيني أساعدك.. أمي محامية وستساعدك...

أنا (برعب جعل جسدي يتثلج في لحظات): لا.. أرجوك..

هو (بإلحاح شديد ومحاولة إقناع جادة): اسمعيني فقط.. ما اسمك؟ أنا إسمي زيد العامري، وأمي المحامية رؤى الطيب... صدقيني ستساعدك.. أستطيع إعطائك العنوان لتذهبي إليها بنفسك دون أي تدخل مني..

انا (وقد بدأت أفيق من حالة الانغماس بالاعترافات): أتوسل اليك.. دعني أذهب بسلام.. سأغلق الهاتف..

زيد (كان يوبخني بقسوة أفلتت منه): فقط أخبريني لماذا؟! لماذا تفعلين بنفسك كل هذا؟! هل أصبحت تحبين ما يفعله بك؟!

أنا (وأنا أبادله قسوته ببرود الواقع الذي لا يفهمه مهما شرحت له): لأجل أخوتي الصغار.. لأجل أختي التي لا اريدها أن تُباع مثلي.. أريدها.. أن تُكمل تعليمها.. عمي الذي تزوج أمي سيبيعها إذا تخليت أنا عنهم، وانفصلت عن عزّام..

زيد (بنبرة أشد قسوة من توبيخه السابق): لا أصدق كل هذه السلبية.. أنت غارقة فيها حتى أصبحت تستلذين بغرقك!

أنا (وقفت على قدمي وانفجرت فيه عبر الهاتف بانفعال مجنون): أنت مرفه، وأقصى مشكلة لديك عندما تتعب أمك من إحساس الخيانة، فتصرخ لتبكي على كتفك! ماذا تعرف عني؟ ماذا تعرف عن الشقاء الذي أحتمله كل يوم وكل ليلة... هل تعلم كم أثراً في جسدي لم يزُل منذ آخر مرة ضربني فيها.. كنت أتوسل إليه التوقف وهو يضربني بكل ما لديه من قوة، وكأنه حيوان متوحش هائج ينقض على فريسته الضعيفة باستمتاع التفوق...

زيد (فأجاني بسؤاله دون مقدمات له): أخبريني اسمك..

أنا (تبلدت مشاعري مع أفكاري، فلم أحر جوابا):

زيد (جاء صوته محملا بالاهتمام الحقيقي وهو يتوسل إليّ بنبرة أمر!): أخبريني...

أنا (شفتاي نطقتا، فتفاجأت أذنايّ وهما تسمعان اسمي): أشرقت...

*****

البوح الثاني

لأيام ظللت أشعر بتمازج الخوف بالفرح.. لأيام مصابة بالذعر وألوم نفسي كيف أخبرت زيد باسمي، بل كيف أخبرته حكايتي، وأنا لا أعرفه حقاً.. ومن طيات الذعر والملامة كانت تتسرب خيوط الفرح، لتبهج الصورة، وتمنحها قوة وصلابة..

عزّام مبتعد عني لحسن الحظ، وقد انشغل بالأزمة التجارية التي يمر بها.. أكاد لا أراه إلا آخر الليل ليأكل وينام في صمت وهو مشغول البال.. أحيانا أسمعه يتكلم عبر هاتفه النقال وهو يصرخ ويسب والعرق يتصبب منه من شدة الإنفعال، فتأتيني الأفكار الشيطانية أنه قد يقع أرضًا في سكتة قلبية!

فأستعيذ بالله منها، وأبتعد عن عزّام كما أبتعد عن تلك الأفكار التي تلوثني.. يكفي أنه تركني لشأني ورحمني من حقوقه الزوجية التي دفع ثمنها مهراً بالآجل.. الطويل الأجل..

حتى أنه (في غفلة من تركيزه) سمح لي بزيارة أهلي دون أن يكون بصحبتي.. فكانت سعادتي لا توصف حتى

إني دعوت الله من قلبي أن تشتد تلك الأزمة التجارية أضعافاً وأضعافاً..

أجلس بين أخوتي تملؤني السكينة.. أختي أطياف كانت تكبر، وعيناها المليئتان بالأمل والجدية تمنحاني الصبر ومزيداً من القوة.. أخوتي الصغار يلتفون من حولي يلامسونني.. يلامسون شعري وملبسي.. كفي وأطراف أصابعي.. فمي وابتسامتي.. يتعلقون برقبتي ويجدلون خصل شعري.. كنت أفهمهم وأفهم سر أفعالهم دون أن يحتاج الأمر لذكاء وثقافة.. إنه أمر تفهمه بالفطرة.. تدركه بالنظرة.. هو الاحتياج الغريزي لطمأنينة.. طمأنينة لا يجدونها عند أمي!

من بعيد ألمح عمي يتهامس في أذن أمي فأعلم أن الوقت حان للدفع..

ألتقط حقيبتي الجلدية لأخرج المال الذي استحقَّ أجله؛ بينما خيال أمي الأسود يجثم فوقي وفوق أخوتي؛ فأسارع لأمد يدي بالمال، ونوبة اختناق تعود إليّ، فتسارع هي لأخذه مني، والعودة لشريكها بالقسمة..

يعود أخوتي الصغار للعبهم من حولي إلا أطياف.. كانت تحدق في وجهي وفمها مزموم وعيناها غاضبتان.. غاضبتان لأجلي..

منحتها ابتسامة وكأني أقول لها: لا بأس يا صغيرة.. فداكِ وفداء لأخوتك..

فترمي بنفسها عليّ لتحضنني بقوة وجسدها الفتيّ الهزيل متصلب.. أهمس في أذنها: أنا بخير..

أطياف (وهي تشدد من احتضانها لي، وتقاوم تنافس أخوتي ليأخذوا حصتهم من هذا الحضن): عندما أكبر وآخذ شهادتي سأنقذك.. لن أتركك تعانين أكثر وحدك..

حالما نطقت أختي ذات الرابعة عشرة بكلمة (وحدك) وجدتني أفكر في زيد.. وشعرت لحظتها أنني لست وحدي.. لا أعلم بالضبط ما أسميه.. ربما.. صديق.. أو أخ؟! لكن متى كانت المسميات تمنحنا الإجابات الصحيحة؟! وهل مسمى (زوجة) الذي أحمله يعني بالضرورة أني زوجة عزّام؟! أم مسمى (ابنة) هل تصف علاقتي بشكل دقيق بمن حملتني في رحمها تسعة أشهر وأنجبتني؟

(المسميات) كالمعاملات الورقية.. حبر على ورق.. لا حياة فيها.. لكنها تثبت الحقوق؛ لتجد في القانون مكاناً، وعلى الأرفف الحكومية مقامًا.. وإنما تحيا عندما يصونها البعض، وتموت عندما يستغلها البعض الآخر..

عدت للبيت بعد زيارة أختي.. كنت سعيدة فوق الوصف... لقد ذهبت وعدت بمفردي.. دون خوف أو قيود..

خلعت حذائي عند الباب؛ فقد تلطخ بالطين وبرك الماء، من إثر الأمطار الغزيرة في اليومين الأخيرين.. وبينما أفعل؛ عيناي تقعان على الهاتف الأرضي الصامت.. وجدتني أفكر بزيد كما دأبت أن أفعل طوال الأيام الماضية..

لم أحاول الاتصال بالعم أبي سعيد؛ حتى لا أتعرض لاحتمالية تشابك الخطوط مع زيد..

شعرت بحاجتي للاختلاء بنفسي.. كنت بحاجة ماسة لهذه الخلوة بعد أن أخرجت ما في جوفي على مسامع رجل غريب..

فجأة وجدت نفسي أتساءل عن عمر زيد!

لم أظنه طالب جامعة.. خمنتُ أنه ربما يعمل بإحدى الأشغال الحرة التي يمتهنها الشباب هذه الأيام.. فالوظائف الحكومية لم تعد مطلباً ومسعًى.. كما أن تواجده في أوقات مختلفة في البيت جعلني نتأكد من صحة تخميني..

فجأة شعرت بالحماسة والطاقة، فاقتربت من الهاتف على عجل.. أخطأتم التخمين! لم أتصل بالعم أبي سعيد على أمل تشابك الخطوط.. كل ما فعلته أنى اتصلت بعزّام لأخبره أني وصلت البيت، لكني أحتاج للذهاب إلى دكان العم أبي سعيد لأتبضع بعض الحاجيات..

ليجعلني عزّام أدعو مجددًا باستمرار أزمته المالية في السوق، وهو يمنحني ببساطة موافقته..

أغلقت الهاتف وأنا أشعر بابتسامتي تتسع تلقائيًّا.. تمتمت لنفسي: استغلي الأمر يا أشرقت.. استغليه وعيشي بعض الحياة خارج السجن.. من يدري قد تتعرفين بالناس من حولك.. ربما الجيران الذي يكتفون بالنظر إليك من بعيد، ولا يتدخلون في شؤونك، ولا يسألون عنك، سيجدونك في النهاية فتاة حلوة المعشر طيبة الأخلاق.. ربما عزّام سيرخي الحبل أكثر، وتجدين الصحبة التي تبدد إحساسك أنك تموتين ببطء وحيدة بين أربعة جدران..

*****

دكان العم أبو سعيد

أقلب بأكياس العدس الصغيرة على مهل.. ثم أنتقل

لكيس حبوب الفاصولياء الجافة لأعاينها.. وبعدها يأتي دور الألبان والأجبان.. لقد وجدت نفسي أستمتع اليوم بالتسوق كما لم أفعل طوال حياتي..

عيناي بين الفينة والأخرى تلتفتان لمن يدخل ولمن يخرج.. فأبتسم بعفوية كأني أحييهم جميعاً.. الدكان كان مزدحماً بعض الشيء، فكان هذا من دواعي سروري..

اليوم كله كان بهجة خالصة لي..

كنت أقلب بإحدى العلب على الرف، عندما أوقعت إحداها.. انحنيت تلقائيا لألتقطها فسبقني شاب للانحناء والتقاطها، ثم وقف قبالتي مبتسماً بأدب وهو يقول: تفضلي آنسة..

كان الأمر ليكون عاديا جدا.. بل محبباً للنفس وأنا في حالتي من البحث عن الألفة مع الناس ذلك اليوم.. مجرد شاب يكبرني ببضع سنوات وسيم بعينين خضراوين يرتدي بلوزة رمادية أنيقة، ويتصرف بأدب جم ولطف..

لكن يدي تجمدت، ولم آخذ منه العلبة، وأنا أحدق فيها كالصنم دون إرادتي! إنه صوته.. لقد كان نفس الصوت بالضبط.. هل يعقل أنه مجرد تشابه أصوات.. أم أن الأمر اختلط عليّ؟!

بدا الشاب متفاجئاً بعض الشيء، وهو لا يعرف سبب تصرفي الغريب ونظرتي الجامدة..

ثم فجأة نادى أبو سعيد: زيد.. وجدت لك صنف السجائر الذي تريده.. تعال بنيّ..

هذه المرة لم أُسيطر على ردة فعلي لأتحرك برعونة متجاوزة زيد المذهول؛ فتسببت بإسقاط بعض الأغراض عن أماكنها؛ بينما أترك حملي البسيط من الحاجيات على منضدة العم أبي سعيد، وأنا أطرق برأسي وصوتي يخرج بحشرجة مرتعشة: آسفة يا عم.. أرسل لي هذه الأغراض للبيت.. اكتشفت أني لا أحمل مالا كفاية.. وسأرسل لك الحساب كاملا مع الصبي..

حاول العم أبي سعيد أن يدفعني لأخذ الأغراض: يا ابنتي خذيها معك الآن.. والدفع ليس بمستعجل..

لكني أصريتُ وارتعاشي يتزايد، بينما أشعر باقتراب زيد منا: لا أشعر أني بخير.. أظنني أصبت ببعض الزكام.. أرجوك دع الصبي يحضرها لي للبيت..

رد العم ابو سعيد: ألف سلامة لك يا ابنتي.. اذهبي في أمان الله، وسأرسل الصبي حالا..

وبينما أتحرك لأغادر الدكان شعرت أن زيد يقف قريبا عن عمد ليتمعن بي، ثم علا صوت العم أبي سعيد وهو ينادي صبيه: اترك ما في يدك يا حسن وتعال خذ البقالة لبيت خالتك أشرقت..

أخذ اسمي يرن كناقوس الخطر يحاوطني من كل جانب، يلاحق خطواتي الهاربة في الشوارع الضيقة للحي، وأوشكت إحدى السيارات أن تدهسني، لكني لم أبال، ولم أتوقف..

الرعب تملكني، وهدم كل سعادة وسكينة تحصلت عليها بالأيام السابقة.. لقد اختفت خيوط الفرح، ولم يتبق إلا الرعب جاثما فوق صدري..

عندما وصلت البيت كنتُ أختض، نخلعت حذائي بصعوبة عند الباب، ثم أقفلت بالمفتاح لأدخل إلى عمق البيت، وأنا ألف حول نفسي..

أقرض أظافري دون شعوري، وأشد أحيانا بخصل شعري..

إني أواجه اللحظة هول فعلتي! لقد انكشفت هويتي مع شاب كلمته سراً على الهاتف وبحت له بأسراري..

لساني ينطق بالكلمات مبعثرة: إنه زيد.. رباه هو زيد.. لقد عرفني كما عرفته.. لقد عرف هويتي ولن يكون صعباً أن يعرف عنواني.. يارب.. سترك يا رب.. سامحني إن أخطأت بالكلام معه.. لكني لم أفعل أي أمر مشين يارب.. أنت تعرف ما أنا فيه.. أرجوك ربي لا تفضحني.. إن كنت لا أستحق؛ فإخوتي الأيتام يستحقون..

انهرت أرضا على ركبتيّ، ودموعي وجدت سبلها فوق وجنتي.. غمرت وجهي بين كفي، وما زلت أرتجف، وأدعو بالستر..

لا أدري كم مضى على حالتي عندما أجفلني رنين جرس الباب.. تجمدت أطرافي وشعرت بخدر في كل جسدي.. هل أصبت بالشلل؟! هذا السؤال وجدته يدور في رأسي، وأنا عاجزة عن التحرك..

رعب يصور لي أن زيد لحق بي إلى البيت وهو من يرن الجرس! رنين الجرس تكرر فأشعر أني على وشك الإغماء هذه المرة.. لكن فجأة علا صوت ضرب مألوف على بوابة البيت، وصوت الصبي حسن ينادي بنبرة جهورية: يا خالة أشرقت أين انت؟!

عندها فقط شعرت ببعض الحياة تدب في أطرافي

لأتحرك حبواً على الأربع، وأنا أدعو الله أن يمكنني الوقوف..

وقد استجاب لي ربي؛ فوجدت قوة كي أنهض بترنح عند الباب، وأفتحها وأخطو عبر الباحة الأمامية حتى بوابة البيت الخارجية فأخذت كيس البقّالة من الصبي، وانقدته المال المطلوب، وقبل أن اغلق البوابة لمحت من بعيد.. من أول الشارع الفرعي.. لمحت زيد يقف هناك دون أن اتعرف على تعابيره بوضوح.. لكني عرفته من بلوزته الصوفية الرمادية فأدركت أنه هو كما أدرك أنها أنا.. فسلمت أمري لله، وأغلقت البوابة أنتظر مصيراً مجهولاً..

رغم كل ما حصل؛ شيء في داخلي رفض الخضوع للرعب.. رفض الاختباء في زاوية، والانكماش على نفسي، أقرض أظافري بانتظار مصيري الأسود الذي أتوقعه..

وجدت نفسي أعد قالب كيكة البرتقال.. وأنتظرها بصبر حتى نضجت، ثم أخرجها من الفرن بتأنٍّ مبالغ فيه لأختمها بدهن المربى على وجهها ببطء.. أُمرر السكين لأنشر المربى على سطح الكيكة بتساوٍ دقيق للغاية..

اظن أنني أُصبت ساعتها بحالة جنون مؤقت!

لا تقلقوا (في حال قلقتم بالطبع) بعد ساعات انهرت

بالبكاء، وأنا أُكل الكيكة بأكملها حتى أُصبت بتلبك معوي شديد..

***

مرت أيام سجنت نفسي في البيت بإرادتي.. حتى شعرت بالاطمئنان أن عالمي البشع المهلهل لا يزال قائما! كم هو أمر مضحك أن تخاف خسارة عالم كهذا لمجرد أنك اعتدته، ولا تأمن على نفسك إن فرطت فيه، لأنك لا تملك البديل..

كنت أعد الإفطار عندما دخل عزّام بوجه عابس وهو يتساءل: الهاتف الأرضي معطل تماما!

حقاً تفاجأت.. لم أقترب من سماعة الهاتف لأرفعها، كما لم اقترب من باب البيت لأفتحه.. لكن اليوم تحديدا شعرت أنني استعدت توازني، وأن رؤيتي لزيد وانكشاف هويتينا لبعض لا تعني شيئًا..

كنت قد قررت الاتصال بأبي سعيد لأجل البقالة، وحتى حددت ردة فعلي إذا اشتبك الخط مع زيد بكل بساطة سأغلق السماعة، وأعاود الاتصال بالعم أبي سعيد مجددا..

الآن وأنا أحدق بوجه عزّام العابس، علمت أن تشابك الخطوط انتهى للأبد.. وهذا أراحني وأحزنني في نفس الوقت.. لا يهمني زيد الذي رأيته في الدكان.. أنا لا أعرفه ولا أعرف عينيه الخضراوين.. من أعرفه وساعدني ولو بشكل عابر كان زيداً آخر، أعرف صوته كما أعرف شقاوته.. إنه أقرب لصديق مريح.. أو هذا ما أقنعت نفسي ساعتها، أو ربما ما كنت أشعره حقيقة دون أن أتعمق فيه، بينما عزّام يغلي أمامي من الغيظ، وهو يضرب جهاز الهاتف فيوقعه أرضاً..

قلت بهدوء لـ(زوجي): لماذا لا نتصل من هاتفك النقال؟

صرخ بي مُعنفاً: وهل انتظرك لتخبريني بهذا يا غبية؟! هاتفي نسيته البارحة في المحل..

ثم أخذ يشتم ويسب، وهو يغادر الدار دون أن يتناول الإفطار الذي أعددته له..

كانت إحدى أيامي الحزينة جدا.. ليس بسبب انتهاء تشابك الخطوط، وإنما لأني كنت أمر بتلك الفترة التي أشعر بها بالجوع.. جوع لأن آكل بعض الفتات الإنساني..

فكرت برؤية أخوتي؛ لكن رؤيتهم لن تمنحني ما أريد.. هم يأخذون مني وأصغر من أن يفهموا عطاءً أحتاجه.. فتحت التلفاز بحثاً عن مسلسل أو فيلم.. أي شيء.. رومانسي..

فوجدت ضالتي وتابعت الفيلم وأنا أبكي بحرقة طوال أحداثه.. لم يكن فيلماً حزيناً على الإطلاق.. بل العكس.. كان كحلم ينتاب مخيلة كل فتاة حول الفارس المختار..

بكيت وبكيت حتى انهار جسدي على الأريكة في إنهاك واستنزاف..

أنا لم أرد فارسا مغوارا كامل الأوصاف.. لم أكن بريئة لهذا الحد.. لقد فهمت الحياة وأدركت ما يمكن أن تعطيه.. كل ما أردته وبكيت عليه هو.. رجل..

رجل يعاملني برفق.. أقسم بالله أنا كنت على استعداد لتقبل عزّام نفسه لو عاملني ببعض الرفق.. بعض الرقة.. بعض الحنان.. قليل جدًّا من الحنان.. أقل من (جدا) بكثير أيضًا كنت سأرتضيه.. لكنه القدر الذي حدد مساري مسبقاً؛ فواصلت المسير مجبرة.. وربما مُخيرة.. فهل أحسنت الاختيار؟!

*****

في اليوم التالي

خروجي للتبضع من أبي سعيد كان لزاماً وحتمياً.. عزّام دعا بعض الرجال لمأدبة طعام عامرة، وأنا من يجب أن يجهزها..

كنت مرهقة للغاية، وفي بداية دورتي الشهرية، لكني تحاملت على نفسي وأوجاع بطني لأخرج في هذا البرد وأتبضع ما أحتاجه..

توجست قليلا لدى دخولي الدكان، وعيناي مباشرة أجرتا مسحاً شاملاً سريعاً لأتأكد من خلو المكان من زيد.. تنفست ببعض الارتياح، ثم أكملت التسوق بأسرع ما أستطيع وكنت مستعدة للمغادرة وأنا ادفع لابي سعيد المال عندما شعرت بدخوله..

تكلم العم أبو سعيد بنبرة توبيخ: ماذا جرى لك يا زيد.. منذ أيام وأنت تواظب على شراء السجائر يومياً! صحتك بنيّ..

كان قلبي يقرع بشدة، ووقعت بضعة أوراق نقدية مني أرضاً، فانحنيت وأنا ألهث لألتقطها بينما انظر لحذاء زيد وهو يقف قريبا، ويرد على العم أبي سعيد بنبرة عادية:

أعدك منذ اليوم سأحاول التقليل..

لم أنتظر أكثر وأنا أعاود الوقوف، وأعيد محفظتي لحقيبتي، ثم حملت الأكياس وأنا أتمتم بالشكر والسلام للعم أبي سعيد قبل أن اتوجه للخروج؛ بينما أشعر بزيد يتحرك بعيدا عن طريقي بلباقة واحترام طبيعيين لا يثيران أي انتباه..

كنت أحث الخطى، وما زال قرع قلبي يدوي بين أضلعي، ثم بدأت أشعر بخطوات تتبعني..

لم أملك إلا أن التفت برأسي لأرى من خلفي عندما تعثرت وتأوهت بقوة وأنا أقع أرضاً وأكياس البقالة تفلت من قبضتي يدي..

كنت أتوجع بعض الشيء؛ بينما أشعر به يقترب، وهو يسأل باهتمام: هل أنت بخير؟

أنا (بتمتمة وعيناي مغلقتان): بخير..

بصمت أخذ يجمع ما يتناثر من البقالة ليعيدها للأكياس.. فتحت عيني أخيرا لأواجه الموقف؛ فرأيته ينظر إلي، ثم ابتسم والتمعت عيناه الخضراوان قبل أن يقول بخفوت: لا تخافي من شيء..

شعرت أن قلبي يقرع على نحو لم أختبره يوماً في حياتي.. كان نبضاً أجهله.. وهذا الجهل أرعبني على نحوٍ مُبهم..

فجأة وبحركة خفية أخرج من جيبة جهاز هاتف نقال ودسه في أحد أكياس البقالة ودس معها ورقة..

لم يقل المزيد، وهو ينهض حاملا الأكياس، وتركني لأنهض بنفسي؛ بينما يتكلم بنبرة هادئة محايدة: أرجو أن تكوني بخير.. تفضلي أكياسك..

أخذت من يده الأكياس، ولامسته خطفاً، فأشعرني الأمر بخوف أشد.. كأني أرتكب خطيئة ما!

لم أستطع النطق، بل هززت رأسي بغباء كأني أشكره، ثم عدت أدراجي للبيت بخطوات واسعة أسابق الريح تاركة زيد خلفي، وفي داخلي يقين أنه ابتعد في الاتجاه المعاكس..

وسط المطبخ أقف وفي يدي جهاز الهاتف النقال الصغير.. ورغم أنى لا أملك واحدا؛ إلا أنني استطعت التمييز أنه أرخص وأصغر الأنواع.. وبارتجاف وضعت الهاتف في جيبي لأخفيه بشكل مؤقت؛ حتى أفهم ما يجري، ثم أخرجت الورقة المطوية، وبدأت أقرأ بذهول

وعدم تصديق لكل ما يحدث لي..

زيد (عبر الرسالة وبخط أنيق): مرحباً أشرقت.. منذ أيام وأنا أنتظر لقاءك صدفة عند العم أبي سعيد.. مؤكد منذ اللحظة الأولى لتشابك الخطوط بيننا عرفت أنه نفس الدكان الذي في حينا.. أدركت أننا نقطن الحي ذاته، وإن كان بيتي يبعد بعدة أفرع من الجهة الأخرى.. لم أتطفل سابقاً عليك، وأعترف لم أهتم بالبحث عنك حتى آخر مكالمة.. شعرت أنها مسؤوليتي لأساعدك.. خاصة بعد أن تحريت عنك وعن زوجك..

للحظة توقفت عن القراءة، وشهقة أفلتت من بين شفتي، وأنا أرفع يدي الحرة لفمي.. الورقة بيدي الأخرى ترتجف بارتجاف جسدي، وشعرت أنني تورطت بأمر مهول أكبر بكثير من قدرتي على التعامل معه..

أكملت القراء ولساني يلهج بنداء: يارب

زيد (باقي الرسالة): زوجك حيوان يا أشرقت، ولن أعتذر عن وصفي هذا.. ليتني فقط أستطيع إقناعك البحث عن حل لتتخلصي منه.. سمعته سيئة للغاية، وهذا ينفع كثيراً بقضايا الطلاق.. الهاتف النقال هو لك، وسجلت فيه رقمين لا غير.. رقم هاتفي، ورقم هاتف أمي.. المحامية رؤى الطيب.. احفظي الإسم.. أريدك أن تفكري

دوماً أنني معك ولست وحدك.. طمئنيني عنك كل ليلة ولو برسالة قصيرة.. وإن احتجتِ لمساعدة مني لن أتأخر بتقديمها لك.. وإن قررتِ المباشرة بإجراءات الطلاق اتصلي بأمي.. سنقف معك ونساندك.. احرقي الرسالة وأخفي الهاتف جيدا.. لا تقلقي من دفع الفاتورة أنا سأتكفل بالأمر.. كما لا تقلقي لأنني لن أتصل بك، ولن أرسل شيئا أبداً قد يعرضك لموقف سيء..

ثم ختم رسالته بإضافة اسمه دون مسميات..

زيد...

كنت متسمرة مكاني، والورقة في يدي فأعيد قراءتها مراراً.. تقلصات منطقة البطن زادت؛ فتأوهت والورقة تقع من يدي..

سارعت لالتقاطها؛ ودون انتظار تقدمت من الموقد الغازي فأوقدت أحد عيونه وأمام ناظري أحرقت الورقة بعد أن حفظت عن ظهر قلب كل ما فيها.. كلمة كلمة.. حرفاً حرفاً..

بل عقلي احتفظ حتى بنسخة من خط يده وفي داخلي ثقة أنني أستطيع التعرف على هذا الخط وسط عشرات الخطوط..

في تسارع مضت الساعات وأنا أتجاهل الهاتف النقال الذي أخفيته في مكان لا يصل إليه عزّام ابداً.. حتى اللحظة لم أفتحه ولم أر ما فيه.. كان سرّي الصغير الذي سأتفرغ له عندما أكون بمفردي.. والليلة لست كذلك.. عندي مهمة الطبخ، وتقديم الطعام لضيوف عزّام.. وعزّام لا يرحم مع أي تقصير..

بعد منتصف الليل كنت أتقلب في السرير، ووجعي يزداد.. حتى شعرت أني سأتقيأ.. ذهبت للحمام لأستبدل فوطتي الصحية، وعندما عدت وجدت عزّام واقفاً وسط الغرفة؛ وواضح عليه إمارات السكر..

تسارعت أنفاسي وأنا أرى في عينيه تلك النظرة التي أعرفها.. تباطأت نبضات قلبي وأنا أجلي حنجرتي لأحاول التكلم بنبرة عادية: هل غادر ضيوفك؟ هل.. أعجبكم الطعام؟

كنت أتحرك لأحاول تجاوزه؛ وأنا أثرثر بأنفاس متسارعة؛ بينما هو يلتزم الصمت ولم يرد حتى على تساؤلاتي: لدي وجع في بطني.. دورتي الشهرية.. آآه..

خرج التأوه من فمي، وأنا أشعر بقبضة أصابعه حول ذراعي ورائحة فمه المقرفة تسبق كلماته المترنحة: دورتك

الشهرية لن تمنعني عنك يا أشرقت..

ثم تأوهت بصوت أعلى، وهو يدفعني بعنف شديد ناحية السرير لأقع على حافة إطاره الخشبي ويرتطم بجانب بطني فارتفع أنين الوجع عاليا مني؛ بينما عزّام لا يبالي وهو يقلبني على ظهري فوق السرير ثم يبدأ بخلع ملابسه..

كان الأمر مريعا بطريقة لا أستطيع وصفها وهو يتجرد من ملابسه تمامًا.. لم يعاشرني سابقا وأنا في فترة الحيض.. فكيف سأوقفه.. كيف؟!

حاولت وأنا اتوسل اليه: عزّام.. أرجوك.. أنا متأذية كثيراً الليلة.. كما أني.. سمعت أن.. المعاشرة الزوجية.. حرام في فترة الحيض..

أخذ يسب (الحلال والحرام) وهو يلقي بجسده العاري فوقي؛ فأشعر أن جسدي سُحِق من شدة الألم.. فمه عند أذني ورائحته المقرفة تلوث أنفاسي وهو يقول بإصرار: مضت مدة لم أعاشرك.. ولا تهمني الدماء منك.. اطمئني لن تقرفني لأني.. لن أراها وأنا أنالك..

صرخة ندت عن شفتيّ بـ (لا) لم تلق أي صدى في رحمته.. إنه ليس ببشر.. ليس ببشر..

آلام مبرحة حتى شعرت وكأن أعضائي كلها تنزف.. وما إن نال غرضه وأشبع غريزته لآخرها حتى أبعد جسده بصمت؛ بينما أغلق عيني والعرق يتصبب مني..

صوته المنفر يرن في أذني ضاحكاً: أرأيت؟! لا أروع منها معاشرة في وقت الحيض..

ثم شعرت بخطواته تبتعد نحو الحمام وأنا مُسجاه على السرير؛ أنزف الدماء والوجع على الشرشف الأبيض..

بعد اغتسال عزّام تحاملت على نفسي لأنفذ أمره بتبديل الشرشف قبل أن أغتسل أنا.. ففعلت بصمت، وأنا عارية وأحشر ثوب نومي بين ساقيّ لأمنع تدفق الدماء على الأرض؛ بينما عزّام يصفر وهو يمشط شعره أمام منضدة الزينة! وحال دخولي الحمام اضطجع هو قرير العينين مرتاح البال..

أخذت مسكناً جديدا، وعدت وسط الظلمة لأضطجع جواره لكني لم أنم.. ثم مرت ساعات قليلة وأنا لا أتوقف عن التفكير.. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل بالضبط غادرت السرير وعزّام غارق بشخيره.. ذهبت إلى حيث أخفي الهاتف النقال في شوال الرز في المخزن فأخرجته وفتحته..

لم يكن صعب التعامل معه.. إنه يشبه إلى حد ما هاتف أمي.. أخذت أكتب الرسالة بعزيمة..

أنا (رسالتي النصية الأولى): أنا لست بخير! لكن لا تقلق غداً سأتحسن.. لقد قررت أني سأكتب لك رسالة كل ليلة ليس لأطمئنك علي وإنما لأسجل يومياتي.. ربما في يوم ما سأطلب منك نشرها في مكان ما.. لن أخجل وأنا أخبرك بتفاصيل دقيقة.. على العكس سأذكرها وكأني أصرخ بها.. عسى صرختي تصل يوماً وتشق طبلة أذنيّ كل ظالم..

الليلة عاشرني زوجي وأنا في وقت المحيض.. الدم كان ينزف مني، وهو مخمور يأخذ حقه، ولا يبالي بما يحدث لي روحاً وجسداً.. أتلوَّى من الألم وقد قضيت اليوم بطوله لإعداد مأدبة عشاء لضيوفه من الرجال.. وفي النهاية أكرمني بهذا..

وإلى ليلة الغد.. أتمناها خالية من كوابيس الواقع..

*****

مرت سبعة أيام؛ وأنا على هذا التواصل الخفي مع زيد.. أبثه يومياتي.. فأشعر مع كل رسالة أني أنتقم من عزّام، وأنا أفضحه وأعرّيه..

في الأيام الثلاث الأولى التزم زيد بعدم المراسلة.. لكن من قال إن الأمور تبقى كما هي؟! لا شيء يبقى كما هو.. إنها ككرة الثلج التي تتدحرج من أعلى جبل..

ليلة الأمس أخبرته عن صورة إحدى العاهرات مع زوجي.. أوصلتها إليّ بطريقتها وقد طبعتها ودستها في جيبه وهي تتصور أنها تثير غيرتي.. كانت عارية في أحضان عزّام الذي يلامس جسدها بكفيه وهو يضحك لصورة الـ(سيلفي) التي تلتقطها عاهرته معه..

فرد علي زيد برسالة: طاوعيني يا أشرقت.. تخلصي منه ومن قذارته.. أنت ستقتلين نفسك يوماً بالبقاء معه.. إن لم يكن بسبب عنفه سيكون بسبب الأمراض التي سيسببها لك.. انفذي بجلدك قبل أن يفوت الأوان..

الليلة قررت أن أسأل عن أمه وحالها، فرد عليّ أنها تقاوم الانهيار بشجاعة.. ورده جعلني أشعر بشكل أفضل.. كأني أجد في أي مقاومة صدًى إيجابياً في نفسي يُعينني على الاحتمال..

أخفيت الهاتف في شوال الرز بعد تحية المساء، وبعد محاولات منه كي يقنعني باتصال هاتفي لكني رفضت تماماً.. ما زلت أعتبر ما يحصل بيننا هو تدوين لقضيتي..

ولم أكن أعرف أن قضيتي أكبر بكثير مما ظننت وقتها..

بعد حمام ساخن آخر الليل شعرت ببعض التحسن وهدوء نفس نسبي.. استلقيت على السرير وقد نسيت تماماً عزّام! لم أعد أهتم بوجوده.. كان أقرب لشبح غير بشري يحوم حولي أحياناً، ومنذ تلك الليلة البشعة لم يقربني، وعاد لانغماسه في مشاكله المالية.. نظرت للساعة المعلقة أمامي في غرفة النوم فوجدتها تشير لما بعد منتصف الليل..

لم يكن امراً غريبا على عزّام.. ربما ذهب ليسرّي عن نفسه مع إحدى الراقصات الرخيصات العاهرات في إحدى الفنادق المشبوهة من الدرجة الخامسة أو السادسة..

أغلقت عيني لأغفو من فوري فتزور أحلامي عينا زيد الخضراوان.. شعرته موجودا بالحلم؛ لكني لم أر إلا عينيه.. فجأة تحول الحلم لكابوس بشع وظلال سوداء تجثم فوقي..

شممت روائح كريهة مألوفة أزكمت أنفي؛ ثم شعرت بمن يمزق ملابسي، وبألم حقيقي في كل جسدي.. لم يكن حلماً.. لكني أخذت أقاوم كأني في حلم! أملك شجاعة في حلم.. أملك حق الرفض في حلم.. أملك شراسة حرة في حلم.. حتى استيقظت من حلمي الجميل هذا بالصفعات واللكمات وصوت عزّام القبيح يسبني وهو يصرخ بي: أيتها

القذرة الساقطة أوتجرئين على ضربي يا بنت الشوارع؟! سأعلمك كيف تستقبلين زوجك وسيدك..

عشت كابوس الواقع وعزّام ينهش جسدي اغتصابا.. لقد اغتصبني حرفياً وأشبع وجهي باللكمات.. تحول جسدي لشيء مبهم منفصل عني.. خارج تصرفي.. كأني أحاول إمساكه ويفلت مني! والواقع لا يمنحني قوة وإرادة حلم.. لكن رغم هذا لم أصرخ.. لم أبك.. ولا أعرف من أين وجدت هذا العناد الذي أثار جنون عزّام أكثر..

هل كنت أستفزه ليقتلني؟! هل أريد الموت للخلاص منه، أم أريد الحياة لأخلص إخوتي من مصير أسود كمصيري؟! سؤال لا أجد إجابته..

أي سؤال وأي إجابة؟! أنا أطفو فوق بركة الموت.. جسدي يفلت ليس من قبضتي فقط بل من قبضة الحياة ذاتها..

بعدها لم أشعر بشيء.. صراخ وصداع.. هرولة وألم.. الكثير من الألم.. متى سينتهي الألم؟

البوح الثالث

بعد يومين غادرت المستشفى الخاص على كرسي نقال.. لا تجزعوا لم أُصَب بالشلل.. إنه فقط جسدي يستريح استراحة محارب مطعون ألف طعنة غدر..

عزّام تكفل بإخفاء ملابسات الاغتصاب الزوجي والعنف الجسدي وتمت تغطية الآثار بعناية..

لم أسمح لاحد برؤيتي.. لا أمي ولا أخوتي ولا عمي.. طلبت من الممرضة وشاحاً فأهدتني واحدا منها وهي تنظر إليّ بنظرة شفقة شعرت لحظتها كأني كلب أجرب ضال يثير شفقتها، لكنها تشمئز من حاله.. وأنا أعترف أني كنت أشمئز شخصياً من حالي! فلِمَ ألوم الممرضة؟!

تدفع الممرضة الكرسي النقال، وأنا أخفي معظم وجهي المزرق بالوشاح.. ثقل ما زلت أشعره بعيني اليمنى المتورمة.. ربما خف الورم كثيراً، لكني ما زلت أشعر به مخيماً على بصري كظلال سوداء، وأنا أحدق بأرضية المستشفى، وقدمي عزّام أمامي تقودان خروجي الذليل! في الموقف الخارجي وعند سيارة عزّام تكفلت الممرضة بمساعدتي لاقف وأجلس على المقعد الخلفي، ثم تمتمت

بجملة هادئة: الحمد لله على السلامة.. لترحل بعدها مع الكرسي، بينما أرحل أنا مع عزّام بسيارته أراقب الطريق كأني أراقب حياتي أين تمضي..

كم منكم يراني انهزامية الآن؟ كم منكم يقرأ كلماتي، ويتهمني بالضعف، وأني أستحق ما يجري لي؟ كم منكم يتبجح باقتراحات يظنها كشكّة إبرة بالتنفيذ، بينما هي أقرب لانتحار عائلي جماعي.. من منكم يتقبل فتاة بظروفي دون أن يشكك بصدقها؟ ردوا عليّ إن استطعتم؟ هل ستفكرون وأنتم تطعنون شرفي إن قررت ونفذت الهروب من عزّام؟ هل ستوفرون الملجأ والحماية؟ هل ستوفرون قوت يومي ويوم أخوتي؟ ام هل ستمنعون بيع أختي أطياف لعزّام جديد؟!

أنا أعرف الاجابة.. يبقى أن تعرفوها أنتم قبل أن توجهوا لي طعنة جديدة.. طعنة سيضيع أثرها بين باقي الطعنات لكن لن يضيع ألمها..

تركني عزّام في البيت وحيدة، وغادر وهو يقول بلا مبالاة إنه سيعود آخر الليل وربما حتى قرابة الفجر.. هذا فقط ما قاله قبل أن أهبط من سيارته أجرجر خطواتي ككسيحة.. لم يجد في نفسه حتى مكانا لاعتذار أو مواساة.. ولماذا يفعل وهو يتصرف بأملاكه وفق قوانينه.. وقوانينه تقتضي العقاب عند مخالفتها.. وما حصل لم يكن

إلا عقابًا و.. جرة اذن!

أول شيء فعلته حال دخولي البيت كان الذهاب للمخزن وإخراج الهاتف النقال..

أجرجر قدميّ لاهثة من الوجع، وأنا أسير من المخزن إلى غرفة النوم والهاتف في يدي لأقرر في لحظة أن أتصل بزيد..

كنت وصلت باب الغرفة عندما فتح الخط وأتاني صوت زيد الملهوف المتوتر: أشرقت.. رباه.. أين كنتِ؟

حاولت النطق فلم يخرج إلا اسمه، ثم أجهشت في البكاء وزيد يناديني من بعيد وأنا أترنح حتى اتكأ جسدي عفوياً على حافة الباب وزيد ما زال ينادي: أشرقت ماذا جرى بالضبط؟! أخبريني.. كنت أموت قلقاً عليك.. هل حقاً كنتِ في المستشفى؟ ردي علي.. لا أحد في الحي يعلم ما حدث.. قيل إن الاسعاف أخذتك بعد إجهاض..

أنا (وبكائي يعلو): كنت سأموت يا زيد.. كنت سأموت ولا أحد يعرف بقصتي ومأساتي.. عزّام سيقتلني يوماً ويجد من يغطي على جريمته.. لن أجد أي إنسان يأخذ بحقي منه..

زيد (يهتف بحمائية): لا تقولي هذا.. أنت لن تموتي.. وقصتك لن تموت معك.. أقسم بالله سأفعل أي شيء لأخلصك من الوضع الذي أنت فيه.. وستنالين حقك كاملاً شاء من شاء وأبى من أبى..

انهرت بمزيد من البكاء، وجسدي يرتجف من البرد والوجع..

زيد (وهو يسبق كلماته ببعض الشتائم لعزّام): هل لديكم باحة خلفية مع الجيران الملاصقين؟

أنا (ما زلت بدوامة البكاء والوجع): ماذا؟!

زيد (بنبرة تركيز): هل لديكم باحة خلفية؟ أقصد مع جيرانكم بيت أبي عماد الذين هاجروا وبيتهم خال ومتروك منذ سنتين.. اليس هو البيت الذي يلاصق بيتكم من الخلف؟

أنا (تائهة ولا أفهم مجرى الحوار المفاجئ): نعم.. بيت أبي عماد ملاصق لنا من الخلف.. لكني لا أفهم.

زيد (بصبر واضح): هل ملاصق له بحائط أم هناك باحة خلفية؟

أنا (بحيرةٍ أرد تساؤلاته): هناك باحة خلفية ضيقة.. أنشر فيها الغسيل..

زيد (يهتف بانتصار وعزم): ممتاز.. انتظريني هناك..

تجمدت خطواتي قبل ان أصل السري،ر فأتمتم بصدمة وأنا أستوعب ما ينوي فعله: زيد.. أرجوك.. هل تعي ما تقوله؟!

زيد (يرد بقرار لا رجعة فيه): فقط قولي لي متى سيعود للبيت ذاك الحيوان؟

أنا (أرد بقلب خفق): آخر الليل..

زيد (بصوت رقيق يفيض عذوبة): عشر دقائق وسأكون عندك..

لم أصدق نفسي، وأنا أقف عند باب الباحة الخلفية أنتظر حضور زيد..

الباب كان حديدياً بقطع زجاج طولية تسمح لي بالرؤية من خلالها.. كنت أحدق بأوراق شجرة النارنج في بيت أبي عماد، وقد امتدت فروعها لتظلل جزءا من باحتنا الخلفية.. كانت الأوراق تهتز بريح الشتاء الباردة.. ورغم

أني محمية بدفء البيت لكني شعرت بالبرودة تتخلل لحمي إلى عظامي.. ثم شعرت بعدها كالمخدرة.. خدر نال الآم جسدي..

مرت ثلث ساعة، ولم يظهر زيد؛ حتى شككت أن المكالمة لم تكن إلا هلوسة مني.. ربما أصبت بمرض عقلي، وأصبحت أتخيل صوته ووعوده ودعمه وخوفه علي.. مشاعر طالما تمنيت أن أجدها عند أي انسان.. ابتداءً من أمي وعمي، وانتهاءً بأي وجه ألتقيه في الشارع..

هل أصابني الجنون؟! هل وصلت لهذه المرحلة من اليأس؟! أم ربما لكمات عزّام لرأسي أصابت خلايا عقلي بالعطب؟!

أوشكت أن أعود للمخزن؛ حيث أعدت إخفاء الهاتف النقال عندما التقطت عيناي كف على حافة السياج الفاصل بين باحة البيت الخلفية وبين بيت أبي عماد..

ما زلت لا أصدق؛ وكأني أخشى صدق نظرية الهلوسات الخادعة، ثم أطل وجه زيد لينظر نحو الباب حيث كنت أقف مصدومة مذهولة.. لكن مؤكد ليست كنظرة الصدمة التي أطلت من عينيه الخضراوين..

لم يستوعب عقلي سبب صدمته فقد كان منشغلاً

بصدمة وجود زيد هنا على الجانب الآخر من سياج باحتي الخلفية..

ببضع محاولات أتابعها بنفس الذهول، وعدم التصديق نجح زيد بتسلق السياج الفاصل وعبوره إلى باحتي..

تقدم من الباب حيث أقف وأنا ما زلت أشكك بوجوده.. كانت تعابيره متجهمة الآن.. غاضبة بشكل لا يوصف بينما يقول بصوت متوتر: افتحي الباب..

يدي المخدرة ارتفعت ببطء لتفتح الباب وجسدي يتراجع للخلف عفوياً مع ريح الشتاء الباردة التي دخلت بدخول زيد فشعرت بالانقباض..

تقدم زيد سريعاً إلى داخل المطبخ حيث الباب المطلة على الباحة الخلفية.. ومع دخوله أغلق الباب خلفه وأنا أنظر إليه مفجوعة بما يحصل..

لكن هي لحظة فارقة محت كل شيء عندما دمعت عينا زيد، وبتعابيره الغاضبة تقدم مني ودون مقدمات وجدت نفسي في أحضانه يضمني لصدره برفق يفلق الحجر، وبدفء يذيب الجمر، هامساً بحشرجة: إنه وحش.. رباه وحش.. كيف يستطيع أي إنسان ان يفعل هذا بإنسان آخر أضعف منه بكثير؟!

لم يعد هناك ما أفكر فيه.. استسلمت للحظة الطويلة التي اقتطعت نفسها من الزمن لتحيطني بفقاعة حماية صنعها زيد بحضن واحد منه..

هل بكيت؟ لا أذكر! هل شكوت؟ أيضًا لا اذكر.. إذن ما الذي حصل في تلك اللحظة؟ دوماً حاولت التفكير بعمق في تفاصيلها، والضغط على عقلي لاستذكار تفاصيل غابت.. لكن لم أستطع التذكر.. فاكتفيت بحقيقة واحدة.. أن زيدًا منحني ساعتها وأنا مستسلمة لذراعيه تحاوطاني بذاك الرفق كرفق رحم أم يحاوط جنيناً ضعيفاً.. منحني شعور الحماية.. الوجود.. أني لم أعد وحدي..

نسيت أن أخبركم تفصيل صغير يتذكره عقلي.. بعد الحضن قادني زيد إلى غرفة النوم وأنا أترنح؛ فلم يعد في جسدي قدرة على الإسناد.. جعلني أنام على السرير، وغطاني جيدا، وطلب مني النوم لفترة.. وأنا أطعته.. عقلي أطاعه فغفوت مطمئنة من فوري..

ثم أيقظني صوته بعد مدة لا أستطيع تحديدها، ورائحة حساء تفوح من حولي.. أذكر جيدا عندها أن اللحظة الطويلة قد انتهت.. فعدت لوعيي الكامل وغريزياً اعتدلت جالسة في سريري وأنا أرفع الغطاء لعنقي..

رأيته يقف على بعد خطوتين يحمل صينية يتوسطها صحن حساء..

كان متفهماً للغاية، فينظر بلطف وهو يقول لي متجاهلاً حالتي: لقد نمتِ لنصف ساعة كانت كافية كي أصنع لك الحساء قبل أن أُغادر..

لم يتقدم نحوي، ومؤكد شعر بذعري! أجل ذعرت.. لم أصدق كيف سمحت له بالدخول لبيتي.. كيف سمحت له باحتضاني.. ثم تركته يضعني في السرير كطفلة.. والأدهى أني غفوت، وهو موجود معي بين أربعة جدران..

كأنه كان يقرأ كل هذا معي فيقول بهدوء: أنت بأمان معي أشرقت.. لن أؤذيك أبداً.. أشعر أني مسؤول عنك بطريقة ما..

ثم تقدم وأنا أنكمش أكثر لينحني ويضع الصينية على المنضدة المجاورة للسرير وهو يضيف: أريدك أن تشربي الحساء كله، وعاودي النوم من جديد.. سنتكلم لاحقاً عبر الهاتف..

قال كل هذا دون أن ينظر إلي.. كأنه منحني المساحة

كي ألم شتات نفسي، وأتجاوز نوبة الذعر لهول ما يحصل اللحظة، ومدى خطورته..

ليتني علمت لحظتها مدى خطورته..

غادر زيد وهو يلقي السلام، ويوصيني الاعتناء بنفسي، وبمجرد مغادرته شعرت بطاقة إيجابية مباغتة تنفجر في داخلي.. لا أعلم كيف انقلب حالي هكذا.. لكني شعرت حقاً أن علاقتي بزيد كانت نظيفة للغاية.. إنسانية للغاية..

كنت أحتاج لهذا الشعور.. ولم يخطر ببالي مشاعر أخرى سأحتاجها منه وسيحتاجها هو مني.. ولم يطل الأمر طويلا عندما أدركنا هذا سويًّا، وفي لحظة طويلة أخرى اقتطعناها دون إرادتنا وسقطنا فيها غريقين..

*****

مضت الأيام وأنا أشرق كما يفترض لمن تحمل اسماً كاسمي.. كنت أعيش سعادتي الخفية مع زيد.. أكلمه دائما حتى وهو في العمل.. أحكي له عن المسلسلات التي أتابعها والمأكولات الجديدة التي أتعلمها.. وهو يحكي لي عن تفاصيل يومه في مكتب الدعاية والإعلان الذي يعمل به.. كان مكتباً صغيراً مبتدئاً، والعمل فيه متقطعًا، لكن زيدًا كان يحبه، ويتكلم بحماسة عنه، وأحيانا يحكي لي عن

تحرش بعض الزبونات، وعندها أتجاهل غيرتي بل أنكر وجودها من الأساس.. كما صارحني مرة عن تجربة الحب الحقيقية الوحيدة التي مر بها.. زميلته في الجامعة هديل التي تزوجت برجل آخر.. رجل كان مدير أخت هديل بالعمل..

تخيلت أبشع القصص عن هديل هذه.. تخيلتها فتاة انتهازية وقد اختارت مدير شركة غني، وأنها استغلت مشاعر زيد.. وعبثاً حاول زيد إفهامي أن فكرتي عن هديل خاطئة، وأن هذا المدير متوسط الحال، وليس لديه شركة حقيقية؛ بل مجرد مكتب حاسوب.. لم أكن أستمع لتبريراته؛ فولائي له يفوق الحدود، وهو يكتفي بالضحك ويعترف أن جزءاً أنانياً منه مبتهجٌ بتحيزي الكامل له..

كلانا تناسى وتجاهل الكلام عن عزّام.. وكأننا خلقنا عالماً يخصنا لوحدنا.. بل زيد من خلقه لي، وجعلني أشعر أنه يمنحني فسحة من العالم ملكي أعيشها كإنسانة من لحم ودم..

كنت أعرف أنها مسألة وقت.. وأن زيدًا يجعلني أمر بفترة نقاهة أستعيد عافيتي فيها بعد الذي حصل لي مع عزّام، ودخولي المستشفى، ثم سيبدأ الإلحاح مجدداً برفع قضية الطلاق....

أما عزّام فكان في عالمه الآخر.. يعود آخر الليل.. ومنذ خروجي من المستشفى لم يقربني، ولم يكلمني إلا قليلا، لكني شعرت أحيانا أنه ينظر إليّ ببعض الاستغراب.. ثم أحمد الله أنه لا يهتم كفاية ليتقصى.. ولم يكن لديه وقتٌ لهذا..

لكن بعد أسبوع، وبينما أنا أغفو وحيدة في سريري، شعرت بمن يرفع الغطاء عني.. لا زلت أذكر ذاك الشعور المتزايد بالبرد، ويدان عابثتان ترفعان حافة قميص النوم عن ساقيّ..

تيقظت حواسي مع الرائحة المنفرة، وأصابع عزّام الغليظة تمتد لملابسي الداخلية تنزعها عني بخشونة.. وقبل أن أجد قدرة للنطق كان عزّام يجثم بجسده فوقي وفي لحظات كان يعاشرني بحركات متتابعة باردة أشد برودة من هذا الشتاء.. ما زلت أغمض عيني، وأدّعي أن ما يحدث مجرد كابوس من الكوابيس الأخيرة.. فأُطمئن نفسي: لا بأس أشرقت.. سينتهي قريباً وتفيقين.. استرخي ودعي الكابوس يظن أنه تمكن منك.. لكنه في الواقع لم يفعل.. إنه سراب.. غير موجود..

قد يكون الكابوس انتهى خلال لحظات، ولحظات أخرى تحملتُ ثقل جسد عزّام وأنفاسه اللاهثة، وقد نال متعة غريزته من جسدي.. ثم ابتعد منقلباً على جانبه مولياً

إياي ظهره، وقد تركني هكذا بجزئي السفلي العاري، وآثار كابوسه عالقة بي..

لم يغتسل حتى؛ بل غفا وبصوت شخير عالٍ يشي بتعب جسده..

عندها فقط فتحت عيني لأحدق في السقف.. كان ضوء الحمام يمنح الغرفة إنارة خافتة.. غادرت السرير ألملم قميص نومي حولي وحالما دخلت الحمام أغلقت الباب بالمفتاح..

وتحت رشاش الماء أغتسل، وأدَّعي أن ما يجري على خديّ هو زخات المياه فقط.. وأن لا دموع تختلط بها.. حاوطت جسدي بذراعي، وللمرة الأولى أفكر بحاجة هذا الجسد لنفس المتعة التي يحظى بها عزّام منه.. لأول مرة أشعر بهذا النوع من الحرمان؛ رغم أنى متزوجة من أكثر من ست سنوات.. شفتايّ اللتان لم تعرفا القبلة العاطفية يوماً شعرتهما متوهجتين.. بشرتي متعطشتان للمسة عاطفة تفوق لمسة الشهوة.. جسدي كله تحفز في شوق لمداعبة وتدليل تحببني بالغريزة لا تنفرني منها!

وتحت تلك المياه شعرت بالخوف.. بالخوف من هذا الذي تيقظ في داخلي وأصبح يطالب بحقه!

*****

بداية الأسبوع التالي...

بعد تلك الليلة بأيام طمرت الخوف المتربص بي.. أو تخيلت أنى طمرته.. استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وبدأت أقرأ القرآن بكثافة.. لكني كنت أعلم أني أحتاج للمزيد من القوة والثبات كما احتاج لإيجاد حل حاسم.. وأشعر أن زيدًا سيكلمني قريباً بخطته لإعادة بناء حياتي..

هذا التفكير الإيجابي، ومع مواظبة قراءة القران ساعدني كي أستعيد توازني الذي اختل.. ساعدني كي أجد مرسًى لحالتي وأشخصّها.. وحتى هذه اللحظة لم أسمح لنفسي مطلقاً أن أفكر بزيد على نحو مختلف.. فزيد هو زيد.. دون مسميات الحبر على الورق..

في اليوم التالي كان يصادف عيد ميلادي.. لقد بلغت الثالثة والعشرين.. وسأذكر أبد الدهر ما حصل.. لقد كانت اللحظة الطويلة الثانية التي أخبرتكم عنها مع زيد..

عزّام لم يتذكر بالطبع كما لم يتذكر يوماً.. بل حمل حقيبة سفر صغيرة صباح ذاك اليوم، وأخبرني أنه مسافر لثلاثة أيام إلى مدينة شمالية، تبعد قرابة الخمس ساعات..

بالطبع لم أخطط لما حصل كما لم يخطط له زيد.. أنا واثقة من هذا الآن.. رغم أن الشكوك انتابتني بعدها، لكن اليوم أرى الأمور بوضوح شديد، وأنا اكتبها لكم..

بعد رحيل عزّام اتصلت بزيد كالعادة.. أخبرته برحيل عزّام في سفر لبضعة أيام ثم بُحت له على استحياء أن اليوم هو عيد ميلادي؛ فكان رده طبيعيا وعفوياً بتمنياته لي بالسعادة..

كنت أشعر بخديّ يتضرجان بحمرة الفرح لبهجته بعيد ميلادي، وتلك النبرة في صوته التي أصبحت أميزها خاصة بي وحدي.. وكان هذا الإحساس يمنحني الكثير من الثقة والفرح.. فجأة قال زيد: إذن سنحتفل اليوم بعيد ميلادك المميز هذا..

ارتبكت وأنا أتساءل بخجل: أين نحتفل؟

زيد (وهو يرد بحماسة): سأحضر قالب حلوى في الساعة السادسة بعد أن تغرب الشمس.. أشاركك لأول مرة بإطفاء شموع عيد ميلادك الثالث والعشرين..

أعترف أنى شعرت بخطأ هذه الخطوة.. لكني كنت متحمسة مثله.. فوافقت ضاحكة بابتهاج لا يخلو من الاضطراب؛ بينما هو يعدني بهدية خاصة منه..

وكما حصل في المرة السابقة تكرر الأمر، وأنا أنتظره عند باب الباحة الخلفية.. هذه المرة كانت أكثر سلاسة وأقل خوفاً وأسرع.. نبضاً..

وجدته أمامي، وأنا افتح له الباب، ورأيت في عينيه لمعة كشعلة وهو يتطلع إليّ بانشداه هامساً: أنت جميلة جدًّا يا أشرقت.. لم أرك من قبل بهذا الجمال..

كان الأمر يحدث.. الشرارة بيننا أفلتت.. تراجعت وهو يدخل حاملا علبة كارتونية رجحت أنها كيكة عيد الميلاد..

كان يبتلع ريقه فأبتلع ريقي معه.. توتر الجو على نحو سريع مباغت، وأنا أشد على فستاني المورد كأني فتاة في موعد عاطفي أول..

الفكرة جعلتني أرتعش لحظتها.. ليس ارتعاش خوف.. بل ارتعاش لذة.. حماسة.. ترقب.. رغبة بالمزيد.. حاولت المقاومة كما حاول هو فيتنحنح ويقول بارتباك: عيد ميلاد سعيد..

تمتمت وأنا أشد ارتباكاً منه: شكرا

وضع العلبة على طاولة المطبخ؛ بينما ألاحظ بوضوح شديد أن صدره يعلو ويهبط بقوة.. فشعرت بنفسي ألهث، بينما تفلت الكلمات منه، وهو يحاول إبعاد ناظريه عني: أحب أحمر الشفاه اللامع الذي تضعينه..

ثم أعاد نظراته إليّ بقوة؛ فتطّل من عينيه عاطفة قوية جامحة ثم.. تقدم خطوتين هامساً بخفوت: أنا أحبك أشرقت!

هل تصدقون أنني دون تفكير مسبق رددت بعاطفة توازي ما رأيته في عينيه: وأنا.. أحبك..

فكانت اللحظة المداهمة ونحن نقع في أحضان بعض.. شفتايّ عرفتا القبلة، وبشرتي تشربتا باللمسة، وجسدي كله ينتفض بين مداعبة أصابعه لعنقي، وتدليله العاطفي، وتلك الأصابع تنشر سعادة، وهي تمر كالنار خلف ظهري..

لم نشبع من القبلة.. نقطعها لنأخذ نفساً، ثم نوصل الشفاه بها من جديد.. كنت كالمحمومة أطلب المزيد، وهو ينهار لتلك الحمى مني.. تأوهت وهو يلصقني بالحائط، وقبلاته لشفتيّ امتدت لعنقي ونحري..

شعرت بجسدي كله يطفو، وزيد ينقلني بطريقة ما من

المطبخ إلى غرفة الجلوس.. لم يستطع حتى الصبر لغرفة النوم.. وعلى الأريكة عدنا تلك القبلة التي تأبى الفكاك..

أخذت دموعي تنزل من شدة السعادة.. ووسط هذه الحمى شعرت بزيد يطالب بالمزيد؛ فوقعنا من الأريكة على السجادة الوثيرة الشتوية، وأصبحت حركات يديه أكثر جرأة، فانتفضت فجأة بإحساسين متناقضين، وأنا أشعر بيده قد وصلت لبشرة ظهري بعد أن أنزل السحّاب.. الإحساس الأول إحساسٌ مفرطٌ برغبة وحشية تريد شبعاً جسدياً كما شبعت عاطفياً.. والإحساس الثاني الذي يناقضه بقذارة ما يحدث وما سيؤول اليه..

ثم رنّت في أذني آية من القران قرأتها بالأمس فقط (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

اقشعر جلدي من رعب لم أجربه قبلاً.. رعب من غضب الله عليّ.. شعرت بجسدي يتخشب بالكامل، ولم أعد أشعر بلمسات زيد، ولا قبلاته..

انتهت اللحظة، وصوت زيد اللاهث يختمها: ما بك.. هل أنت بخير؟

منحني حرية الابتعاد وقد أدرك أنى أريد التوقف حالاً..

فكرت لحظتها أنه محترم جدا ليفعل.. ويجب أن اقول إنه كان محترماً بالفعل؛ كما كنت أنا محظوظة بمقدرته تلك الليلة على التوقف.. فيما بعد تعلمت أن الغريزة وحش يصارعنا إن أطعمناه.. وحش قد يكسر قيوده مهما كانت قوية.. إنها المقدرة التي كلمتكم عنها.. مقدرة غير مضمونة.. حتى الاحترام أحيانا لا يكون كافياً لنملكها ونصرع الوحش..

تلك الليلة المحمومة كان يمكن أن يفقد زيد مقدرته.. لكن الله سلم، وكنت محظوظة بالفعل.. وقفت على قدميّ وجسدي يهتز مرتعشاً من التجربة.. لينهض زيد من الأرض ويقف أمامي وقد بدا مشوشاً أكثر مني..

أحنى نظراته للأرض، وهو يحاول السيطرة على ارتعاش صوته من أثر الحمى التي تشاركناها، ولم تفلت جسده تماماً: أنا آسف.. لا أعرف على ماذا أتأسف بالضبط.. لكن..

قاطعته وأنا أقول بصوت أكثر ثباتاً منه: أنا لا أريد الحرام يا زيد.. حتى لو جعلني أحلق بسعادة لم أكن أصدق بوجودها على الأرض..

رفع عينيه إليّ، ودافع عن نفسه بصدق: أقسم بالله لم أخطط أبداً لفعل هذا.. ولا أريد استغلالك على

الإطلاق..

ثم تقدم مني لأتراجع غريزياً للخلف بحركة دفاعية ليقول زيد همساً: لا تخافي مني.. لقد أخبرتك قبل قليل أني أحبك.. وأقسم مجدداً لم أقلها حتى بتفكير.. لقد خرجت مني دون شعوري، أو حتى إدراك مسبق لها..

فاعترفت له بالمقابل وبصوت مخنوق: وأنا.. المثل..

عيناي تعلقتا بتفاحة آدم في عنقه؛ وهي تصعد وتنزل هامساً بصوت مبحوح: لم أعرف في حياتي شيئا مذهلا كقبلتك.. للمرة الأولى أفقد رشدي هكذا..

وجدت الضعف يتسلل بيننا من جديد، فتوسلت إليه وأنا أرفع كفي كحاجز مانع لتقدمه: دع الأمر عند هذه القبلة فقط.. أرجوك.. إن حصل أي شيء آخر بيننا سأغرق في وحل أهون علي الموت منه..

تجمدت تعابير وجهه، كما تجمدت خطواته.. تمتم معتذرا وهو يخرج علبة صغيرة من جيبه، ويمد يده ليقدمها لي، وهو يقول بصوت أجش: هذه هديتك.. سأغادر الآن..

مرت بضع لحظات، قبل أن أقرر مد يدي فتلامست أصابعنا، واشتعل شغف اللمس حتى تشابكت الأصابع

بجموح، والعلبة تقع أرضاً وزيد يجرني من جديد في قبلة اختلفت عما سبق.. كانت قبلة الوصل بعد التذوق والمعرفة.. شفاهنا حفظت بعض، ونتوق للالتحام هكذا..

قاومت وأنا أبعد وجهي جانباً، واتوسل إليه من جديد، وهو يضمني بقوة إليه: كفى زيد.. ان كنت تحبني.. كفى..

يتنهد بحرقة، وأصابعه تلامس ظهري، الذي ما زال نصفه عارٍ فأنكمش، وكفايّ تدفعان صدره بمقاومة منتهى الضعف، لكن منتهى الإصرار..

همس في أذني والشيطان يغوينا نحن الاثنين: قبلة أخيرة وسأرحل.. وعد شرف.. لن أتجاوز أكثر من القبلة.. وستكون آخرها.. أعدك..

هل قلت لكم إن الشيطان يجيد المناورة؟ نعم.. هو يجيدها ببراعة.. قد يخسر معركة لكن الحرب مستمرة.. وحتى إذا خسر فهو يتمسك بحقه بالتفاوض.. فيعرض الترضية بأقل الخسائر.. وترضيته كانت بهمسة مغوية...

(القُبَل من صغائر الذنوب)

فكانت (صغائر ذنوبنا) هذه المرة أقوى، وأصابعي أجرأ

وهي تتخلل خصلات شعر زيد بثقة وتطلب.. وقد تركت لزيد نهم لمس جسدي فوق الفستان وأنا كلي رضا وشوق للمزيد لكن.. في الحلال..

هل تصدقون؟! أظنكم مصدومين من منطق تفكيري لحظتها، وأنا أتبادل القبل مع زيد.. فأنستنا القبل الهدف وتهنا في صفقة الشيطان للترضية..

لا تنصدموا.. كلنا نقع ضحية ترضية من هذا النوع.. ليس بالضرورة القبل والغريزة.. إنما قد تشمل أي جزء من حياتنا في العمل.. في البيت.. في أي شيء.. نحاول نتباحث مع الشيطان، حتى يجد لنا ترضية أقل من ارتكاب كبائر الذنوب فيرضينا بصغيرها.. لكنه في الواقع يفتح جبهات أوسع لمعارك جديدة شديدة الشراسة..

غادر زيد بعد أن دفعته دفعاً من غرفة المعيشة للمطبخ.. طالبني أن ألبس هديته حالما أفتحها وألا أخلعها حتى عودة عزّام.. وأنا وعدته سأفعل بينما يخطف قبلة سريعة من شفتيّ عند باب الباحة الخلفية فودعته بابتسامة، وعندما قفز من فوق السياج مغادرا تحت جنح الظلام شعرت فجأة بالوحدة دونه.. بالافتقاد لحضنه وقبلاته..

أذهلني وصدمني منحى أفكاري الخطرة.. لكني عاهدت نفسي سأصمد.. وزيد سيكون لي بالحلال.. سيكون حبيبي

وزوجي..

أريد حبيباً وزوجاً.. فهل هذا كثير علي؟!

*****

البوح الرابع

في اليوم التالي لقاء الشفاه تجدد.. بينما نطعم بعضًا من قالب الكيك، فتختلط أفواه بعضنا بالكريمة فتزيدها حلاوة.. كم عشقت طعم الكريمة من فمه..

واليوم الذي تلاه أيضًا وجدته عند باب الباحة الخلفية ينظر إليّ باستعطاف شقيّ لأفتح له.. ففتحت ليجرني لحضنه دون مقدمات..

هديته كانت سلسالاً ذهبياً باسمي (أشرقت) وقد لبسته له كما طلبه لتزين رقبتي.. عيناه كانتا تبرقان بالتملك كلما نظر لذاك السلسال فكانت مكافأتي تقطعُ أنفاسي بتلك القبل واللمسات التي لا تشبع..

كان يثير جنوني العاطفي ودهشتي الأنثوية كيف أنه لا يشبع! لكني أصبحت أعرف كيف أوقفه عن التمادي.. بل أتلاعب وأتدلل كأننا خطيبين على وشك الزفاف..

زيد لم يكن شاباً بريئا.. لقد أدركت هذا.. إنه شاب مجرب، وعلمت أنه كانت له مغامرات عاطفية كثيرة أيام الجامعة.. قبل أن يتعرف بهديل ويتمناها كزوجة..

اصبحت أغار جدا من هديل، ولا أخفي عليه الأمر.. فيشاكسني هو بذكرها ثم يصالحني بكلمة أحبك يتبعها بحمى قبلة..

انتهت الأيام الثلاث وجاء الرابع الذي بدأ صباحه بعودة عزّام.. شعرت كأنه بات غريباً عني.. لا يحق له لمسي، أو حتى النظر إليّ فكيف بمعاشرتي؟!

لحسن الحظ عزّام عاد مشغول البال بطريقة لم أعهدها منه.. بدا غريبًا وكأنه يفكر بأمر جدي..

لكني لم أهتم لأتساءل ما دام الأمر بعيداً عني.. اكتفى عزّام بأخذ حمام، ثم غادر البيت إلى السوق التجاري الكبير..

اتصلت بزيد لأخبره بعودة عزّام.. فجاءني صوته محملاً بغيرة جارفة، وهو يقول بخفوت: لا تدعيه يلمسك يا أشرقت..

عندها امتلأت أنوثة مكتملة، وأنا أقول له بثقة: سأفعل المستحيل حتى أنهي الأمر بأقرب وقت..

قلت هذه الجملة وأنا غافلة تماماً عن الحقائق الثابتة في

حياتي.. أخوتي وما مصيرهم.. أنا وما مصيري بالضبط، وكيف سأقنع عزّام بالطلاق..

هذه الغفلة كان مفتاحها وضعي الجديد مع زيد.. وقد استخدمت المفتاح، وفتحت باب الغفلة على مصراعيه.. طرت محلقة في غفلتي، وأنا أستعد لمعركتي من أجل من أحب..

وكما أخذتني الغفلة كان الشيطان يأخذ نصيبه منها.. فاجأت زيد بقرار لا رجعة فيه!

أنا (بثبات وصلابة): احتاج أن نتكلم زيد لنتفق على التفاصيل..

زيد (يرد بلهفة): هل أستطيع القدوم الآن؟

ابتسمت وأنا أعلم تماماً أنه لا يفكر إلا برؤيتي لينال الغرام والقبل.. لكني لحظة رؤيتي لعزّام صباح اليوم اتخذت قراري.. وجاء الوقت أن أوصل قراري لزيد..

أنا (بترقق أنثى تراعي رجلها): منذ اليوم لن نلتقي مجددا..

زيد (بغضب طفولي يليق بالرجال): ماذا يعني هذا؟! ألا

تريدين رؤيتي؟!

أنا (أشرح له بطريقة ترضيه): أنت تعرف أني لا أود إلا أن أكون معك ليل نهار.. لكن يجب أن أحل مشاكلي يا زيد.. الأيام الثلاث الماضية لا تعرف ما فعلته بي.. وأنا لا أريد اختطاف الوقت سرقة هكذا ومن الباحة الخلفية.. أريد أن أشعر أني حرة لأحبك وتحبني.. هل تفهمني؟

زيد (مُحاولاً الاعتراض): لكن أشرقت.. أنا لا أفعل أكثر من اختطاف بعض القبل البريئة.. لكني أحتاجها ولا أستغني عنها..

ضحكت من قلبي لكلماته.. لكني اكتشفت في نفسي صلابة لم أتوقعها.. وقررت أني لن أخسرها.. ولن أسمح لعزّام أن يحطمني من جديد..

أنا (بمكر أُنثوي وُلِد على يديه): وأنا لا أستغني عنك كلك.. لكن إن كنت تحبني حقاً يجب أن تساعدني..

صمت قليلا، وتحاملت على الثقل الذي زحف لصدري، وأنا أُواجهه بما يثير مخاوفي: عزّام سيحطمني من جديد.. يجب أن أخرج من دائرته قبل أن يسحقني بجبروته وعنفه..

سأعترف لكم بما لم أصارح به زيد وقتها.. كنت أشعر بالذنب ينغزني.. كأنه نذير سوء ينتظرني.. لا أنكر أني كنت أحب كل لحظة أقضيها مع زيد.. أهيم لساعات بمذاق قبلاته بعد رحيله.. ألف ذراعي حول جسدي لأحفظ حضنه ملتصقاً به.. كنت هائمة بالهوى.. أحلم بلقاء عاطفي عاصف ليلة زفافي على زيد.. لكن هيامي هذا كانت ترفضه فطرتي.. تزرع بذور الذنب ليطرح شوكاً ينغزني ليل نهار.. وكلما التقيت زيدًا كان الشوك ينمو أكثر، ويرفع رايات الشؤم القادم.. غلبني الخوف من الفأل السيء، وليس الخوف من الذنب نفسه، ولهذا قررت التوقف عن تلك القبل والملامسات حتى أحظى بها بالشكل الصحيح..

وهكذا غافلتُ الشيطان دون أن أدرك أني أفعل! وغرقت في غفلتي الخاصة؛ وقد أصبح الزواج من زيد هو هدف حياتي..

ولأقدار الله كلمة الفصل لتسير الأمور على أوجه مخطط لها سلفاً.. إنما البشر لا يعلمون..

*****

يومان وعزّام على نفس الحال.. بعيد بتركيزه تمامًا عني..

وكأني غير موجودة! لتأتي صبيحة اليوم الثالث وهو يخبرني ببرود أنه مسافر مجدداً وسيغيب لأسبوع هذه المرة..

قلبي انقبض بشدة؛ لكني لم أظهر أمامه أي ردة فعل.. قد تخمنون سر انقباضي هو خوفي من فقدان السيطرة على زيد، وأن علاقتنا ستتطور بشكل خطير بغياب زوجي الطويل هذا.. لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي، وإن لم يبتعد عنه كثيراً.. صبراً.. سأحكي لكم ما حصل ليلة الأمس..

كنت قد كلمت زيد لساعة كاملة لم تخلُ من توسلات زيد ليراني خمس دقائق فقط.. كنت أضحك وقلبي يرفرف وأنا أرفض رغم أن شوقي لرؤيته لا يقل عما يصفه شوقه شعرة.. فأنهى المكالمة محبطاً رغم إنه قد حصل مني على قبلة عبر الهاتف لم ترضه ولم ترضني! ولكل منا أسبابه لعدم الرضا..

تركته يعود لأمه كي يساعدها بمراجعة بعض القضايا؛ كما أخبرني أنه معتاد أن يفعل معها أحيانا عندما تكون مرهقة..

وهكذا وجدت نفسي وحيدة أقلب بضجر عبر القنوات الفضائية القليلة المفتوحة لي بناء على (رغبة عزّام) بتقنين المسموح منها.. وفي إحداها صادفني برنامج ديني لشيخ لا

أعرفه.. وجدت كل حواسي تنشد للموضوع، وبنفس الوقت كنت متحفزة وكأني أقف على صفيح ساخن..

لقد كان الحديث عن الزنا.. أنواعه.. عواقبه.. عقابه..

ذهلت وأنا أكتشف للمرة الأولى في حياتي أن هناك زنا حقيقي، وآخر يسمى (زنا مجازي)..

دوماً تصورت أن الزنا هو العلاقة الجسدية الكاملة بين رجل وامرأة وما عداه هي أخطاء وذنوب صغيرة.. لكن كلام الشيخ أوضح لي معنى ما اسماه بالزنا المجازي الذي يقع بالنظر إلى الحرام، أو الاستماع إلى الزنا، وما يتعلق بتحصيله، أو باللمس باليد بأن يمس أجنبية بيده أو بتقبيلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنا، أو النظر أو اللمس، أو الحديث الحرام مع أجنبية، ونحو ذلك أو بالفكر.. بالقلب!

كانت صدمة لي، ورغم كلام الشيخ ان من يفعل الزنا المجازي فلا كفارة عليه وإنما يتوب إلى الله توبة نصوحاً، إلا أنني شعرت بنفسي قذرة خاطئة عاصية، وأنا اتذكر الأيام الثلاث خلال سفر عزّام للشمال، والتي قضيتها غارقة في قبلات زيد وأحضانه..

أطفأت التلفاز وأخذت أبكي وأبكي وأستغفر الله على ما فعلت.. خجلت حتى أن أصلي.. خجلت أن أفتح كتاب الله،

وأنا أشعر أني نجسة لا أستحق لمسه..

ومضت ليلة ثقيلة أشعر بأحشائي تحترق في جوفي.. أطفأت الهاتف النقال، وقررت أني لن استخدمه مجدداً.. ثم تكورت على نفسي في السرير، وأنا أبكي..

لم يكن بكاء على الذنوب فقط، ولكن بكاء على حرماني من زيد.. وحالما تراودني هذه الأفكار أعود لأبكي ذنوبي، وأتخبط بين الاثنين..

وظللت هكذا على تخبطي حتى الصباح، وعزّام مضطجعاً جواري، لا يدري ولا يشعر، بل غارق في النوم ولأول مرة لا يطلق الشخير!

الآن بعد مغادرة عزّام في سفره الجديد شعرت البيت كأنه قبر.. بل وكأني أعيش عذاب القبر فيه.. تطلعت للجدران وكأني أقول لها (اشهدي المزيد).. اليوم حيرتي أشد وألمي مختلف.. لم أعرف كيف أتصرف ولم أعرف لمن ألتجئ..

ثم تهت في ملكوت أفكاري المتخبطة حتى وجدت فطرتي تناديني من بعيد.. نداء طالما تجاهلته حتى خفت النداء ولم أعد أبالي بوجوده.. تلك الفطرة التي كانت ترفض حتى هيامي بزيد.. وليس قبلاته ولمساته فحسب..

من تشعرني بوجود الخطأ فأرد جميلها بالتجاهل هكذا..

اقتربت من أحد الجدران ألامسه بكفي، وأبدأ البوح لأكلم فطرتي أولا، ثم انتهيت بأن أكلم ربي..

أنا: لا تلومي من هامت بين الجدران تكتب دون حروف بوح القلب للسان.. ساعديني كي أجد للروح منقذاً فلم أعد أريد الخطيئة مهرباً

خطيئتي عند الله عظيمة، وعشقي لزيد جريمة.. تائهة وحيدة في دروب مجهولة أرفع رأسي للسماء أبحث عن رحمة موصولة.. رحماك ربي لا تأخذني بذنبي، واغفر اللهم قلة حيلتي وضعف قلبي.. لقد طال دائي حتى فتك بالجسد والروح، ولم أجد دواءً يطبب الجروح..

انهرت ملتصقة الجدار باكية بحرقة بعد هذا البوح.. آآه يا جدران كم شهدتِ وتشهدين..

*****

مرت ثلاثة أيام؛ وأنا لا أكف عن الصلاة والاستغفار والدعاء.. أبكي وحدتي وذنوبي.. أبكي حياتي التي أعيشها مظلومة مقهورة لأنتهي بعاصية.. شعرت أن الله سيعاقبني لما فعلته.. وأن العقاب سيكون بحرماني من زيد، وبقائي

زوجة لعزّام ينهشني، حتى أموت يوماً بين يديه..

أجفلت وأنا على سجادة الصلاة في غرفة المعيشة على صوت طرقات غريبة.. في اللحظة الأولى ارتعبت من فكرة لص يحاول دخول البيت لسرقته، لكن في اللحظة التالية حدسي أنبأني أنه لا بد أن يكون هذا زيد.. مضت ثلاثة أيام دون أن أكلمه..

نهضت من جلستي على السجادة بإزار الصلاة، فأمسح دموع الاستغفار عن وجنتي، ثم أتحرك لأرتدي خفيّ، بينما أطلب من الله أن يسامحني ويقويني، وأنها ستكون المرة الأخيرة التي سألقاه فيها، حتى يتم الفرج وأتطلق من عزّام..

حملت معي المصحف أتشبث به كي يذكرني فلا أعصي من جديد.. كانت فطرتي هي التي تقودني.. وأشعر براحة نفس لقيادتها..

وكما توقعت كان زيد من أتى.. يقف عند باب الباحة الخلفية، يواجهني بالنظرات الغاضبة ويشير لي بيده كي أفتح الباب.. قلبي أوجعني شوقاً إليه فضممت المصحف لصدري، وأنا أبحث عن درع من الله يحميني من هوى نفسي، وضعف مشاعري واحتياج روحي..

فتحت له الباب لكني واجهته بصمودي وأنا بإزار الصلاة والمصحف على صدري ولم أفسح له ليدخل.. لم نسلم على بعض حتى، بل ابتدأ بملامة العاشق هادراً: لماذا تغلقين الهاتف؟! لماذا اختفيتِ هكذا حتى جننت من الرعب عليك..

كانت أنفاسه تتسارع بانفعاله، وأنا ألتزم الصمت، أنتظره يفرغ كل ما في جعبته..

زيد (ونظرات عينيه تقتلان قلبي بالعذاب): منذ يومين ألف وأدور في الحي كالمعتوه، أريد التأكد مما جرى لك.. والبارحة فقط علمت أن زوجك مسافر..

فجأة مد يده ليمسك بمرفقي بقسوة من شدة انفعاله وهي يضيف: كنت سأموت.. وأنا أتخيل.. أتخيل أنه.. ربما.. اكتشف الهاتف و.. قتلك..

كان للعذاب كأسٌ يسقيه ويسقيني.. رأيته في عينيه، كما شعرته في قلبي.. كلانا يقتله نفس العذاب..

كلام عاطفي للغاية أعبر عنه لكم بهذه الكلمات المؤثرة.. لكني أنقل لكم وجهة نظري.. رؤيتي.. إحساسي في ذلك الوقت.. تصنيفي لما مررنا به أنا وهو.. إنها باختصار نظرة امرأة احتاجت أن تشعر هكذا، فرأته متجسداً في رجل..

حاولت انتزاع ذراعي منه لكن زيد لم يفلتني، بل دفعني عنوة لأدخل لعمق المطبخ ودخل معي مغلقاً الباب خلفه.. غضبت منه فأخذت أصرخ فيه كأني أصرخ في نفسي أزجرها أن تقع في الخطيئة مرة أخرى..

أنا (صارخة): اخرج من بيتي حالا.. لا يمكنك أن تكون هنا.. هذا خطأ.. هذا حرام..

ثم أخذت أنظر لزيد من بين دموعي الغزيرة، وقد تحول غضبه وملامته إلى ذهول وصدمة..

زيد (وقد استعاد بعض هدوءه): ما بك أشرقت؟ أنت لست طبيعية.. ماذا جرى؟

أنا (صوتي يرتجف مع حدة نبراتي): ما جرى أن ما يحصل بيننا خطأ لا يغتفر.. ما جرى أن كلانا ننساق لزنى محرم..

في تلك اللحظة حصل تغيير ما في وجه زيد لم أفطن اليه.. تراخت يده التي تمسك بمرفقي حتى أفلته..

بدا مشوشاً بشكل واضح، وأنا فسرت ساعتها انه بدأ يشعر بالذنب مثلي...

أحنى رأسه قليلا، ووضع يده في جيبه، ثم قال بنبرة غريبة: كنت أظن ما جمعنا أقوى من أي شعور بالذنب..

كانت كلماته منتقاة.. لكني وقتها لم أتنبه لهذا.. فقد اخذني الهدف وظننت ان زيد يحتاج أن يرى الأمور بشكل صحيح مثلي!

أنا (تشبثت بالمصحف أكثر، ومسحت دموعي، وأنا ألقي خطبة عصماء): ما بيننا يحتاج للبركة من الله كي لا ينتهي بكارثة يا زيد.. كارثة ستدمرنا نحن الاثنين، وقد نخسر بعضنا للأبد.. علينا التحلي بالصبر، ونمنع أنفسنا عن فعل الحرام مهما آلمنا هذا الفراق الوقتي..

لحظتها رفع عينيه إليّ، وكانت نظرته أغرب وهو يقول: ظننتك تريدين حريتك لتكوني معي وحدي.. لا يشاركني بك رجل.. وأنا احترمت هذا بك.. احترمت أنك لست بامرأة ترضى بوضع مرهق كهذا بين رجلين..

ما زلت بغبائي لا أفهم الاشارات التي تتوهج مضاءة.. لأعود إلى تلك الخطبة (الصمّاء): نعم.. وضع مرهق وخاطئ، ولا يجلب إلا غضب الله وانتقامه.. لذلك فمنذ الغد سأذهب إلى مكتب والدتك كي أتفق معها على رفع قضية طلاقي من عزّام.. سأستغل غيابه لأيام كي

أتفرغ لهذا.. حتى لو اضطررت للتخفي بارتداء حجاب مثلا ونظارة شمسية، كي لا يتعرف عليّ أحد في الشارع، ويصل الخبر له.. وفي مكتب والدتك نستطيع أيضًا التكلم أنا وأنت دون خوف من الضعف أمام مشاعرنا، لكننا نحتاج ترتيب الكثير من الأمور للمستقبل..

سكنت تعابيره تماماً، وبدا بحالة توجس فسرتها (خطأ) أنه توجس بسبب الصعاب والمشاكل القادمة.. أعترف شعرت بقليل من خيبة أمل، وكنت أنتظر دعماً وتشجيعاً أكبر، لكني لم أقف طويلا على توجسه هذا، والتفسير الذي وضعته له، فأكملت لأضع النقاط على الحروف: وحتى يتم زواجنا يا زيد أنا لن ألتقي بك هنا، أو في أي مكان منعزل، ولن أكلمك حتى بالهاتف.. لن أرتكب ذنوباً جديدة، ولن أُعرض كلينا للوقوع في الحرام..

زيد (بتعابير وجه حفرت في ذاكرتي): زواجنا!

النظرة.. قبل النبرة.. جعلت (خطبتي الطويلة العصماء الصمُاء) تذبل وتتساقط وريقاتها الوليدة..

كانت كلمة واحدة قالها زيد بنبرة صدمة انعكست في خضرة عينيه..

أنا (أعلق دون شعوري): ما هذه النظرة!

تبلدت، بل تجمدتُ، وأنا أرى وجه زيد يحمل تعابير أخرى صدمتني دون أن أحددها.. كنتُ أشعرها بحدس حاد كطنين عالٍ في أذنيّ يؤذيني حد الصمم..

زيد (باضطراب واضح): أشرقت أنا..

أنا (أقاطع تلعثمه، وأبحث عما ينفي ما أراه جلياً): لقد قلت إنك تحبني.. أليس كذلك؟!

زيد (بانفعال الدفاع عن نفسه): وأنا صادق.. أنا أحبك.. انظري لحالتي وكيف أتيتك اليوم..

أنا (ما زلت أبحث عن نفي من نوع آخر): إذن؟!

كانت المرة الأولى التي أرى فيها زيد بهذه الحالة.. بدا مصدوماً مثلي، لكن على الجانب الآخر! ليعبر عن صدمته بصدق: لم أفكر.. بالزواج!

كنت بحاجة أن يقولها صريحة هكذا لأستوعب وأوقن أني وبكل غباء كنت أضع نقاطاً على حروف كلمة لم تخطر في باله..

كلمة واحدة لها جانبان بين قبول ورفض.. لأجد

نفسي وحيدة في جانب القبول، وزيد في ذاك الجانب الرافض.. كانت الصفعة الأقوى التي تلقيتها في حياتي على الإطلاق..

لا أعلم كيف بدا وجه زيد تلك اللحظة شبيهاً بوجه عزّام.. كيف أثار في داخلي نفس الثورة الموؤودة منذ ست سنوات.. الإهانة التي تذوقت مريرها من عزّام ها أنا أتجرعها دفعة واحدة من كأس زيد..

كنت أتحطم.. أتفتت حرفياً، وأنا أفكر للمرة الأولى بنظرة زيد لي..

شعرت أني لا شيء! أني هواء.. أني رماد منثور تحملها ريح شتاء باردة قاسية فتغلق كل الأبواب والشبابيك رفضا لدخول سخامها الأسود..

أنا (ولا أدرى كيف وجدت طاقة لأستمر في هذا العذاب، وكأني أمسك شفرة حلاقة وأقطع بها شراييني): لم تفكر بالزواج! هل فكرت فقط بعلاقة؟!

كنت غاضبة كما لم أغضب من عزّام يوماً.. غضب كالجحيم أحرق دموعي، حتى جفت منابعها فلم تعد بها قطرة..

بدا زيد متألما بصدق لكن لم يؤثر بي على الإطلاق ألمه.. حاول الاقتراب مني، وهو يحاول تخفيف وطأة الأمر علي: لا أقصد.. أنا لم..

ابتعدت عنه بحدة، والمصحف مشدود لصدري بعنف، وأنا أواجِهه وأواجه نفسي: أنت تستعر مني.. لست من مقامك.. لست قدرك.. أنا لست كهديل التي سعيت للزواج منها، وفضلت عليك رجلاً آخر.. أنا لست مثلها من عائلة محترمة اجتماعياً تشرفك، ولم أُنهِ تعليمي الجامعي لأتساوى قيمة معك، والأكثر أني لست بفتاة! أنا امرأة متزوجة تتعرض للعنف بكافة أنواعه الذي شهدت بعضاً منه، وأنت تسمع بَوْحي واعترافاتي..

زيد (صدره يعلو ويهبط بانفعال، وهو يحاول من جديد الدفاع): أنا لم أقل هذا!

أنا (مررتُ الشفرة أخيرًا لأنحر شراييني): أنا مجرد امرأة شابة ظروفها سيئة وصادفتها بتشابك خطوط الحياة فساعدتها في محنتها وربما أحببتها.. لكن ما تريده منها هو فقط لذة.. الجنس.. لذة معاشرتها بالحرام.. لذة عمرها قصير، ولو دامت العمر كله!

وقفنا هكذا نحدق ببعض.. أنا المنحورة صامدة بثورة الغضب المهول، وهو الناحر العاجز إلا أن يشهد نحري..

وسط هذا السكون في المطبخ شعرت بغربتي عن الوجود.. شعرت أني لست من هذه الحياة البائسة القميئة، ولم أولد فيها من الأصل..

أنظر لوجه زيد الوسيم فأشعر برغبة عارمة أن أؤذيه.. لكني لم أكذب، وأنا أقول تلك الكلمات المهينة المذلة له: أنت لا تختلف عن عزّام.. على العكس عزّام أكثر صدقاً.. دفع ثمن وجودي بحياته كزوجة حسب مفهومه.. أما أنت فكنت تريدني شريكة فراش مجانية، وانت تلبسني ثياب العاشقة والمعشوقة..

كانت ضربة موجعة له فيهدر: أتساوينني بعزّام؟! أ بعد كل ما فعلته وأفعله لأجلك تجعلينني بكفة واحدة مع ذاك الحيوان؟

أنا (ونزيف نحري مستمر مع البوح): لا.. هو أفضل منك! الحيوان لم يخدعني ويوهمني بالاحترام.. لم يدّعِ أنه بشر أمامي..

زيد (وكرامته تنهض فيظهر وجه الانسان المظلم فيه.. وجه قادر أن يَجرح كما يُجرح): وهل ادّعيت أنا أمرا معك؟ أنا لم أعدك بأي زواج أو ارتباط..

أنا (ومحاولته جرحي كأنت كلعبة أطفال بالنسبة لي، فتبسمت بشقاء ومرارة الحياة): مؤكد! فأنت صادق للغاية.. وكنت تخطط فقط لعلاقة جسدية عاطفية لاهبة.. ليلة عيد ميلادي كنت بارعاً للغاية أشهد لك بهذا..

زيد (يعود للدفاع عن نفسه، والاضطراب يشوشه بوضوح في موقف لم يحسب له حساباً): أقسم بالله لم أخطط لأي شيء.. ما حصل في تلك الليلة أن مشاعري غلبتني.. كل ما خططت له أن أسعدك بعيد ميلادك.. كانت نيتي صادقة أن أفرحك فقط..

أنا (ساخرة من نفسي قبل أن أسخر منه): تفرحني؟! مؤكد! أفرحتني حتى عانقت عنان السماء، وأنا أنهار من قبلاتك ولمساتك وأحضانك.. وما أسهل انهيار زوجة شابة تتعرض لشتى ألوان العذاب والقهر والحرمان العاطفي من زوجها.. مؤكد ستذوب من لمسة رجل متفهم يسقيها و.. يسقي نفسه..

زيد (ووجهه يشحب): تصورينني كوحش آدمي استغلك! أرجوك أشرقت.. الأمر ليس هكذا على الإطلاق.. أقسم بالله ليس هكذا.. أنا أحببتك وما زلت..

أنا (ذاكرتي تستعيد كل لحظة من ليلة عيد ميلادي..

جسدي يتذكر لكنه اللحظة لا يشعر!): ارحل زيد.. حالاً!

زيد (رغم شحوب وجهه، لكن التصميم شع منه): سأرحل لكن الأمر لم ينتهِ.. علينا أن نحل مشاكلك أولا.. اتصلي بأمي، ودعينا نبدأ بقضية الطلاق..

أنا (وجدت الأمر أقرب لكوميديا سوداء): أمك عندما تعلم بما يحصل بيننا لن تقف بصفي.. لن تترك ابنها يقع في فخ كهذا.. لا أصدق أني اقول جملة سمعتها بمسلسل! لقد تابعت عشرات المسلسلات التي تمر ببالي اللحظة وأنا أكاد أنفجر ضحكاً!

أنظر إليه ولم أعد أراه.. لقد بات خيالاً أسودَ جديداً في حياتي.. أما زيد الذي أحببته فلم يعد مرئياً لي..

زيد (وكأنه كان يقرأ أفكاري): مهما ظننتِ بي ومهما قلتِ عني أشياء بشعة، لكني لن أتخلى عنك.. سأتركك تهدئين بضعة أيام، ثم نتكلم..

ظل يحدق بي للحظات طوال، لكن لم يجد أي استجابة.. كنت بعيدة عنه.. في جحيمي الخاص الذي أواجِههُ بمفردي.. لم أعد أسمع حتى كلماته التالية التي قالها قبل أن يبتعد ناحية باب الباحة الخلفية، وعيناه تطفحان بالقلق الشديد، وشعور ذنب عظيم..

ثم رحل.. وسكن المكان أكثر.. والريح تعصف في داخلي، لتتحدى السكون من حولي.. ثورة هياج تملكتني، وأصابعي تتقلص حول المصحف حتى أوجعتني..

تحركت والشعور الوحيد الحي هو تلك الثورة العاصفة.. وضعت المصحف جانباً على طاولة المطبخ، وخلعت إزار الصلاة، ثم قادتني خطواتي لمكانين محددين.. اولهما غرفة نومي، وذاك الدرج الأخير في منضدة الزينة، حيث العلبة التي أخفيها عن عيني عزّام.. فأخذتها وعدت إلى المطبخ لتكمل خطواتي قيادتي إلى المخزن وشوال الرز فأخرجت الهاتف النقال..

خلال لحظات كنت جاثية على أرضية المطبخ الباردة، وقد وضعت الهاتف مع السلسال الذهبي في قعر الوعاء الحديدي الأسطواني الثقيل، وبيد الهاون أخذت أدق وأدق بكل قوتي.. ألهث وأنا أدق كل لحظة، وكل كلمة، وكل قبلة، وكل حضن..

أشعر وكأن جلدي يحترق! إنها نار جهنم طالتني، وأنا ما أزال على الأرض..

لم أتوقف عن الدق حتى أصاب ذراعي الخدر، وضج كتفي بالألم.. لأدرك في أي حالة كنت من هستيرية،

والعرق يتصبب مني، وخصل شعري ملتصقة بخدي وحول رقبتي، كأنها سياط النار..

رميت يد الهاون جانباً، ثم حملت الوعاء الثقيل على صدري، لا أبالي بالألم الجسدي الذي كان ينتشر.. ومن الباب الحديدي إلى الباحة الخلفية، ومن فوق السياج الفاصل مع بيت أبي عماد رميت الحطام..

عدت أترنح إلى غرفة المعيشة بعد أن أقفلت باب الباحة الخلفية بالمفتاح ثم انهرت أرضًا فأتلوى في ألم لا يوصف.. روحي كانت تصرخ بالألم، وجسدي يستجيب لها، فيصرخ معها، والجدران تشهد!

تشمّتوا يا من تقرؤن بوحي.. تشمّتوا وقولوا تستحق وزيادة مكيالين وثلاثة.. تشمتوا إن كان يشعركم أنكم أفضل، وأكثر طهراً وعفة.. قولوا عني ما شئتم.. أني خائنة.. خاطئة.. عاصية.. قذرة..

لكني لن أتوقف عن البوح كما أني متأكدة بأن فضولكم سيجعلكم تستمرون بالقراءة.. تسمعون الحكاية لكن دون إنصات متدبر..

الجدران تنصت أكثر منكم.. فدعوا بوحي لها..

لا.. بوحي ليس للجدران فحسب.. بل سيسمعني من خلقني وهو حسبي..

***

ليومين أنا طريحة الفراش.. لا أشعر بشيء ولا آكل إلا ما يسد الرمق.. كنت مشلولة وأنا قادرة على الحركة.. لكن الشلل أصاب قدرتي على الحياة.. ولا أدري أي رحمة مَنّ الله عليّ بها فلم أنتحر..

كنت قد غفوت قلقة على الأريكة ساعة العصر، والتلفاز شغال، حين استيقظت على رنين الهاتف الأرضي!

الرنين بدا لأذنيّ غريباً، وكأنه يوقظني من كابوس طويل للغاية.. وعندما رفعت السماعة جاءني صوت عزّام: مرحباً أشرقت..

للحظة لم أعرف بما أرد! للحظة توهمت أنى أعيش حياة أخرى كأي زوجة عادية تستقبل اتصالا هاتفياً من زوجها المسافر..

أنا (مبدية عجباً لا أعرف كيف انتابني الآن في الحالة التي كنت فيها): لقد تصلح الهاتف!

عزّام (يرد بهدوء غريب): أجل لقد تصلح.. لقد تم حل مشكلة الشبكة بأكملها، وعاد كل شيء إلى وضعه الصحيح..

رعدة مرت في جسدي وعقلي ببطء يفسر.. لكن التفسير الوحيد الذي توصلت إليه أن عزّام اكتشف الأمر.. لهذا يبدو هادئا هكذا.. لهذا يتكلم عن الهاتف الأرضي وإصلاحه..

جفّ حلقي فقد انتهيت بالتفسير أنها لا بد النهاية.. ولعجبي لم أخفْها.. ليته يفعلها ويقتلني.. فلي رب رحيم يستقبلني في دار الآخرة حيث لا تُظلَم فيها نفس أبداً..

لم أتنبه أن نبرة عزّام كان فيها غرابة من نوع ما وهو يخبرني عندما طال صمتي: غداً أراك.. سـ.. أكون عندك قرابة العصر..

ثم تنحنح وهو يضيف: نظفي الدار وأعدي طعاماً جيداً..

كنت أتمتم بـ حاضر، بينما هو صمت طويلا ليقول بعدها: أعدي غرفة النوم في الطابق العلوي..

وقبل أن أجد قوة لأسأل أغلق عزّام الخط تاركاً إياي في حالة تشوش.. غلب إنهاكي لأعود للنوم.. وهذه المرة

تركت جسدي يجد مثواه في السرير فكان نوماً عميقاً كالموت امتد لساعات طويلة غارقة في الظلمة حتى صباح اليوم التالي..

تتساءلون الآن ما حكاية عزّام؟ وماذا سيحصل مع زيد؟ لا تقلقوا.. للحكاية بوح كثير مستمر.. كله مدون في رأسي.. لقد وعدتُ نفسي بفعل هذا وسأفي بوعدي لآخر رمق..

*****

قضيت نهارًا طويلاً بالتنظيف.. بالغت بالدعك والغسل والتلميع بصحتي الضعيفة وجسدي المهدود.. ولم أفعل هذا لأرضي عزّام أو خوفاً منه.. لكني وجدت في التنظيف المضني هذا إلهاءً وتخديراً مريحاً.. وحالما انتهيت انتقلت للطبخ كأني أعدُّ وليمة! ومع المغيب كنت أعتني بملبسي بعد حمام ساخن..

لا تسألوني لماذا كنت أفعل كل هذا.. لأني أنا نفسي لا أعرف تفسيراً مقنعاً لي لأقنعكم به أنتم..

وقفت وسط غرفة المعيشة أتلفت وحدي في السكون.. شعرت بالخوف فجأة ورغبة أن أسمع صوت أي انسان حولي؛ فأسرعت لتشغيل التلفاز لأشعر ببعض الاستقرار..

صوت بوابة الباحة الأمامية تلتها إنارة مقدمة سيارة أعلمتني بوصول عزّام مع ضيفه.. تحركت أحث الخطى للمطبخ انتظر دخول عزّام ليعلمني متى أقدم الطعام..

لا أعلم كيف قلبي تباطأت خفقاته مع دخول عزّام وصوته المرحب بـ... امرأة!

استندت بيدي على حافة طاولة المطبخ، وأنا أدعو الله ان يرحمني من مواجهة موقف بشع.. لم يسبق لعزّام أن أحضر إحداهن للبيت بهذا الشكل الفاضح.. أيُعقل! فعلها الليلة؟!

الأصوات تصلني ما بين عزّام وتلك الرفيقة الضيفة.. إنها تبدي إعجابها بالبيت..

شعرت بالأرض تميد بي وفكرت هل أصرخ؟!

- أشرقت

شعرت بوقفته عند باب المطبخ حتى قبل سماع صوته.. التفت برأسي وهالني أن أرى ما أرى.. امرأة بصحبة.. زوجي!

امرأة تكاد تقارب عزّام عمراً.. ممتلئة الجسد على نحو ليس فيها جاذبية.. تضع أطناناً من مساحيق التجميل على وجهها.. عيناها بحملهما الثقيل من الكحل والرموش الصناعية والألوان المبهرجة اللامعة؛ كانتا ترمقانني بنظرات مستحقرة، بينما فمها الكبير المطلي بأحمر شفاه فاقع يبتسم ابتسامة منفرة..

نظرت لوجه عزّام فرأيته بلا تعبير رغم الابتسامة القصيرة على شفتيه هو الآخر..

ما زالت أصابعي متقلصة حول حافة المنضدة؛ بينما عزّام يضيف بنبرة هادئة غريبة: ألن ترحبي بوداد؟

أخذ رأسي يهتز، وأنا أتساءل بصوت تخنقه المذلة والقهر: وداد؟!

لترد (وداد) بنفسها وهي تعرف عن موقعها بترفع: أجل.. وداد.. زوجة عزّام الجابري..

أعترف أني لم أفهم.. استعصى عليّ تماما الأمر.. بينما تتقدم وداد مني وهي تتساءل بنبرة أمر: ألن تباركي لنا.. أشرقت؟!

*****

البوح الخامس

أسبوع كامل وأنا أراقب ما يحدث بذهول أنساني أو ألهاني عما حصل حتى مع زيد.. وليس فقط صدمتي بزواج عزّام المفاجئ من أخرى.. تلك الليلة التي عاد بها عزّام مع عروسه اكتشفت أن الغرفة العلوية التي أعددتها ونظفتها صباحاً كانت لأجلي أنا، وليس لأجل الضيف.. وبهدوء وصمت تمتمت بمباركة لـ (عروسين)، ثم نفذت أمر وداد وهي تطلعني على الترتيب الجديد للنوم، وعزّام لم ينطق بحرف أو يعترض على كلامها.. لملمت حاجياتي كلها من الغرفة الكبيرة في الطابق الأول التي جمعتني بعزّام لسنوات، ونقلتها إلى تلك الغرفة في الطابق الثاني تحت أنظار وداد المنتصرة، وأنظار عزّام المتحسرة!

لم تكن وداد تعلم أنها فعلت بي معروفاً.. لكني أدركت بفطرتي أن الله جعلها سبباً ليمنحني بعض رحمته.. فقضيت تلك الليلة أحمد الله، ونزلت دموع الحمد على خديّ بصمت؛ حتى بللت وسادتي الجديدة وسريري المنفرد.. نمت قريرة العين لا أفكر بشيء إلا أني أُعفيت من عذاب مشاركة عزّام في قرف معاشرته الجسدية..

لكن ما حصل خلال الأيام السابقة، وبعد تلك الليلة

العجيبة جعلني استمتع بدور المتفرج إلى حد ما.. كنت مصعوقة بخنوع عزّام أمامها.. لم يعد يتأخر بالعودة..

لم يعد يترنح بالخمر ليضرب ويعربد.. لقد تحول لـ قطة منزل أليفة.. تكافئه وداد بالسماح له باحتساء بعض الكؤوس ليعدل مزاجه، ثم تسارع لأخذ الزجاجة وإخفائها عنه، وتبدأ بالرقص له على أنغام الموسيقى الشعبية..

كانت بشعة وهي ترقص.. منفرة.. تثير الغثيان.. وكنت أعرف بحدسي كـ (زوجة لعزّام) أنه ينفر منها، لكنه يُظهر العكس.. بسلاسة أغرب من الخيال انتظمت حياتنا.. تلفاز صغير صعد لغرفتي بأمر من وداد.. مطلوب مني في النهار أن أنظف وأطبخ حتى تستيقظ وداد من نومها الذي يمتد أحيانا للظهيرة..

ثم تحاول إذلالي بأمور صغيرة كأن تأمرني بإعداد القهوة لها.. أو وجبة دسمة من البيض واللحم تلتهمها بمفردها.. تنتقدني على التنظيف وتأمرني بإعادته أو تعلق باستهزاء على ملابسي الرخيصة وذوقي الرديء.. أحياناً يحلو لها إظهار الاشمئزاز من رائحتي المنفرة (كما تدّعي كذباً).. باختصار كانت تعاملني كخادمة لها، ومدبرة لطلباتها.. حتى يحل العصر، ويقترب موعد عودة عزّام لتصرفني إلى غرفتي بنبرة مهينة.. فأنفذ وأنا ممتنة! فأرى في عيني وداد الغيظ...

كانت تعتقد أني أتعمد فعل هذا لأثير عطف عزّام عليّ!

بالمناسبة.. لم أعد أخرج في الحي.. وأي احتياجات أطلبها بالهاتف الذي لم يعد يتشابك مع أي خط هاتف آخر..

وهكذا اختفى زيد.. كأنه حلم.. أو ربما كابوس.. لا فرق عندي.. المهم هذا ما ظننته وقتها..

لنعد لـ ضرتي.. لقد علمت سريعاً سر ما يحدث.. كانت تكلم إحدى قريباتها بالهاتف وظنتني ما زلت بالباحة الخلفية أنشر الغسيل.. مكالمة واحدة وفهمت كل شيء..

وداد ثرية ولها تعاملات تجارية واسعة في عدة مدن، ومسنودة من كبار التجار.. وقد دفعت ديون عزّام، وأوقفته على قدميه، لكن اشترطت عليه الشراكة ليس بالتجارة وحسب وإنما كزوجة.. والأهم من هذا بل الخطر ما اكتشفته بنفسي وأنا أتابع حوارات عزّام ووداد آخر الليل في غرفة المعيشة.. أعترف فضولا أو ربما مللا دفعني لأتنصَّت عليهما.. ولم أكن غبية لأفهم.. وداد كان لها علاقات مع (رؤوس) كبيرة في الدولة؛ لتسهل لعزّام صفقات ومناقصات من جهة، ولتمسكه من عنقه تخنقه بالتهديد والوعيد من جهة أخرى..

كنت خارج الحلقة أتفرج وأستكشف.. أعيش حالة مميزة.. الوحدة كانت علاجاً ناجحاً لكل ما مررت به..

انصرفت لقراءة القرآن، والبحث في القنوات عن أي برامج دينية؛ أحاول التثقف منها.. لكني لم أجد ما يشبع حاجتي للمعرفة.. لم يكن لدي أي كتب إلا كتاب الله فاكتفيت به كصلة ألتجأ اليها.. ثم أحسست بشوق لإخوتي، وكأني لم أرهم منذ دهور.. لكني لم أجرؤ على مكالمة عزّام.. ففي اليومين الأخيرين نظرات عزّام إليّ كانت تقلق، بل تزعزع إحساسي بالأمان منه.. والأدهى كانت تغضب وداد.. ورغم أني أنسحب للطابق العلوي حالما يدخل عزّام البيت؛ إلا أن الأمر لا يخلو من مفاجآت عودته في أوقات لم يعتد سابقاً العودة فيها..

لقد فهمته وتجاهلت الفهم.. كما فهمتها وداد رغم أنها لا تعرف عاداته وأوقاته بالعودة للبيت..

عزّام كان يلهث ككلب يشتهيني..

أتتساءلون ماذا عني؟ ماذا عن احتياجاتي كأنثى؛ التي حرمت منها وأنا زوجة عزّام من سنوات؟ أتتساءلون ربما باستهانة كيف أتحمل وأصبر نفسي، وقد أثار زيد شهوة واشتياقاً للعشق الجسدي؟ سأرد بما سيصدمكم.. لقد انطفأ كل شيء.. أصبحت نفسي تعاف الحميمية بين الرجل

والمرأة.. أقرف منها.. أشمئز.. لقد خبت.. انطفأت.. ماتت.. شيء ما حصل لجسدي فأصيب بالبرود..

وما زاد إحساس البرود هو سماعي لصوت وداد الأقرب إلى الصراخ بمبالغة في كل ليلة؛ لتوصل رسالة عن استمتاعها بالعلاقة الجسدية مع عزّام.. كان يصلني الصوت بوضوح إلى غرفتي بالطابق العلوي.. تظن أنها تحرق قلبي وتثير غيرتي على (زوجي) الذي أصبح يعاشرها هي فقط لا غير..

الأمر لم يطل كثير كما كنت أخمن بتوجس.. ولم يكن بيدي أي شيء أفعله لإيقافه.. وقد بدأ بظهيرة أحد الأيام عندما دخل عليّ عزّام المطبخ، وأنا أغسل الصحون في الحوض.. ألتفت إليه فرأيت في عينيه شهوة صارخة وشوقاً ضارياً كي يطفئها..

لم أخف منه؛ رغم تسارع دقات قلبي لاقتراب خطواته.. كان شعوراً جديداً أجربه أني لا أخاف.. ولم أعلم هل (وداد) سبب اطمئناني؟ لكني لم أجد رداً.. أما نبضي المتسارع فكان كنوع من الترقب لمعركة قادمة وددتُ لو أملك القوة لأنازل فيها..

عدت لغسل الصحون، وأنا أتجاهل اقترابه حتى بات خلفي بل ملتصقاً بي التصاقاً خشناً حتى حشرني بينه وبين

حوض غسيل الصحون..

جسدي كان لا يبدي أي استجابة.. غريزتي الجنسية لا تسجل سلباً ولا إيجاباً.. فظن عزّام ذاك السكون اللامبالي هو استرخاء الرضا والرغبة.. كنت أشعر به يتلفت برأسه ناحية باب المطبخ التي دخل منها؛ بينما ما زال جسده يضغط جسدي في شهوة ليقول بصوت متقطع خافت: تعالي نصعد.. لغرفتك.. وداد تأخذ حماماً طويلاً ولم.. تعلم.. بعودتي..

أحدق في الجدار أمامي كأني أطلب شهادته.. كان يجب أن أتصرف.. وداد ستقلب حياتي جحيماً.. قلت له بنفس الخفوت: وداد لن يعجبها إن علمت.. وستعلم.. قد أكونُ لستُ مهمة لك فيما لو طردتني وداد من البيت.. لكن مصالحك معها ستضرر كثيراً..

ظننت أنني قلت ما يكفي لأجعله يتراجع.. لكن عزّام لم يهدأ، وهو يمد كفه الأيمن للأمام يلامس مفاتن جسدي بتلك الخشونة المؤذية.. تأوهت رغماً عني من الوجع بينما هو يميل بفمه عند أذني هامساً بأنفاس لاهثة: لقد اشترطت عليها أني لن أطلقك.. ألا يعني هذا أنك.. مهمة عندي؟

لم أتأثر أو أتفاجأ.. رغم أنها المرة الأولى منذ زواجنا

يعبر عن أهميتي بهذا الشكل.. رجحت الأمر أنه يحاول تليين إرادتي.. رجحت أنه يبحث عن تحالف بيني وبينه لنتدبر (مواعيد فراش) سرية..

أوشكت أن أضحك! لكني رددت بهدوء بارد: مهمة لرغباتك فقط.. أنت تاجر عزّام، ومؤكد أجريتَ حساباتك قبل ان تعقد صفقتك مع وداد.. علمت أنك ستضطر للامتناع عن معاشرة النساء الأخريات.. فوداد لن تسمح لك.. لذلك أخبرتها عن (المسكينة الفقيرة) التي ستكون خادمة مجانية لها.. كنتَ تفكر أنك مع الزمن ستجعلها ترضخ لتعاشرنا نحن الاثنتين ما دمنا.. حلالك..

بدا عزّام كمن فقد سيطرته على شهوته، وحركات جسده وكفيه تزداد عنفاً فوق جسدي ليقول بما فاجأني قليلا: هي لا تهمني في حلال أو حرام.. لكن.. أنتِ.. أنت شيء آخر.. أنت ملكي.. مذ وقعت عيناي عليك، وأنت ابنة السادسة عشرة..

كانت (أكثر) جملة عاطفية قالها لي يوماً منذ زواجنا الأغبر.. لم أظن أنني مميزة عنده حتى على المستوى المادي الجسدي الذي يعبر به.. فجأة فقد صبره فأمسك بشعري يجره للخلف وهو يميل برأسه ليقبل عنقي، وكفه تبحث عند منفذ من قميص نومي القطني ليصل على مفاتني بلمس مباشر وهو يهذر كالمحموم: كيف أُمْنَع عما هو ملكي؟!

كيف أُمْنع عنكِ يا أشرقت..

الوقت كان يمضي ووداد في حمامها الطويل.. لقد كان محقاً لأن وداد تقضي كل يوم ساعة كاملة تدلل نفسها ببذخ.. ما بين العطورات والكريمات والزيوت..

أخذ عزّام يجرني وجسده يرتجف في شوق لينالني، بينما أحاول ردعه دون رفضه حتى لا أتلقى منه عنفاً لا يتحمله جسدي: عزّام وداد ستخرج في أي لحظة..

ما أن نطقتها حتى فتحت باب للجحيم ووداد تهدر وهي تدخل المطبخ: ايتها السافلة.. أتحاولين إغواءه مستغلة أني في الحمام..

ما حصل بعدها كان لا يوصف.. أو ربما لا يُقال.. لقد تركني عزّام لها لتنهش وداد جسدي الهزيل الضعيف ضرباً وعضاً، وتصفع وجهي، وتشد شعري بوحشية حتى اقتلعت بعض الخصل..

تسألون عن ردة فعلي صح؟ أم ربما تتساءلون أين كان عزّام من هذا؟ ردة فعلي أني شعرت كورقة مهترئة تمزقها رياح عاتية.. لقد كنت أضعف مما تخيلون.. أما ردة فعل عزّام فكان أنه حاول (على استحياء) أن يقنعها بالعفو عني، وأني لن أكرر فعلتي مرة أخرى!

رمتني على أرضية المطبخ؛ عندما اكتفت من تأديبي وتلقيني درساً.. ثم رفستني في بطني وبصقت عليّ، وأنا أرفع وجهي لها.. رفعت سبابتها وعيناها تشعان بنار متأججة: كريها يا رخيصة وارمي بنفسك عليه، وسأرميك لمكب النفايات..

ثم سكنت لأوجاع الجسد مغمضة عينيّ، وبرودة أرضية المطبخ تتسلل لجسدي المسجى.. صوت عزّام وهو يحاول تهدئتها بينما يغادر الاثنان المطبخ.. كنت أحاول التنفس بحذر لأخفف الألم.. لكن وداد أخطأت التقدير.. لقد ظنت أن وجع الجسد جديد عليّ.. تلك الواهمة الغبية..

وخلف أجفاني المغلقة كنت أستعيد تلك النظرة في عينيها.. نار الغيرة فضحتها.. لقد كانت تعلم أن عزّام هو من يشتهي ويريد لا أنا.. لكنها رمت التهمة عليّ كي تقنع نفسها أن عزّام لا يرغب.. ستظل امرأة مهما كانت لها سلطة وجبروت رجال متنفذين..

نار النظرة الغيورة منها ألهبت في رأسي فكرة.. لقد وجدت أول الخيط.. ولا أملك شيئا لأخسره.. وهكذا.. ابتدأ مشوار جديد..

*****

الأيام التي تلتها كنت شديدة الحرص في التصرف.. ادعيت الانكماش والمسكنة، وكنت أهرب جرياً كلما وصل عزّام البيت؛ فأرضي وداد التي تظن أنها انتصرت، وأني استوعبت الدرس لكني استغليت زوايا النظر والتواجد بالأماكن أبشع استغلال.. إن كنّا أنا وهي في المطبخ مثلا، وسمعنا صوت عزّام الذي أمرته وداد بالإعلان دوماً عن وصوله بصوت مرتفع كلما دخل الدار، فكنت أسارع لمغادرة المطبخ مهرولة، وأتركها بمفردها هناك لأدعي الهرب وهي تضحك بغرور؛ بينما في الواقع كنت أريد أن أتواجد معه للحظات خاطفة بمفردنا، ووداد مطمئنة غافلة.. فأجيد الارتطام به عن غير قصد (مقصود) وأنا في هروبي المفترض منه، وأتمسح بمفاتن جسدي مع اشتياق جسده، وأدعي البراءة التامة؛ وأنا أعتذر بنظرات تتصنع الخوف.. فيلامسني هو خطفاً متمتماً بخفوت: على رسلك..

لكني أبعد كفيه عني، وأواصل الهرولة للسلم، وأنا أشد قميص نومي حول جسدي، أو أرفع طرفه لأكشف عن ساقيّ بإسراف، بينما أرتقي الدرجات.. وعينا عزّام تلاحقان جسدي الذي حُرم منه، ولا يجرؤ على تحدي وداد لينهل ما يشتهي مني..

أحيانٌ أُخر، كنت أكتفي باستغلال زاوية النظر، وأرفع

ثوبي وأنا أرتقي السلم عندما أكون متأكدة أن زاوية نظر عزّام فقط من تصل رؤيتي.. وكأننا اتفقنا أنا وعزّام دون أن نتفق.. هو يتحين الزوايا، كما أنا أستغلها ليراني في وضعيات مغرية.. كنت أنهكه!

مرة كنت في غرفتي آخر الليل، عندما سمعت صوت سيارته تدخل.. فتحركت بسرعة وخفة لألبس قميص نوم خفيف رغم برودة الجو.. وخلال لحظات كنت أغادر غرفتي حافية القدمين وبنفس السرعة والخفة على أطراف أصابعي كي لا تسمع وداد خطواتي، ثم أنزل درجة سلم واحدة، وأجلس على التي بعدها، وأكشف عن ساقيّ حتى الفخذين، وأدعي أني افركهما بتألم.. في تلك اللحظة دخل عزّام وقبل أن يعلن عن وصوله حسب (الأوامر) تسمّر مكانه، وعيناه تأكلانني أكلا، بينما أنا أبالغ بعرض المزيد من المخفي، وكأني لا أشعر بوجوده ولا دخوله.. حتى أخذ يسعل فجأة، ثم أعلن عن وصوله فأدركت أن وداد ظهرت فسارعت للهروب بنفس الخفة دون أن تشعر وداد بوجودي..

دخلت غرفتي واغلقت بابي بحذر شديد، وقلبي يقرع بفعل الأدرينالين.. إنها إحدى المجازفات التي أقوم بها.. لقد كانت حرباً أخوضها.. حربًا لا ترحم.. طوال ساعات اليوم لا أفكر إلا بالجولة القادمة، حتى أصبحت مهووسة بحسابات زوايا النظر.. كل هذا أفعله بدقة كي أثير جنون

عزّام، وأجعله يفقد القدرة..

إن كنتم لم تخمنوا بعد ما أحاول فعله، والحصول عليه ستصلكم الإجابة قريباً..

*****

أسبوع على هذا الحال.. أنا وعزّام بين كر وفر.. أما وداد فغارقة في طمأنينتها؛ بل أصبحت حتى تعاملني بخشونة أقل.. بدأت تلمح أنها مشفقة على حالي البائس، وحال أهلي وأخوتي التعساء! ولمحت كيف أن عزّام ظالم بأن لا يسمح لي بزيارتهم إلا بفترات متباعدة جدا قد تصل شهراً أو شهرين.. كما لمّحت أنها ستفكر بإقناع عزّام أن يدعني أبيت مع أخوتي، ولو مرة أو مرتين في الأسبوع.. فأكتفي بأن أبالغ بشكرها، وأبدي امتناناً جمّاً إن استطاعت حقاً فعل هذا لأجلي..

كنت أفهم ما تفعل؛ بينما هي لا تفهم! لقد خدعتها بضعفي الجسدي، وبؤس تعابيري وتمثيلي المتقن أني أهابها وأُطيعها.. حتى أصيبت وداد بزكام شديد فاعتنيت بها وخرجت بنفسي لشراء دواء يخفف عنها الأعراض ويجعلها.. تنام..

تلك الليلة وأنا أقيس حرارتها المرتفعة أعطيتها الحبوب

في التوقيت المناسب لتغفو خلال ربع ساعة.. فتركتها في غرفتها التي كانت يوماً غرفتي مع عزّام، ثم أغلقت الباب خلفي وأنا أغادر..

تجهزت خلال عشر دقائق فقط بكل الاسلحة.. ارتديت قميص نوم حريري خليع مما كان يجبرني عزّام على ارتدائه.. نثرت شعري وتعطرت وتبرجت بكثافة.. قلبي كان يدق بعنف وأنا أدعو الله أن يساعدني في مسعاي، وأن يمنحني القوة والشجاعة مع الصبر والتحمل..

شغلت التلفاز بصوت منخفض، وفتحت قناة فضائية للأغاني.. ثم جلست على حافة سريري بتوتر بانتظار لحظة الصفر.. عيني على الساعة الجدارية وأذناي مرهفتان لسماع صوت دخول السيارة.. حتى حصل..

زادت خفقات قلبي بجنون؛ بينما أقف على قدمي وسط الغرفة وأبدأ الرقص بل أندمج به..

كنت أرقص كما نساء الغجر؛ اللواتي يمتهنّ الرقص في تلك الفنادق التي تخصص فقرات لهن كتغطية للدعارة المدفوعة الثمن.. أمقت رقصهن لكن عزّام يعشقه.. رقصت ورقصت وأنا أنتظر.. كنت متأكدة أنه سيصعد لي..

بالغت بحركاتي لأتخلص من هذا التوتر؛ حتى أني لم أشعر حقاً بعزّام وهو يفتح الباب، ثم يسارع ليدخل ويغلقه خلفه ويقف لاهثاً.. عندما تنبهت لدخوله أوقفت الرقص، وشعري منثور حول وجهي، بينما أراه يحدق بي بعينين لا ترمشان..

تساءل وهو يتقدم نحوي: من أين تعلمت هذا؟

رددت بهمس مغوٍ وهو يصل إليّ: من التلفاز.. أأعجبك رقصي؟

تمتم متسائلاً بصوت خافت ونبرة ثقيلة: لماذا لم تتعلميه سابقاً؟

عيناه للحظة فقدتا اتصالهما معي ليلتفت بهما للخلف يطالع الباب المغلق لكنه ما زال يخشى وداد..

شعرت أن فرصتي ستضيع.. وأني لن أحظَ بغيرها.. بل أني لم أعد أطيق الاستمرار أكثر.. يجب أن ينتهي الأمر الليلة.. تقدمت إليه بجرأة وألصقت جسدي به، وهمست كاذبة بمكر أنثوي: الغيرة جعلتني أتعلم.. أريد رجلي أن يعود إليّ.. كل ليلة..

ذراعاه ترتعدان وهو يلفهما حولي بعنفه البغيض؛ لكن

تعاود عيناه النظر للباب وهو يهمس بارتجاف: وداد لن.. ترضى..

فأمسك وجهه وأديره نحوي وأهمس كأني الشيطان وأنا أحبِك الكذبة: وداد نائمة أليس كذلك؟ أعطيتها منوماً اشتريته لها بنفسي مع دواء الزكام.. هي لن تعرف أبداً..

توهجت عيناه وبدا كمن فقد عقله، وهو يحدق بي برغبة لن تمر الليلة على خير حتى يطفئها.. دعوت الله بكل قوتي أن يساعدني لأتم الأمر.. لقد أوشكت أن أنجح.. هذه المرة عزّام لن يفلتني، ولو أتت وداد بجيش جرار معها..

وقد كان.. وأفلت الأمر، ولم يعد التراجع خياراً.. لقد جن بالفعل، وهو يمزق قميص النوم، وينهش من جسدي رغبته.. أعاني وأنا أشجعه لينهش أكثر وجسدي كخرقة بالية باردة.. لكن عزّام لا يهتم ببرودة فعل جسدي.. لا يفكر حتى.. إنه ينال فقط.. والليلة كان يشعر بلذة مختلفة، لأنه ينال ما هو محرم عليه..

أتألم وهو يرميني بعنف على السرير ويخلع كل ملابسه قبل أن يرمي بجسده الثقيل فوقي، وهو يتمتم كيف مرت أسابيع كثيرة وهو محروم من هذا.. كان يكلم نفسه ولا يكلمني أنا.. تركته يفعل ما يشاء بل شجعته ليصبح أعنف فيصفعني مراراً وأنا أطلق لصوتي العنان.. لقد خدعته

وأوقعته بالفخ!

كان ينالني وهو نفسه يطلق أصواتاً عالية من اللذة، عندما فتحت وداد الباب علينا لتشهد منظراً لا يمكن لامرأة أن تنساه من رجلها.. لقد كان هديتي إليها.. هديتي وأنا أنزف من فمي، وكدمات على كل جسدي..

إنها هدية باهظة الثمن لكن حريتي أغلى.. المضحك المبكي أن عزّام لم يبتعد عني حتى أتم لذته لآخرها، وأمام ناظري وداد وصرخاتها المدوية وهي تتقدم نحو السرير تضربه على رأسه وكتفيه العاريين..

كنت منهكة وكأني خضتُ حرباً ضروساً حتى شعرت بقواي الجسدية خارت تماماً بينما أتابع ما يجري بذهن مستنزف.. عراك بالأيدي بين عزّام ووداد، ثم يدفعها وهو يلبس سرواله، ووداد تسب وتشتم بي وبعزّام معاً..

تركاني هكذا وغادرا الغرفة.. لكني ابتسمت وهطلت دمعة فرح وانتصار وصوت وداد يعلو وهي تصرخ نازلة الدرجات مع عزّام: ستطلقها.. الليلة يا عزّام.. قسماً بالله لن تطلع شمس الغد، وهذه الحقيرة على ذمتك..

غفوت وأنا هكذا، والتلفاز شغال على أغانٍ جديدة.. ولا أعلم كم مر من الوقت.. ربما ساعة أو نصف ساعة عندما

شعرت بمن يصفعني ويوقظني من نومي..

فتحت عينيّ لاستوعب وغريزياً أسحب غطائي ليستر عُرِيّي.. كانت وداد من صفعتني لتوقظني، وعزّام يقف خلفها كالتمثال..

أمرت وداد ووجهها يقطر سمّاً: ارمِ يمين الطلاق يا عزّام..

أخذ جسدي يرتجف، وأنا أترقب بنفس لهفة وداد كي يرمي عزّام اليمين.. وعندما تأخر صرخت وداد بتهديد صريح: إن لم ترمه اللحظة سأجري اتصالاتي.. وأنت تعلم..

عرفت مذاق الفرح من القلب لأول مرة منذ وفاة أبي؛ عندما سمعتها من فم عزّام: «أنت طالق! أشرقت!»..

كل الكلام البذيء القذر الذي قالته لي وداد بعدها وهي تصفني بالعاهرة والرخيصة لم تسرق مني فرحتي..

خرجت عند الفجر من بيت عزّام كما أمرت وداد.. لكني خرجت منتصرة.. للمرة الأولى في حياتي أشعر بهذا الانتصار.. رفعت عينيّ للسماء؛ وقد اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أهمس لربي: أحمدك وأشكر فضلك.. ساعدني لأكمل المشوار لأجلي ولأجل أخوتي الايتام..

وسرت بين فروع الحي النائم إلا من بعض المصلين العائدين من الجامع، وقد أدوّا الفريضة.. حتى سألني أحدهم وقد كان من عمر والدي إن كنت أحتاج لمساعدة فشكرته أني بخير.. فدعا لي بالتيسير وتركني لشأني..

كانت ريح الشتاء حنونة عليّ فلم تؤذني، وأنا أسير الدروب حتى الشارع العام.. لا أحمل معي إلا حقيبة ملابس ونقود قليلة رمتها وداد في وجهي وأنا أغادر كي أجد سيارة أجرة..

سائق الأجرة كان رجلاً طيباً، وكأن الله ييسر لي بحق، بل ويرسل رسائل أن استمري، فالمشوار بدأ للتو..

*****

بعد يومين

أمير ذو الستة أعوام أصغر أخوتي.. كان رضيعاً عندما توفي أبي.. الآن التصق بي حال وصول عزّام لبيتنا الصغير رافضاً أمر أمي وعمي أن يدخل الغرفة مع باقي أخوتي.. كنت أبتسم له لأطمئنه وأنا أعرف سر عبوسه ومخاوفه.. لقد كان يخشى ان يأخذني عزّام من جديد.. ولأكون

صادقة.. أنا الأخرى كنت أشعر بنفس الخشية..

أستمع لكلمات عزّام، وأتجاهل نظراته الموجهة لي والتي لا تحيد عني بينما يكلم عمي وأمي قائلا بوعد: المصروف الشهري سيصلكم كالمعتاد وفي وقته..

ذراعي ألفها حول أمير أحضنه أكثر، بينما أسأل بسخرية باردة: هل تعلم السيدة وداد بهذا؟!

يرد عزّام وعيناه تتذكران آخر لقاء بيننا: لا داعٍ لأن تعرف.. المسألة مسألة وقت حتى أجد طريقة لأعيدك.. وسأعيدك أشرقت.. كوني على ثقة..

كان وعداً لنفسه.. وليس لي.. كان يريدني بشدة.. أكثر حتى مما توقعت.. وهذا أقلقني..

فاح النفاق والرياء من فم أمي وهي تقول: مؤكد يا ولدي.. مؤكد.. إنها زوجتك، وستبقى هكذا..

تدخلت بشراسة باردة، وأنا أقول تثبيتاً للحقائق: أنا مطلقته.. أماه.. وورقتي وصلت بالأمس إن كنتِ تذكرين..

سارع عزّام ليبرر بلهفة مفضوحة: وداد أجبرتني على

هذا، وأنت تعرفين.. لكن ما زال امامنا أشهر العدة.. وحتى لو لم أتدبر الأمر خلالها سنعقد عقد زواج جديد..

تبادلت أمي وعمي نظرات اختلطت بها الدهشة والفرحة.. الدهشة لأنهما لم يتوقعا تمسك عزّام بي، والفرحة لأنهما لم يخسرا ما كانا يجنيانه من مال..

بادر عمي لطمأنته: لا تقلق عزّام.. كل الأمور ستجري على هواك..

عندها وقفت على قدمي، وأخذت بيد أخي أمير، ثم قلت كلمتي قبل أن أتركهم: تريد دفع المال لأمي هذا شأنك.. لكن نفقتي الشرعية بمعزل عن هذا، وأستلمها بنفسي..

تمتم عزّام: حاضر

لأغادر الجلسة المقيتة، وأنا أكاد اختنق من كل هذا.. كأننا في مزاد.. بينما ألمح نظرات عمي لعزّام، وقد زادت دهشته من طليقي وهو يقول لي (حاضر) بنبرة استرضاء لم يتعود عليها من عزّام نحوي..

أجل.. كان غريباً الأمر حتى بالنسبة إلي.. أظن عزّام كبر! صحيح هو في الثالثة والأربعين، لكن حياته الماجنة

أخذت منه كما أعطته.. ومع دخول وداد في حياته على هذا النحو المتسلط، وهي تمسك السكين على رقبته لتجبره على التنازل جعله يتشبث بي أكثر..

كنت أساعد أخوتي بواجباتهم المدرسية؛ بينما يعلو صوت الشجار بين عمي وأمي.. لقد كانا يتنازعان تقسيم المال الذي دفعه لهما عزّام قبل مغادرته..

طلبت من أطياف أن تغلق باب الغرفة حتى نركز بالدراسة..

عقلي مشغول بأمور كثيرة.. يجب أن ابدأ منذ صباح الغد.. يومان راحة بعد (الطلاق) كافيان..

*****

صباح اليوم التالي

بعد خروج أخوتي لمدارسهم، انتقيت سروال جينز مما أملكه ومعها بلوزة وسترة سميكة ثم ضفرت شعري للخلف بضفيرة قصيرة.. لم أضع أي شيء على وجهي يخفف من شحوبه، وبعض الآثار الباهتة من العنف الذي تعرضت لها قبل ثلاثة أيام..

كنت بفخورة بهذه الآثار.. إنها آثار معركة انتصرت فيها، وما زالت الحرب طويلة الأمد أمامي.. رمقتني أمي بنظرة مستهجنة وهي تراني مستعدة للخروج لتتساءل ببعض الحدة: إلى أين تخرجين؟

لم أنظر نحوها وأنا أصب لنفسي بعض الشاي في قدح زجاجي صغير أرتشف منه ثم أرد: أبحث عن عمل..

تخصر أمي وسط المطبخ الصغير الضيق لتمسكني من ذراعي بخشونة وتحاول إهانتي بالقول الساخر الحاد: عمل؟! أي عمل يا غبية، وأنت لا تملكين أي مؤهلات؟

بهدوء شديد ارتشفت ما تبقى من الشاي، ثم وضعت القدح جانباً، وبنفس الهدوء أبعدت أصابعها عن ذراعي، وأنا أقول لها بتحذير بارد: لن أسمح لك بإهانتي أبدا أمي.. صدقيني ستخسرين الكثير إن دفعتني لأترك البيت..

ثم نظرت في عينيها، فلم يكن فيهما إلا الخوف على خسارتها للمال.. ما زال الأمر يؤلم.. أنها لن تبالي إن تهت وسط الوحوش، لكنها ستبالي كثيراً إن خسرت دعم عزّام.. ترققت نبرتها بشكل منفر، وهي تحاول استخدام نغمة (الأمومة): يا ابنتي أنا قلقة عليك.. زوجك لن يرضى..

ابتعدت عنها وأنا أواصل الرد بنفس النبرة الباردة: إنه طليقي، وليس زوجي!

لحقت بي إلى باب البيت وهي تحاول ثنيي: أشرقت! لا تلعبي بالنار.. نحن لا نملك مصدراً للعيش إلا عزّام.. ماذا عساي أقول إذا جاء اليوم وسأل عنك.. لن يوافق على عملك أبدا..

بابتسامة ثلجية قلت لها وأنا أعلق الحقيبة على كتفي: لا تقلقي.. لن تري وجهه إلا بعد مدة.. هو أيضًا يخشى على مصدر عيشه مثلك بالضبط..

ثم فتحت الباب وأنا أضيف: كما أني واثقة إن حصل في أي وقت وسأل عني ستجدين رداً مرضيا له أمي.. كأن تقولي له إني مجروحة القلب وخرجت لأستنشق بعض الهواء كي أنسى رميه لي إلى الشارع مع صلاة الفجر..

عندها أمسكتني أمي من يدي التي توجعني وهي تقول بجدية: أخوتك صغار وبحاجة للمصاريف يا أشرقت.. فكري بهذا وأنت تفلتين عزّام من يدك..

رددت أواجهها بالواقع الذي لا تدركه هي: صدقيني أمي عزّام لم يعد باليد.. إنها مسألة وقت، ويجب أن نبحث عن البديل..

عبست أمي في وجهي وهي تتساءل بقسوة: وهل عملك باليد؟ أم تظنين فتاة مثلك دون حتى شهادة ثانوية ستجد عملاً يُعيلنا جميعاً؟

كنت أعرف أنها محقة في هذا.. لكن الأمر انتهى، والواقع بمرارته فرض نفسه..

قلت لها وأنا أغادر: سأظل أبحث حتى الموت.. أمي!..

*****

لساعات كنت أجوب الشوارع، أخرج من محل ألبسة لأدخل في دكان قرطاسية.. أسال في صيدلية، وأبحث في محل لعب الأطفال.. من شارع تجاري لآخر..

لم أترك أي باب للرزق دون أن أطرقه.. أخذت تمطر فاحتميت تحت مظلة خارجية لإحدى المطاعم.. كان الجوع يقتلني لكن جيبي مثقوب كما يقال.. لم أملك حتى ثمن كوب عصير..

وبينما أنا واقفة هكذا أنتظر بصبر توقف زخات المطر لمحت عيناي زيد يقود سيارته الصغيرة على الجانب المعاكس للشارع التجاري.. شعرت وكأني لا أعرفه حتى

وأنا أميز شكله.. في تلك اللحظة التقت عيوننا فأصابته الصدمة بشكل واضح ثم بلهفة واضحة أخذ يلوح لي كي آتيه؛ لكني رددت الدعوة بأن هرولت مبتعدة والمطر يهطل فوق رأسي.. لم أكن أهرب منه، لكني لم أكن أريده.. لا أريد أن أراه أو أكلمه.. هو وعزّام في كفة واحدة عندي.. مهما كان لكم رأيا مخالفاً..

كنت أسعى بخطواتي الواسعة تحت المطر كي أخفي آثاري عن زيد وأنا أخمن أنه سيلف بالسيارة كي يبحث عني.. ودون تفكير دخلت في أول مبنى لأقف هناك أدعي أني أقرأ اللافتات التي تشير للمكاتب والعيادات في كل طابق..

فجأة نسيت كل شيء واسم (شركة الشاهين للحاسوب) يوقظ ذاكرتي..

لا أعلم أي شيطان أنساني هذا الرجل الضخم والرضيع القرد على أريكة مكتبه!

قدماي دون تردد كانتا ترتقيان درجات السلم للطابق الثالث.. العزم والإصرار اللذان حملتهما اليوم جعلاني أتمتع بالثقة كي أذكر هذا الرجل بوعده لي..

*****

كان باب المكتب مفتوحاً للزبائن بالطبع.. فدخلت لكني لم أجد أحدا.. تقدمت ببعض التوجس دون أن أفقد إصراري وأنا أتعرف على المكان كأني زرته مراراً.. وصلت إلى مكتب شاهين كما أذكره، فتنفست بارتياح وأنا أراه هناك.. جالساً خلف مكتبه والأوراق مبعثرة من حوله.. شعره منكوش وتعابير وجهه الذي رفعه إليّ حال دخولي حملت تعبيراً أقرب لتعابير وجه أخي أمير عندما يكون مرتبكاً وبحاجة لمساعدة..

ألقيت التحية، وأنا أتقدم وسط مكتبه وأقول: مرحباً سيد شاهين.. هل تذكرني؟

فاجأني بالرد العجيب: جئتِ في وقتك.. تعالي وساعديني!

أعترف لم أستوعب رده.. كان أمراً جديدا عليّ، واحتجت لوقت ليس بالقصير حتى أستوعب كائنا إنسانياً اسمه شاهين..

لكني في تلك اللحظة اكتفيت بالاستدراك: عفواً؟!

فيلوح لي بيده يدعوني للاقتراب على عجالى وهو يثرثر كمن يعيش أزمة يحتاج أن يعبر عنها: يجب أن أجد

أوراقاً مهمة وسط هذه الفوضى قبل ذهابي لعقد صفقة.. كل الأنذال في المكتب خرجوا جميعاً للغداء، وتركوني لوحدي.. لقد تهت دون سمارا.. قردها يعاني بعض الحمى.. وأنا أعاني حمى الضياع هنا..

لم أهتم لغرابته ولم أفكر مرتين.. كانت فرصة التقطتها وتشبثت بها بكلتا يدي وأسناني..

تقدمت منه وأنا على أتم الاستعداد للبدء: كيف أساعدك؟!..

*****

البوح السادس

مضت بضعة أسابيع، وحل أول الربيع، وأنا أعمل في مكتب شاهين..

فترة انقلبت فيها حياتي تماماً.. من الخمول والركود القسري بين أربعة جدران، إلى حركة دؤوب لا تتوقف، منذ ساعات الصباح الأولى، وحتى الثامنة مساء..

الأجر قليل، والعمل كثير، لكني كنت راضية؛ بل أطلب المزيد من المهام.. مهمتي الأساسية هي تنظيف المكتب كل يوم نهاية العمل.. وفي الصباح مهمتي محصورة بالمطبخ.. أعد الشاي والقهوة لكل من يطلبها.. ثم تطور الأمر لأستخدم مهاراتي في الطبخ.. الفرن الصغير مكّنني من صناعة المخبوزات والكيك.. فأصبحت ساعتي الأخيرة في المكتب بعد مغادرة الجميع هي لإعداد مخبوزات اليوم التالي قبل أن أنظف وألّمع.. فأترك المكتب برائحة النظافة الفواحة بعطور الأزهار، وأما المخبوزات فمغلفة بعناية في المطبخ، تنتظرهم في الغد..

خطة العمل هذه أنا التي اقترحتها عندما أصبح شاهين يطلب مخبوزاتي يومياً؛ فاعترضت سمارا على رائحة المكتب

التي لا تناسب مكتب حاسوب أنيق.. فوجدت الحل المُرضي لكل الأطراف..

ولم يكن هذا كل شيء.. فأنا أرتب مكتب شاهين بنفسي، وألملم الأوراق التي تتساقط منه باستمرار.. أصبحت أعرف كل حاجة أين يضعها، وأين يمكن قد يكون فقدها.. لم أتصور أنّ هناك إنساناً فوضوياً كشاهين.. لكني أصبحت أفهم فوضاه، وأجيد التعامل معها.. حتى أنه بات يثير غيرة سمارا بي، وكيف أنه استغنى عنها، وتخلص من توبيخها المستمر له.. ثم يمدحني مغيظاً سمارا أكثر، وهو يصف طبعي الهادئ الصامت فأنجز له أي مهمة دون أن أزعجه بالثرثرة.. وهي تكتفي أن ترمقه بنظرة توبيخ صارمة كأنها أمه وليست أخت زوجته وشريكته بالعمل، فينسحب شاهين من المواجهة مدعياً الانشغال بالعمل..

كانا ثنائيا غير عادي.. أحببتهما معاً وأحببت أحاديثهما ونقارهما الدائم.. كما أحببت الأطفال وخاصة (القرد) الذي لم أعرف اسمه حتى اللحظة..

لم ألتقِ بزوجة شاهين إلا مرتين.. فتاة لطيفة جميلة المُحيا من عمري تقريباً.. لكن شيء في داخلي كان ينكمش كلما ورد اسمها على الأفواه.. هديل..

لم أحاول حتى أن اتساءل إن كانت الصدفة العجيبة جمعتني بحبيبة زيد القديمة التي فضلت عليه رجلاً آخر.. لم أكن أريد التفكير بما مضى.. فنظري للأمام، وأهدافي لم تحقق بعد..

ما زال للعدة شهرين آخرين.. اما عزّام فاسمع اخباره من بعيد.. أموره تتعقد مع وداد، ويبدو أنها تسعى للسيطرة التامة على تجارته.. كانت تعصره وتحجّمه.. عمي كان ينقل إليّ اخباره متطوعاً.. لكن عزّام ورغم أنه لم يعاود الزيارة ولم أره مرة أخرى؛ إلا أنه لم ينسَ إرسال نفقتي الشهرية في الموعد المحدد، فوصلتني بالأمس في الصباح الباكر داخل ظرف مغلق يحمله رجل لا أعرفه، لكنه طلب تسليمه لي شخصيا.. لحسن الحظ أن الرجل جاء قبل خروجي للعمل؛ فلن أجازف الآن بأن يصل عزّام ما نخفيه عنه بحرص..

لقد هددت عمي إن فضح أمر عملي أمام عزّام؛ فإني سأقلب الطاولة عليهم جميعاً، وأذهب لوداد بنفسي، وأخبرها بما اتفق عليه عزّام مع عمي وأمي.. فأصبح كلاهما حليفين لي يجيدان الكذب لأجلي إذا اتصل عزّام أحياناً عبر الهاتف ليسأل عني..

نظرت للهاتف النقّال في يدي، وأنا أشعر بالفخر ونوع من الانتقام.. لقد كان أول مبلغ أصرفه من النفقة

الزوجية.. وكأني أسخر من عزّام فأشتري بماله ما كان يحرمني منه كسجّان وليس كزوج.. حقاً أنى أشمت به.. يستحق ما تفعله به وداد وقد كسرت شوكته..

- أعجبني هاتفك.. مبارك عليك

رفعت عيني لباهر، وأنا ابتسم بفرح حقيقي واقول: شاهين اشتراه لي.. أنا لا أفهم كثيراً بشراء هذه المور.. كل ما فعلته أعطيته المال فسلمني خلال ساعة واحدة من الزمن جهازا جديدا مع خط اتصال فعّال..

ينظر إليّ باهر ببعض الفضول؛ لكن يفرض نفسه بالسؤال الصامت المتعجب.. أستطيع تخمين استغرابه أني لا أملك هاتفاً نقالا حتى الآن، وقد باتت الهواتف الصغيرة هذه بمتناول يد الجميع..

أخفضت وجهي لأراوغ ذاك السؤال المطروح دون إجابة.. في الواقع لم يكن الفضول حولي هو كل ما أراه في عيني باهر.. لكني أتجاهل الأمر حتى بيني وبين نفسي..

هذا الشاب الخجول فيه طيبة لا حدود لها.. منذ أول يوم لعملي في المكتب وهو يقدم لي الدعم.. يعينني لتأدية بعض المهام التي يطلبها شاهين.. هو من علمني وأرشدني

لأسلوب تنظيم الأوراق وطبيعة العمل.. له قدرة بديعة على الشرح المبسط لأصعب التفاصيل فيجعلها يسيرة.. لكن مؤخرا بدأت أشعر أنه يميل إليّ، وهذا جعلني اتراجع عدة خطوات للخلف..

للمرة الأولى أرى نفسي معطوبة.. شعرت بهذا ليس مع باهر فحسب، وإنما حتى على صعيد أي علاقات إنسانية أخرى.. كشاهين وسمارا.. شعرت أني مختلفة عنهم، وكأني أحمل مرضاً لا يستحقون أخذ عدواه مني!

لم يسألني أي منهم عن ظروفي الخاصة منذ أن قدمني شاهين قبل شهر كموظفة جديدة في المكتب.. لكني أحدثهم جميعاً وطوال الوقت عن أخوتي الصغار، وولعي الكبير بهم..

- باهر.. ماذا تفعل بالمطبخ وزبونك وصل منذ دقائق؟

مع نداء سمارا تحرك باهر على عجل تاركاً إياها معي.. لتتقدم سمارا بنظرتها العميقة إليّ والتي تنبهت لها منذ يومي الأول.. سألتني: هل أنت مرتاحة بالعمل معنا يا أشرقت؟

كانت المرة الأولى التي تسألني هذا السؤال فابتسمت بصدق وأنا أطوي كمّي بلوزتي القطنية قائلة: كل الراحة والسعادة.. هل تحبين أن أعد لك فنجان قهوة؟

ردت لي الابتسامة وهي تطلب بلطف: بل شكولاتة حارة رجاء.. هذا إن ترك شاهين منها شيئًا..

ضحكتُ بخلو بال لحظيّ؛ بينما سمارا تجلس على الكرسي الذي أجلس عليه في العادة.. ضغطت زر غلي الماء في الإبريق الكهربائي وأنا أبحث عن علبة مسحوق الشكولاتة..

سألتني مجددا: من أين لك حذاء الرياضة هذا؟

رددت وأنا ألتفت لها: اشتريته من سوق الملابس المستعملة.. البائع قال لي إنها ماركة لأصلية.. لكني لا أهتم إن كان ماركة أو لا.. ما يهمني أنه مريح للغاية، وسعره يناسب إمكانياتي..

كنت أعد لها ما طلبت، وهي تعلق بثرثرة نسائية: أحب طريقتك العملية في اختيار ما يناسب مظهرك.. تبدين حلوة للغاية بهذا الجينز والبلوزة والضفيرتين القصيرتين.. كأنك ابنة السابعة عشرة لا أكثر.. خاصة بنحافتك هذه.. في الواقع أحسدك وأنا زاد وزني كثيراً منذ حملي بالقرد..

كنت سأرد عليها بمزحة؛ وأنا أخلط سائل الشكولاتة بالملعقة الصغيرة عندما أضافت سمارا بنبرة مختلفة: هيئتك

هذه مختلفة تماماً عن هيئتك عندما زرتنا للمرة الأولى.. قبل ثلاثة أشهر أظن.. بل ربما أقل من هذا أليس كذلك؟

استدرت بهدوء، وبابتسامة لطيفة رسمتها بعناية رددت عليها، وأنا أنظر في عينيها: أذكر أنه كان منتصف الشتاء..

أخذت الشراب الساخن من يدي، وهي تمتم بالشكر، فتركتها لتشربه ويبدو أنها لسبب ما قررت البقاء بصحبتي في المطبخ لفترة أطول.. انشغلت عنها بالتنظيف ومسح الخزانات ثم الطاولة الصغيرة التي تجلس سمارا على الكرسي جوارها عندما سألتني بطريقة مباشرة: هل أنت متزوجة؟

توقفت يدي عن المسح، ثم قررت المواجهة، وأنا أنظر إليها، وأسأل بهدوء: هل ستغير الإجابة شيئا؟

ردت باختصار: ستغير الكثير..

عقلي رغماً عني أخذ بعض الوقت ليستعد لإعطاء إجابة.. سمارا أهم شخص في المكتب.. أهم من شاهين نفسه.. وأنا أحتاج أن تكون بجانبي، وألّا تراني مصدراً لأي متاعب.. هذه الفرصة بالعمل لن تتكرر لي.. وحياتي علمتني أن أتشبث بالفرص بكل قوتي.. فاجأتني سمارا بكلام لم يخطر على بالي: عندما ظهرتِ مجددا للمرة الثانية

شاهين لم يتردد بتوظيفك.. لكني لا أعوّل دوماً على صحة قراراته مع النساء تحديداً لأنها تكون عاطفية..

شعرت للحظة باضطراب شديد.. حتى إنّ أُذنيّ كانتا تطنان.. لم أحسب حساب (ما ظننت) سمارا تشير إليه.. لم أفكر للحظة أن شاهين يمكن أن.. لا تقلقوا سمارا قطعت حبل اضطرابي الأحمق، وظنوني الساذجة لتوضح لي بابتسامة عريضة: لا تخافي هكذا يا أشرقت.. آسفة إن خانني التعبير وأثرت اضطرابك.. شاهين رجل بكل معنى الكلمة، وهو يعشق أختي.. لكنه ضعيف ومُجازف بتهور أمام كل امرأة تناديه لمساعدتها..

شعرت بالحرارة في كل وجهي، وأنا أرد باضطراب من نوع آخر: أنا لم أناده..

أمالت سمارا رأسها، لتقول بصوت خفيض لكن واضح النبرات تماماً لأذني وإدراك عقلي: لا تحتاجين لقولها.. لقد عرفناها من اللقاء الأول..

توترت وأنا أسأل: عرفتم ماذا؟

ردت وعيناها تتفحصاني: عرفنا أمرين.. الأول أنك متزوجة من الحلقة في بنصرك الأيسر.. حلقة غير موجودة الآن..

كنت أسجل ملاحظاتها عني بتركيز كبير؛ حتى أعرف مقدار ما تعرفه وتخمنه فأسأل بهدوء محاولة السيطرة على توتري: والأمر الثاني؟

لمعة حنان أطلت من عينيها مستني في قلبي وهي تقول: أنك كنت تتعرضين لسوء معاملة، وعنف منزلي واضحة الأثر عليك..

كنت أقاوم تأثري لأنها لاحظت كل هذا عني من لقاء عابر؛ بينما أحاول التصرف بطريقة عملية متفهمة فأسألها: هل أنت قلقة أن أتسبب لكم بالمشاكل؟ هل تطلبين مني الرحيل؟

تغيرت تعابيرها تماماً وبدت جادة أكثر ودفاعية وهي ترد: عندما تعرفيننا أكثر ستفهمين أننا لا نغلق بابنا بوجه أحد قط.. ولن نتخلى عنك مهما حصل، ومهما كلفنا الأمر من خسائر..

ردها أفحمني! نظرت إليها، ولا أصدق أن هناك أناس مثلها على سطح هذا الكوكب.. هي وشاهين وحتى باهر يتصرفون بطريقة لم آلفها مع نوعية البشر الذين تعاملت معهم في حياتي.. يصعب عليّ تصديق هذا ببساطة.. وجدت السؤال يخرج من فمي قبل أن أوقفه: لماذا تفعلون

هذا؟!

ردت بمزحة: إنها سياستنا الخاصة في الشركة..

أنظر إليها وما زلت أبحث عن قدرة لدي للتصديق.. للإيمان.. لكن شيء في داخلي يمنعني الثقة التامة بالبشر.. ثم أضافت سمارا وهي تعود لأسلوبها الجاد المباشر: لكن في المقابل نحتاج أن نعرف ما نواجهه حتى لا نتفاجأ..

عندها أحسست بالمسؤولية، وأني مدينة لأهل هذا المكتب؛ الذين رضوا منحي فرصة للعيش من عرق جبيني بأن يعرفوا بعض ظروفي.. أخذت نفساً عميقاً وزفرته ببطء كي أصفي ذهني قبل أن أمنحها الاجابة: أنا كنت متزوجة..

باختصار سألتني: مطلقة أم أرملة؟

رددت وأنا أنظر إليها مباشرة: مطلقة في فترة العدة..

فاجأتني بابتسامة حلوة تشع قوة وهي تعلق: كنت سأحزن لو قلتِ أرملة..

للحظة لم أفهم فتساءلت: لماذا؟

ردت سمارا بنظرة امرأة شديدة البأس: يسعدني دوماً أن أرى امرأة تجد القوة لتتخلص بنفسها من رجل حقير ابتُليت به..

كانت أول انسانة على الإطلاق تشاركني فخري بما فعلت.. حتى وهي لا تعرف أي شيء، لكن جعلتني أشعر أني قوية بحق.. دمعت عيناي رغم إرادتي، فأبعدت نظراتي عنها، ثم بحتُ لها بأمر ظننت أني سأحتفظ به لنفسي لآخر العمر، وآخذه معي إلى قبري: لو حكيت لك الحكاية من الخارج ستظنين أني من تعرضت للنبذ بعد أن تزوج عليّ أخرى التي أجبرته على تطليقي، كما أجبرتني أن أُغادر مع ظلام صلاة الفجر أجُرُّ حقيبتي خلفي..

شعرت بيد سمارا فوق يدي التي ما زالت تمسك بالفوطة فوق الطاولة لتقول لي: أحب الداخل أكثر.. يكون أوسع وأغنى وأصدق..

عيناي تحدقان بالجدار أمامي، وأنا أسمع كلمات سمارا، وأشعر بمؤازرتها فوجدتني أرد: الداخل تحمل جدرانه كثيراً من البوح.. إنها جدراني الخاصة التي سجلت حكايتي بتفاصيلها..

قالت سمارا: كل إنسان له جدرانه التي تُخفيه، وتشهد

بوْحه يا أشرقت.. أنت لست وحدك في هذا..

جملة سمارا حفرت في وجداني.. جملة وجدت فيها مؤازرة حقيقية.. دعمًا معنويًّا.. أنا لست وحدي..

وقفت سمارا على قدميها أخيراً، وهي تشكرني مجدداً على شراب الشكولاتة ثم تقدمت من حوض غسيل الصحون لتنظف كوبها بنفسها وهي تضيف: أحتاج هويتك الشخصية كي أسجل بياناتك.. لا ينفع أسلوب شاهين بالتوظيف هكذا..

شعرت بالضيق وأنا أصارحها القول: ما زال مكتوباً فيها أني.. متزوجة من عزّام.. وأنا لا أريد ذكر اسمه نهائيا في أي خطوة أخطوها في حياتي..

طمأنتني سمارا بالقول: لا بأس.. سنثبت اسمك، وتاريخ مولدك، ورقم الهوية لا أكثر..

ثم نظرت إليّ للحظة قبل أن تسأل: هل أنت قلقة من عزّام؟

رددت وأنا أعبر عن أسوأ مخاوفي: أنتظر نهاية فترة العدة بفارغ الصبر.. أخشى ما أخشاه أن يُعيدني لذمته.. رغم أن زوجته تحكمه بيد من حديد..

لتعاود سمارا بثّ الطمأنينة: لا تقلقي.. حتى إن حصل هذا لا سمح الله سأساعدك لرفع قضية.. أعرف صديقة ستساعدنا بإيجاد محامٍ جيد..

سرحت دون شعوري، وأنا أفكر بمخاوفي القائمة حول عزّام، وكيف يجب أن أتحضر لأسوأ الاحتمالات، بينما سمارا تتحرك نحو باب المطبخ، فتلتفت إليّ وتسأل: سؤال أخير.. هل عزّام يعرف أنك تعملين هنا؟

جاء ردي قوياً بعض الشيء: لا يعرف أني أعمل على الإطلاق.. ولا أعرف كيف ستكون ردة فعله إن وصله الخبر.. إنه يدفع لي نفقة على أمل أن يُبقيني مربوطة به معتمدة عليه.. ليته ينساني ويمحوني من حياته.. بل ليتني أفقد الذاكرة وأنسى السنوات السبع التي عرفته فيها..

أمسكت سمارا بحافة الباب لتعطيني نصيحة أخيرة قبل أن تتركني أفكر فيها: نسيان الماضي صعب المنال يا أشرقت.. لكن مواجهته، وتجاوزه، والانتصار عليه بحاضر ومستقبل أفضل؛ ليس بصعبٍ على روح مثابرة مثلك.. الأمر مَنُوط بك وحدك..

*****

بما أني أصبحت مسؤولة عن فقرة تجهيز المخبوزات؛ فأخذت على عاتقي شراء ما يلزم، وقد زادت الطلبات؛ حتى إن سمارا باتت تطلب كمية لبيتها.. خرجت عند الظهيرة من الشركة، وسرت لمسافة طويلة في الشارع التجاري حتى وصلت إلى محل أسواق كبير للأغذية والحاجيات المنزلية.. كنت أنظر للقائمة التي سجلتها على هاتفي وأنا أشعر بالفخر.. لا أصدق حتى اللحظة أني امتلك هاتفاً كهذا..

وضعت كيس دقيق، وكيس سكر في سلة التسوق، عندما سمعت صوت.. زيد!

عفوياً التفت بحدة فرأيته على مسافة قريبة يسأل أحد العاملين هناك مكان الأجبان.. لم أسمع الرد، وأنا أعاود الاستدارة لأحثّ خطواتي، وابتعد قبل أن يلمحني.. لكني كنت مخطئة.. لأن زيدًا رآني بالفعل، وأخذ يلحق بي، وهو يناديني: أشرقت.. توقفي..

لم أتوقف.. كأني في كابوس آأبى الاعتراف بوجوده.. حتى تجسد الكابوس أمامي؛ وزيد يقطع عليّ الطريق، ويقف بمواجهتي.. كان لديه الجرأة ليفعل..

رفعت نظراتي إليه، ولم يهمني التغيير الذي أراه واضحا على وجهه.. بدا واضحاً أنه يمر بفترة عصيبة.. كان أكثر

نحولاً، وأقل بريقاً مما أذكر.. ورغم هذا لم أهتم.. لم يتحرك في داخلي شيء إلا شعور بالنفور.. أني أريد إزاحته من أمامي.. فنطقتها وأنا آمره بالقول: ابتعد عن طريقي..

عيناه المتعبتان فاضتا بالاشتياق، وهما تمران على ملامح وجهي ثم همس: تبدين بأفضل حال.. وجهك مضيء حلو كالقمر.. حتى ملابسك تغيرت.. تبدين صغيرة للغاية.. كأنك ابنة مدرسة ثانوية..

ليأخذ نفسا واحداً قبل أن يضيف بسؤال ملهوف: هل.. هل تطلقتِ حقاً؟

لم أتأثر بالغزل الذي سبق سؤاله، وكل ما أردت أن أقول له اللحظة (أمر لا يعنيك.. أغرب عن وجهي).. لكن في داخلي ثارت رغبة شيطانية أن يعرف أني فعلتها دون مساعدته.. أني تطلقت دون شفقته، ومعونة أمه المحامية..

ولذلك جاء ردي هادئاً بارداً: نعم.. وأنا بفترة عِدّة.. أفسح لي الطريق لأمضي..

حاولت تجاوزه، لكنه يراوغني بجسده، وهو يفرد ذراعيه ليمنعني الهرب؛ بينما يتوسل بالهمس: كلميني أشرقت.. تعالي لنجلس في إحدى المقاهي القريبة من هنا..

فجأة رنّ هاتفي، فأخرجته من حقيبتي، وكانت سمارا تتعجلني العودة كي أساعد شاهين بترتيب بعض الأوراق المهمة فرددت: نعم لن أتأخر.. أنا في طريق العودة..

عندما أغلقت الهاتف وأعدته لحقيبتي كان زيد ينظر إليّ ببعض الدهشة وكأنه يستوعب ببطء التغييرات الكثيرة التي حصلت لي: أصبح لديك هاتفاً أيضاً!

فأرد ساخرة، وأنا أحاول تجاوزه من جديد: ومن نفقتي الزوجية.. هل ترى المفارقة؟!

تجرأ وأمسك ذراعي بأصابعه تلتف بتشبث، ليهمس بالقول: ظللت لثلاثة أيام أقبع عدة ساعات عند سياج الباحة الخلفية..

ثم مد يده لجيبه وأخرج سلسالاً ذهبياً أعرفه، وقد تعوج وتشوه، بينما يضيف زيد بنفس النبرة: أحملها معي كل يوم منذ فراقنا.. على أمل أراك ولو صدفة كما حصل الآن..

أصابعه تلامس ذراعي وأنا في وادٍ آخر تماماً! شعرت بالسخرية لفكرة غريبة طرأت بذهني فقلتها له: هل تعلم للمرة الأولى أتنبه لأمر صغير لكن يحمل معنى كبير جدا.. دوماً لقاءاتنا كانت من الباحة الخلفية.. كانت إشارة

واضحة، وأنا بغباء لم أفهمها.. ما يأتي في الظلام ومن الخلف هو محض سراب ولن يكون حقيقياً.. الحقيقي هو ما يأتي من الأمام، وفي ضوء الشمس وأمام كل الناس..

تشنجت أصابعه التي كانت قبل لحظة تلامسني برقة بينما أخلص ذراعي وأنا أضيف باشمئزاز حقيقي: ارمِ هذه السلسلة؛ فقد تشوهت ولن تعود هي نفسها من جديد مهما حاولت إصلاحها..

نصف خطوة تحركت عندما قالها بصوت مبحوح: أنا ما زلت أُحبك..

فنظرت في عينيه؛ عسى أن يصدقها وأنا أقولها: وأنا لم أعد..

غروره، أو ربما رغبته، أو ربما حتى قلبه جعله ينكرها عليّ: أنت كاذبة..

عندها واجهته بالحقيقة المجردة التي يمكن أن تجمعنا: ما الذي سيفرق يا زيد إن كنت كاذبة ام صادقة؟ ما الذي سيفرق؟ هل ما زال كل همك أن تعاشرني؟ أنت تشتهي هذا حتى الآن أليس كذلك؟ خاصة ولم يعد هناك (زوج) في الصورة.. أتخيل أنك للحظة كنت تفكر بالمكان الذي سنلتقي به لـ.. نعبّر عن الهيام والشوق!

يعقد حاجبيه، وغضبه يتصاعد؛ وهو يعترض على كلماتي قائلا: ما تقولينه رخيصاً وبشعاً..

شمخت بذقني، وأنا أؤيد قائلة: أنت محق.. وهذا ما كان بيننا.. رخيص وبشع.. حتى لو أحببنا بعضنا.. سيظل.. رخيصاً وبشعاً.. ليس كل أنواع الحب طاهرة..

ثم تركته ومضيت، وزيد لم يحاول اللحاق بي.. لكن الحقيقة هذا ما أرادني أن أعتقده.. ليحقق غاية في نفسه.. إنه لم ييأس..

*****

مساء

أوصاني شاهين وهو يغادر مرهقاً: اقفلي الباب بالمفتاح حال مغادرتنا.. لا تنسي.. لا نريد مريضين نفسيين يظنونكَ بانتظارهم..

لم أملك إلا أن أضحك.. عِشرة شاهين علمتني كم هي ثمينة الضحكات.. مهما نمر بظروف صعبة؛ فهذا لا يعني أننا نبخل على أنفسنا بالضحك..

كنت سعيدة للغاية فخورة حد السماء؛ لأنها المرة الأولى التي يعتمد فيها شاهين علي، ويأتمنني على الشركة بإعطائي المفاتيح لأكون مسؤولة عن الإغلاق.. كان دائما هو آخر المغادرين، فينتظرني حتى أتمّ عملي اليوم فنخرج معاً ويطمئن لصعودي الحافلة قبل مغادرته لبيته..

أخذ شاهين يدلك جبينه وهو يتذمر كالأطفال: هذا الصداع اللعين لم يفارقني منذ الصباح.. قلت لسمارا أن لا ترسلني في ذاك المشوار المزعج، لكنها لا تفهم أنى لم أكن بخير.. أظن حساسية الربيع تهاجمني بشراسة.. ليتها تهاجم حمراء الشعر تلك التي ابتليت بها.. كأنها أمي التي لم تنجبني ولا تنساني! انظري إليها وقت المغادرة أول من تتركنا، وتخلع رداء الأم الإجبارية!

انفجرتُ ضاحكة هذه المرة؛ بينما باهر ينضم إلينا، يداري عني نظراته، وهو يقف جوار شاهين، ويكتفي أن يعرض المساعدة قائلا: أستطيع البقاء حتى تنهي عملك يا أشرقت..

فنظرت إليهما معاً وأنا أشعر حقاً بالتأثر.. حتى باهر رغم ما أشعره منه نحوي إلا إني بتّ أعرفه.. كما أعرفهم جميعاً هنا.. لو كانت أي فتاة أو امرأة مكاني لكان عرض المثل لحمايتها أو الاطمئنان عليها..

شكرتهما وأنا أقول بثقة: شكرا حقاً لاهتمامكما.. لكن لا تقلقا عليّ.. الشارع مزدحم بالناس حتى منتصف الليل، وبعض المكاتب والعيادات في المبنى تظل مفتوحة حتى التاسعة..

وعلى هذا ودّعاني وغادرا، بينما يرن هاتفي لأركض مهرولة للاستجابة.. فانتعشت روحي أكثر وأنا أكلم أخوتي الذين تجمعوا حول هاتف أمي في خفية عنها واتصلوا بي ضاحكين يشاركونني شقاوتهم..

أغلقت الهاتف معهم وعدت لعملي كي أُنهيه.. أتممت المخبوزات، وغلفتها كالعادة، ثم بدأت التنظيف.. كنت للتو أنهيت تنظيف الموقد الصغير، وبدأت أمسح الأرضية عندما أجفلت بقوة وأنا أشعر بمن يقف عند باب المطبخ..

يقف زيد كالتمثال مصعوقاً محدقا بالماسحة ذات الذراع الخشبي الطويل التي أمسك بها.. الأجفال سرعان ما تلاشى ليحل الغضب وأنا أهدر فيه: كيف دخلت إلى هنا؟!

تمتم وعيناه ما زالتا على تلك الماسحة، وهو يرد: الباب كان مفتوحاً فدخلت..

أسندت الماسحة للجدار، بينما أتشكك بالتساؤل: هل يعقل أني نسيت إقفاله؟!

فتذكرت مكالمة أخوتي، وعلمت أني سهوت عن إقفال الباب بسببها، بينما بدا زيد بعيدا عن تساؤلاتي وهو يقيّمني بنظراته المتمعنة كأنه يحاول فهم الأحداث المستجدة في حياتي، وكيف وصلت لشركة شاهين ليقول معبراً عن أفكاره التي تجول برأسه: منذ ساعات أنتظر خروجك.. غادر جميع العاملين في المكتب، وأنت لم تفعلي..

ثم يصمت للحظة، وعيناه الخضراوان تشعان بالرفض، وهو يتساءل: هل تعملين.. منظفة.. في مكتب شاهين؟!

تكتفت وأنا أرد عليه: هذا أمر لا يخصك!

فعبس بقوة وكأنه ينتفض لأجلي، لكنه في الواقع كان بطريقة ما ينتفض لأجل نفسه: لم أتخيل ابداً أن هذا عملك هنا! هذا لا يليق بك.. خاصة مع شاهين..

رأيت شيئا جديداً في عينيه، وبحدس ألقيت طعماً: لماذا لا يليق؟! ولماذا خاصة مع شاهين؟ أ لأن هديل فضلته عليك؟

تخميني أصاب الهدف وزيادة.. اتسعت عيناه وهو يقول

ببعض الارتباك: إذن أنت تعرفين..

ما زلت مكتوفة الذراعين.. أرى غيرته جلية فأواجهه بها: شككت بالأمر منذ عرفت اسمها، وأنها خريجة نفس القسم والجامعة.. لكني لم أهتم لأتأكد حتى كشفتَها بنفسك متطوعاً، وأنا أرى في عينيك الغيرة..

بدا مضطرباً غاضباً مكشوفاً للغاية، وهو يتمتم بكلمات مستهجنة: أية غيرة؟! هل جننتِ؟!

وجدت نفسي أضحك ساخرة، وأنا أمعن في إيلامه، وأرفع كفيّ أُفرد أصابعهما أمامه: في الواقع أشعر بغبائي الشديد، وأنا كنت في يوم من الأيام أشتم هديل! اليوم أبصم بأصابعي العشر هذه أنها لم تكن لتجد رجلاً أفضل من شاهين.. فلا أنت ولا غيرك تصلون ظفره..

نظر إليّ طويلا، وقد استعاد هدوءه وتجاوز غيرته.. أعترف أني تأكدت عندها وبكل وضوح إنها مجرد غيرة صبيانية.. تجاوزها زيد سريعاً ليعود إلى صلب الموضوع.. سبب مجيئه إلى هنا، ولماذا يلاحقني..

أشار بيده قائلا بحزم آمر: لملمي حاجياتك وهيا لنخرج.. أنا سأوفر لك عملا آخر أفضل من هذا بكثير.. لن تبقي دقيقة واحدة هنا..

أخفضت كفيّ، وتركتهما إلى جانبي جسدي، وهو يتكلم بتلك النبرة، وحالما انتهى رددت عليه بجدية لأجعله يفيق من الدور الذي يصدقه: هل تسمع نفسك يا زيد؟! هل تصدق أن لصوتك الجرأة كي يكون آمراً معي؟!

لكن الدور يأخذه.. دور الرجل العاطفي الذي لا يرتضي لـ(حبيبته) أقل مما يتمناه لها؛ فقال هادرا وهو يقترب مني: أشرقت لا تعاندي.. دمي فائر اللحظة! منذ أن دخلت هنا، ورأيتك تمسحين الأرضية، وأنا أود لو أحرق المكتب بما فيه..

وقف قريبا جدا مني، لكني لم أشعر بأي تهديد.. وبدلاً من هذا شعرت بالقوة والتفوق لأني لا أتأثر حقا به..

سؤال بارد غريب دار في خلدي لحظتها (هل أنا لا أتأثر بزيد، أم أني لا أتأثر في المطلق؟!).. تجاهلت السؤال، وأنا أركز بزيد، ووجوب مغادرته لأقولها له بنبرة مهددة أعنيها: أمامك عشر ثوانٍ لتغادر المكتب؛ قبل أن أتصرف معك كغريب يفرض نفسه عليّ في مكان عملي..

أشتعل غضب من نوع آخر في عينيه وهو يهتف: غريب! أنا غريب؟!

ثم فجأة أمسك جانبي ذراعي بكفيه ليضيف بنبرة نارية متحدية: فليرد عليّ جسدك أني غريب بالفعل وسأصدقه..

اللحظة التي طوقني بها زيد وهو يحشرني للحائط وشفتاه تذوقان شفتيّ بعد الفراق، هي نفس اللحظة التي شعرت بها أني فقدت إحساسي نهائيا كأنثى.. وإلى الأبد..

صدمة الاكتشاف جعلتني أستكين كلوح ثلج، وزيد يتأوه بشوق، وكفاه تضغطان بالتطلب، وهما تلامسانني بعشوائية مرتعشة..

قد تتساءلون لماذا تركته.. وأين كنت من هذا؟ ولماذا لم أدافع عن نفسي.. لكن الأمر صعب الشرح.. إنه محسوس فقط.. وزيد خارج المعادلة تماماً..

مرت لحظات بطيئة للغاية، وأنا ينتابني إحساس عجيب أني غريبة عن جسدي! أني لست موجودة فيه.. كانت روحي بعيدة.. بعيدة للغاية لا يمكن لمسها لإثارة مكامن أنوثة ولدتُ بها وحددت هويتها..

تراخت ذراعا زيد ورفع وجهه.. أنفاسه لاهثة قرب شفتيّ الميتتين ليفتح عينيه الخضراوين على نظرة صدمة وهو يحدق في عينيّ المفتوحتين.. لم أغلقهما حتى! لم يسدل ستار أجفاني في ذاك الاسترخاء الطوعي للقبلة..

همس زيد وهو غارق بصدمته: ماذا يجري لك؟!

حركت ذراعي أخيرا لأبعد زيدًا، وأنا أقول ببرود يسري طبيعياً في جسدي مسرى الدم: هذا ما (جرى) لي يا زيد.. وليس ما (يجري).. الفعل ماضٍ لكنه أثبت نفسه حاضراً ومستقبلاً..

تركني زيد أبتعد، ثم أخذ يمرر أصابعه بين خصل شعره بارتباك، ليتمتم بعدها بغضب باحثاً عن مبرر يرضيه ويقنعه: ماذا فعل بك عزّام؟! الحي تكلم أنه بعد زواجه من الأخرى طرداك هما الاثنان إلى الشارع بعد منتصف الليل.. بحثت عنك وحاولت الوصول لعنوان أهلك دون أن أثير الاقاويل حولك فلم أنجح..

ثم وجه نظراته نحوي مباشرة ليعاود نفس السؤال: ماذا فعل بك ذاك الحيوان؟! لقد كنت تضجين بالحرارة والأنوثة والإحساس المرهف المتفاعل..

أسمع كلماته فتنقلب معدتي.. فخرجت كلماتي كالسم الزعاف الذي أحاول لفظه من جوفي: أشعر بالغثيان وأنت تذكر (أدائي) العاطفي وكأنه كان لك الحق بمعرفته وتقييمه.. أشعر بالوساخة والخسّة والوضاعة كلما فكرت بـ... بـ...

موجة غثيان أقوى عاجلتني جعلتني أركض للحمام، وأنا أضع يدي على فمي.. وقد تقيأت بالفعل.. شعرت بجسدي كله ينعصر مع هذا القيء المسموم..

غسلت وجهي وأنا أنظر لشحوبه اللحظة في المرآة الصغيرة في الحمام وكم تناقض مع تورده صباح اليوم..

أيقنت أن الماضي ما هو إلا سُم.. سُم يريد الانقضاض عليّ.. لكن هيهات إن نجح!

هل فكرتم أني حامل؟ أكتم ضحكة في سري وأنا أتخيل تخميناتكم وأنتم تقرؤون.. لحسن الحظ لا يهمني اللحظة إثارة فضولكم بهذا وتأخير الإجابة.. ولذا سأخبركم أني ِ أنهيت دورتي الشهرية قبل أسبوع.. فاطمئنوا.. وتابعوا!

جففت وجهي بالمناديل الورقية، ثم فتحت باب الحمام؛ لأرى زيد ما زال يقف بانتظاري، وعلى وجهه أمارات القلق والتشوش وكثير من الاضطراب..

تلاقت نظراتنا ليبدأ هو الكلام: ما زلتِ غاضبة مني.. كل هذا لأنك شعرت مني الخذلان..

حقاً في تلك اللحظة لم تعد لدي الرغبة لإفهامه، فقلتها

في وجهه: أنت لا تفهم حقاً! أي غضب هذا الذي نتكلم عنه؟!

ثم شعرت بالتعب منه، فأشرت بيدي وأنا آمره بجدية: غادر زيد.. انسني تماماً.. اشطبني من ذاكرتك..

حاول الاقتراب، وهمَّ يبرر بلوعة: لا أستطيع تركك.. أنت لا تعرفين كم عانيت..

تجاوزته إلى الممر، ومنه أتجه نحو باب المكتب الرئيسي، وأنا أرد بصدق: ولا أريد أن أعرف..

وقفت عند الباب لأفتحه، بينما خطوات زيد تصل إليّ، وهو ما زال يحاول: كل هذا لأن ظروفي لا تسمح أن.. نتزو..ج؟

رمقته بنظرة مُشفقة، وأنا أقول له: مسكين يا زيد وأنت تجبر نفسك على نطق كلمة (نتزوج) برعب هكذا أمامي.. كأنك تخشى أني قد أتشبث بها، وأضغط عليك في طلبها، وقد أصبحت شبه حرة الآن..

وقف جواري وفي عينيه شوق حقيقي.. ربما عاطفة عميقة.. وربما حتى حب!

همس وهو لا يكف عن المحاولة: أنت تظلمينني كثيراً أشرقت.. لم أقصد يوماً أن أؤذيك.. على العكس أردت تخليصك من كل ألم وأذى وبأي ثمن..

كنت أعرف أنه لن يفهم.. هذا كان أبعد من قدرته.. لكن رددت على كلامه بالقول: أنا وحدي من أخلص نفسي.. وربي هو المعين..

ثم أشرت برأسي للباب المفتوح مضيفة: غادر مكان عملٍ أصحابه تركوه أمانة في عنقي.. كما جسدي هو أمانة الله عندي.. وما حصل منك قبل قليل إياك أن تفكر بتكراره..

ثم أخذت أضرب على صدري بانفعال، وأضيف بحرقة: هذا الجسد النحيل لن أهينه مع رجل أبداً.. ولن أوسخه مجددًا في زواج اغتصاب، أو زنا بالتراضي..

عيناه تطرفان بقلق إلى خارج المكتب، فأدركت أنه يتأكد من خلو المكان خوفاً من أن يسمع أحد هذا الحوار الخاص، ليرد على كلامي بصوت خفيض: نحن لم نرتكب الزنا يا أشرقت! لماذا تقسين هكذا على نفسك؟! لم نفعل أكثر من بعض الأحضان والقبل..

بسخرية لاذعة همست له: قل هذا لنفسك، وكرره مراراً

الليلة بين جدران غرفتك، فربما تلك الجدران ستصدقك..
تصبح على خير!..

تصلب وجهه، وبدا غاضباً، وهو يغادر بخطى واسعة لينزل أمامي درجات السلم ويغيب عن ناظري.. أغلقت الباب وتأكدت أني أقفلته بالمفتاح قبل أن أعود إلى عملي، وعزمي يتضاعف، لكن داخلي يتألم من شدة الموت الذي أشعره!

*****

البوح السابع

في اليوم التالي

أجرجر قدميّ جراً حتى أُكمل المسافة مشياً بين محطة الحافلة ومكتب شاهين.. الجو كان ربيعياً رائعاً منعشاً؛ لكن حواسي أبت الشعور بالانتعاش.. أبت الاستمتاع..

لم يكن فقط ما حصل مع زيد مساء الأمس.. لكنت احتملت الأمر.. لكن المفاجأة كانت بانتظاري، وأنا في طريق عودتي إلى الدار، أمشي بين الفروع شبه الضيقة للحي.. والمفاجأة لم تكن إلا عزّام!

مصادفة غريبة أليس كذلك؟ في يوم واحد يعترض هما الاثنان طريقي؛ كأنهما تآمرا على سلامي الروحي، الذي أبحث عنه بشق الأنفس..

لم أتنبه لوجوده حتى اقترب مني كثيراً، وقبل أن أفلت منه كان يكتم أنفاسي بيد؛ بينما ذراعه الآخر يلتف حول جسدي ليطوقني، ثم يجبر خطواتي المقاومة على مسايرة ترنح خطواته.. لقد كان سكراناً لا يشعر بنفسه! يترنح وهو يرفعني هكذا حتى خشيت أنه سيوقعنا معاً.. دوماً كان

أقوى مني بكثير.. عزّام بضخامته وخشونة طباعه وقوة جسده التي لم يتوانَ يوماً عن استخدامها معي..

لحظة داهمني شعور مرعب أنه سيغتصبني.. فأخذت أقاوم بكل ما في جسدي من قوة دون أن يتأثر هو بمقاومتي.. أخفانا عن الأعين في ظلمة زقاق أضيق لا يرتاده إلا الكلاب السائبة..

وكما حشرني زيد في جدار المكتب كان عزّام يحشرني في جدار زقاق مهجور.. يلصق جسده بي دون وعيه؛ فقد كان مخمورا حتى آخر ذرة عقل فيه.. هدأت مخاوفي قليلا، وأنا لا أرى فيه وجه المغتصب الذي أعرفه.. ثم أخذ يهذر وهو يترنح يميناً وشمالاً وجسدي يترنح معه.. آثرت الاحتمال، وألا اثير غضبه وهو بهذه الحالة، فتركته يتكلم وقد بدا أن هذا ما جاء لأجله! ويا عجبي في تلك الدقائق وسط ظلمة الزقاق تكلم عزّام عن نفسه أكثر مما تكلم خلال سبع سنوات..

لكن كل ما قاله كان كلاماً متقطعاً وهو يشكو إليّ ما تفعله وداد به.. حكى لي الكثير مما فعلته تلك المرأة الخطيرة التي تورط معها.. رغم أن كلماته كانت أشبه بأحجيّة الكلمات المتقاطعة لكني فهمت ما يكفي لأقدّر الوضع الصعب الذي هو فيه..

لقد بدا غريباً لي.. غريبا عن عزّام الطاغية المتجبر العنيف.. ليتحول إلى خانع متشكٍ مكسور! ورغم إحساسي بالشفقة والاشمئزاز بنفس الوقت؛ إلا إني كنت أفكر بنفسي أكثر.. ما زلت أخافه.. وما زال قيد حريتي في جيبه..

كان يشكو ورائحة الخمر تحطم أعصابي، وكأنها تنشط ذاكرتي، وتعيدني في عصمته من جديد! تعيدني زوجة مغتصبة وكائناً مسحوق الكرامة والهوية..

وكما فاجأني بهجومه المباغت فاجأني بتحريره لي، ثم تركني هناك ملتصقة بالجدار، أرتعد وأكتم أنفاسي حتى لا ألفت انتباهه فيعود نحوي من جديد..

لم أتحرك إلا بعد أن تأكدت من مغادرته.. فركضت مسرعة لاهثة للدار لأجد أمي بانتظاري وهي قلقة متوترة.. مؤكد لم تكن قلقة لأجلي، ولا متوترة لما قد يفعله بي عزّام.. بل كانت قلقة مما قد تخسره.

أخبرتني كيف أتاهم عزّام يترنح ومعتل المزاج يتفوه بكلمات غير مترابطة لا يُفهم منها إلا اسمي.. كما أخبرني عمي بما فهمته من كلمات عزّام غير المترابطة.. أن وداد استولت على إحدى محلاته المهمة في السوق..

إنها تُقصقص ريشه! بل تسعى لقصّ رقبته...

لحسن الحظ أنّ حالة عزّام لم تسمح له بإدراك سر غيابي عن البيت بهذا الوقت.. لخليفاي (أمي وعمي) يجيدان التغطية، وقد قررا العيش يوماً بيوم، والاستفادة القصوى حتى حصول أمر جديد أو ربما.. (عزّام جديد)..

فليحلما بهذا، لا أمانع لهما بالأحلام ما داما يحتفظان به في خيالهما وحسب.. لكن المهم أن عزّام لم يعرف من جهة بخصوص عملي، ومن جهة أخرى تأكدت أن وداد تلعب لعبة كبيرة جدا ليس فقط لتحكم سيطرتها على عزّام كزوج ولكن لتأخذ كل ما يملك..

والأغرب من كل هذا أنه يبدو مطمئنا لي أنا!

أعترف أني قضيت ليلة طويلة لم تغفل عيناي للنوم، وأنا أرزح تحت ضغط نفسي مهول، وأدعو الله أن يمر الشهران المتبقيان على خير، حتى أصبح حرة نفسي بالكامل..

قشعريرة مرت بجسدي وأنا أتذكر كل تلك الأحداث في اليوم السابق، فألف ذراعيّ حول جسدي كي أحميه من مجهول يتربص بي.. قاومت بشدة موجة غثيان وقيء شبيهة بتلك التي شعرتها البارحة مع زيد..

دخلت المبنى ألقي التحية على بعض الوجوه التي ألفتها من العاملين في المكاتب والعيادات في المبنى.. أشعرني هذا ببعض التحسن.. إنه البنيان الذي أبنيه لحياتي.. وسأموت مرتين إذا خسرته..

دخلت عبر باب الشركة عندما كان شاهين يدخل مع زبون لمكتبه؛ فوجه لي ابتسامة وغمزة من عينه ففهمت أنه يطلب مني تحضير القهوة..

أسرعت الخطى إلى المطبخ، وأنا ألقي التحايا إلى باهر وسمارا في طريقي..

*****

بعد ساعات شعرت أن طاقتي نضبت لكني أبيت الاعتراف.. دخلت للحمام أغسل وجهي حتى أنفض إحساس النعاس.. أحدق لصورتي في المرآة، وهالني التعب الواضح على وجهي.. أخذت ألامس خدي وأنا أهمس لنفسي: هل يعقل يوم عصيب واحد يفعل بك كل هذا يا أشرقت؟

- الهالات السوداء تحت عينيك مريعة.. ولم أرها بالأمس وأنا أغادر.. هل حصل شيء؟

التفت إلى سمارا، وأنا أشعر بالحرج والذنب.. تذكرت ما حصل مع زيد، وكيف دخل الشركة.. ورغم أنى لست مذنبة بالأمر لكن شعرت وكأني أسيء إليهم بطريقة ما.. أو ربما أتخوف أني قد أسبب المشاكل..

قرأت سمارا في عيني توسلاً ألا تسأل فشوحت بيدها وكأنها تقول (لا عليكِ) ثم استدارت تناديني: هيا لنشرب الشاي.. ليلتي كانت سيئة أنا الأخرى.. القرد قرر ألا ينام!

بعد دقيقة كنت أحدق في إبريق غلي الماء، وأنا أشعر برأسي يدور في حلقات كثيرة متشابكة.. فعلى أرض الواقع وبعيدا عما جرى مع عزّام وزيد فأنا ما زلت غير آمنة.. لا مادياً ولا معنوياً..

لا زال هناك قرابة الشهرين للعدة، كما إن مستقبلي مجهول؛ بينما أحفر في الصخور ولا أعرف حتى عما أبحث فيها.. التفت إلى سمارا أحاول أن أجد طريقة لأطلب نصيحتها عندما رأيتها غارقة بما تقرأ بهاتفها النقال..

سألتها بفضول: ماذا تقرئين؟

رفعت رأسها إليّ لتقول بعينين لامعتين: اقرأ إحدى

تغريدات الدكتورة فريدة.. ما أن تقرئي لها يوماً حتى يصبح أمراً حتمياً أن تقرئي لها كل يوم..

عيناها كانتا ملهمتين لي وهما تتكلمان عن تلك الطبيبة بهذا الانبهار والإعجاب والامتلاء.. لا بد أنها طبيبة بارعة لتحظى باهتمام سمارا هكذا.. سألتها بأمل وأنا أقترب منها وقد تذكرت آلام المحيض التي تنتابني بقوة: دكتورة في أي تخصص؟ نسائية؟

فردت سمارا: لا.. بل طبيبة نفسية وباحثة اجتماعية.. صديقة لي كانت تراجع عندها..

شعرت ببعض الخيبة، فدفعت سمارا بهاتفها إليّ، وقالت لي بنبرة أمر أمومي: اقرئي هذه..

فعلت ما طلبت مني؛ رغم عدم اهتمامي في الواقع، لكن شعرت بالحرج أن رفضت.. وحالما وقعت عيناي على الكلمات وقع قلبي معها:

*****

تغريدة

الحب لا يعني الجسد لكنه مرتبط به.. فالجسد هو

إحدى الادوات لا كلها.. فأجيدي استخدام كل أدواتك..

#اكتبي_قائمة_أدواتك

*****

قرأت الجملة ثلاث مرات، وفي كل مرة أجد مغزى جديداً فيها.. ضحكة سمارا أخرجتني من انغماسي بالجملة، وهي تقول لي بفكاهة: عيناك تلمعان يا فتاة!

نظرت إليها ووجدتني أطلب باستحياء: كيف أقرأ ما تكتبه هذه الدكتورة؟ ما زلت لا أجيد التعامل مع هاتفي..

بابتسامة حلوة سألتني سمارا: أتعرفين تويتر؟ إنه تطبيق تواصل اجتماعي..

رددت بحرج: أسمع عنه لكن.. لم أستخدمه من قبل..

فقالت سمارا ببشاشة: الأمر بسيط للغاية.. صدقيني إن كنتُ أنا أعرف استخدامه فمؤكد أنت ستعرفين! لا يوجد أسوأ مني في هذه الأمور، رغم عملي لسنوات في شركة حاسوب..

ثم أشارت بيدها نحو هاتفي النقال الذي أضعه جانباً على الخزانة وقالت: لدي نصف ساعة لأفتح لك حساباً، وأجعلك متابعة للدكتورة فريدة..

وقد كان..

مرت الأيام، وأصبحت لا شاغل لي في أوقات فراغي إلا القراءة على التويتر.. ثم ساعدني باهر لإنشاء حساب على الفيسبوك، ونصحني ألا أوسع الأمر عليّ أكثر من هذا، والاثنان كافيان لي دون تطبيقات أخرى إضافية..

لم أهتم للفيسبوك كثيراً.. فالتويتر أخذني لأنه العالم الذي أجد فيه الدكتورة فريدة.. كانت شخصيتها فكاهية لاذعة صادمة بكلمات مباشرة.. لا تهتم لمن يكتب لها الشتائم.. من النساء قبل الرجال!

لم أستغرب ضيقهم بها، وهي تتكلم طوال الوقت بالمحظور والمسكوت عنه والمخجول منه باسم العُرف.. لا أحد يُريد أن يعرف.. لا أحد يريد فتح (العقول) المغلقة بحقائق ثابتة، وُلِد عليها، ويريد الموت بها، حتى لو دمرت حياته بين الولادة والموت، وربما حتى ما بعد الموت.. فيموت بذنب العصيان، أو كبار الخطايا، أو الانتقام أو النقمة أو الكره للجميع.. ذنوب لا تحصى جناها بين الولادة

والموت، ولم يجد من يمد له يد الرحمة، ويرشده طريق النور، بدلا من أن يسجنه في الظلام..

لقد أشعرتني هذه المرأة أنها تقرؤني دون أن تراني.. تبتسم لي دون أن تقابلني.. تفهمني وتصبر عليّ لتنصحني دون أن أطلب..

بعض تغريداتها كانت تمسني بشكل شخصي؛ كأني كلمتها ووصفت لها وحكيت لها أدق تفاصيل حياتي.. لقد أثرت بي هذه التغريدات كأنها إضاءات أنارت جهلاً عميقاً أعانيه منذ سنوات، وتخبط في أفكار لا أجد لها صدى عند أحد.. يكفي أن أقول إني احتفظت بعدة تغريدات مدونة في هاتفي.. أعيد قراءتها قبل أن آوي إلى النوم..

التغريدة الأولى

العلاقة الحميمة بين الزوجين تحتاج أن يراعيا كلاهما إرضاء بعض، وأن لا يتعجلا النهايات دون مقدمات العطف والحنان والملاطفة والملاعبة، إن الاستعداد النفسي والتحضير العاطفي خير سبيل لبلوغ الزوجين معاً الإشباع المطلوب فيكون له أبلغ الأثر في نسج علاقات حب زوجية أقوى وأمتن من قصص العشق والغرام التي نسمعها في الحكايات والأساطير، وقد حدثنا الرسول (ص) عن هذا قائلا: «لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع

البهيمة، وليكن بينهما رسول»، قيل «وما الرسول يا رسول الله؟»، فقال: «القبلة والكلام».

#يارجلا_لا_تكن_بهيمة #أنا_امرأة_لست_بهيمة

التغريدة الثانية

إن كنتِ ممن يتعرضن للاغتصاب الزوجي أو الاستغلال الجسدي، فلا تيأسي وظلي قوية مقاومة، وابذلي كل ما تستطيعين للتخلص من هذا الوضع.. حتى لو لم تحققيه في النهاية، فيكيفكِ شرف المحاولة واستمرارية المقاومة..
#كوني_قوية

التغريدة الثالثة

إن كنتِ ممن مر بتجارب جسدية مهينة على أي وجه من أوجه الاستغلال الجنسي فلا تجزعي..
#انتِ_لستِ_وحدك.. كوني فخورة أن جسدك عاد ملكك وحدك الآن وفكري أنه كان مصاباً بالمرض، ويستعيد عافيته تدريجياً. فقط اصبري.. ولا تخافي الأعراض الجانبية.. كلها ستزول مع الزمن.. المهم إنك تريدينها أن تزول..

أغمضُ عيني ولساني يردد: أريدها أن تزول.. أريدها أن

تزول.. يا رب أريدها أن تزول..

*****

بعد أسبوعين

كانا أسبوعان خاليين من أي منغصّات.. زيد اختفى وعزّام أسمع اخباره من بعيد.. وأخباره من سيء إلى أسوأ..

كنت في المطبخ أستريح بجلسة مسترخية على الكرسي، وأنا افتح تويتر لأجد تغريدة اليوم بانتظاري..

تغريدة

حافظي على صحة جسدك، كما تبحثين عن صحة مشاعرك.. لا تنشغلي بتلبية هذا وتنسي ذاك!
#لا_تشمّتي_بنا_الأعداء

في البدء انفجرت ضاحكة للجملة الخيرة، ثم بعدها أخذت أنظر إلى جسدي وأفكر بصحته التي أهملتها، أو لم أعرها أي انتباه في حياتي.. تذكرت الأوجاع الشديدة التي باتت تزداد مع فترة الحيض.. وأعراض أخرى كنت ألاحظها ولا أقف عندها..

انقبض قلبي وضاق صدري فجأة، فأخذتني خطواتي إلى مكتب سمارا فأتململ في وقفتي وأنا أنتظر مغادرة حامد لأقحم نفسي في وقتها الضيق وأسألها بخفوت: سمارا هل تعرفين طبيبة نسائية جيدة؟

كانت تقلب في الأوراق التي أمامها وهي ترد بعفوية: نعم عزيزتي.. هي طبيبتي منذ حملي الأول.. هل تشكين من شيء؟

رددت بنفس الخفوت حتى لا يسمعني أحد وأحرج نفسي: الواقع هي شكوى قديمة من أعراض مع دورتي الشهرية، لكن الأمر يزداد سوءا.. فقلت في نفسي.. حان الوقت لأهتم بجسدي قليلاً..

ببساطة مدت يدها للهاتف وقالت بنبرة عملية: سأحجز لك معها.. لا تقلقي..

*****

آخر الأسبوع

عيادة الطبيبة النسائية

بعد انتهاء الفحص المطول ارتديت ملابسي، وخرجت من خلف الستار الأبيض لأجلس قبالة مكتب الدكتورة منار، بينما هي تسجل على الورق وتقول: المسحة التي أخذتها للرحم سأرسلها للمختبر..

كنت مضطربة للغاية، وخائفة بنفس الوقت، بينما أتساءل: هل هناك شيء خطير؟

رفعت وجهاً مبتسما وبانت بعض التجاعيد تحت عينيها وهي تطمئنني بالقول: لا تقلقي هكذا.. إنه إجراء روتيني أتبعه مع كل من تراجعني وبشكل دوري.. وواضح أنك تهملين نفسك، ومؤكد لم تجري فحصاً كهذا منذ مدة طويلة..

كنت أشعر بخجل وإحساس بالخزي وأنا أعترف: أنا لم أجرِ أي فحوص مشابهة في حياتي..

رفعت حاجبيها قليلاً، وهي تتكلم بهدوء: وصلنا بيت القصيد كما يقال بالأمثال.. هذا هو سبب تفاقم حالتك.. أنك لا تراعين صحة جسدك.. للأسف أنت مصابة بالتهابات مزمنة.. والرحم متأثر بشكل سلبي طبعا لكثرة الإجهاضات.. كيف تركتِ نفسك هكذا؟!

كنت أشعر بخفقات قلبي تتباطأ، بينما أحاول التماسك،

والسيطرة على اضطرابي، وأنا أقول لها: كانت ظروفي صعبة يا دكتورة..

بتفهم اختصرت ودخلت في صلب العلاج وهي تشرح: لا بأس سنبدأ علاجاً مكثفاً.. وأريدك أن تجري فحصًا بالأشعة فوق الصوتية لمنطقة البطن أيضًا.. أرجح أن لديك تكيسات على المبايض..

الكلمات أصابتني بالهلع.. شعرت أني تائهة تماماً وسط رعبي هذا وأنا أتمتم: تكيسات مبايض!

ببعض العبوس قالت الطبيبة: لا تخافي هكذا.. الأمر ليس بهذه الخطورة لكن هو يحتاج فقط للبدء بأسرع وقت..

كنت أحدق في وجهها، وأنا عاجزة عن السيطرة على رعبي.. كنت من الجهل إلى درجة لم أفهم تماما كل المشاكل الصحية التي تصفها الطبيبة.. سألتني الدكتورة منار فجأة: هل أستطيع السؤال إن كان هذا سبب طلاقك؟ أقصد.. الإجهاضات.. أنت مطلقة منذ شهرين كما أخبرتني.. أليس كذلك؟

تاريخ عمره سبع سنوات مر أمامي.. كل ضرب وإهانة ومعاشرة بالغصب مع عزّام حتى في فترة الحيض..

كله يتجسد أمامي بشكل بشع.. كنت أهز رأسي بلا شعور، ولساني يرد بجملة واحدة اختصرتها للطبيبة قائلة: الإجهاضات وطلاقي.. كلاهما حصلا لسبب واحد.. عنف وسوء معاملة..

تمتمت الطبيبة: واضح.. كما أمور أخرى واضحة..

أخفضت رأسي وأصابعي تتسلل إلى بطني وأنا أتذكر ثلاث أجنة حملتهم هنا وتساقطوا تباعاً كالشهب الحزينة المُغادرة المطفأة.. صوت الطبيبة أتاني متعاطفاً وهي تسألني: أخبريني يا ابنتي.. هل كنت تفقدين الأجنة لأنه يضربك؟

رددت ومتاهات مرعبة جديدة تسحبني: نعم!..

لتطرح الطبيبة سؤالا: ولم تكوني تأخذين أي موانع حمل، أليس كذلك؟

رفعت وجهي إليها أسألها وأنا أكاد لا أجد أنفاساً تملأ رئتيّ، فأسألها بصوت يشق حنجرتي: هل أُصبت بالعقم؟!

للحظات أخذت الطبيبة تنظر إليّ قبل أن ترد بنبرة طبيبة خبيرة: أنت شابة صغيرة.. لا تقلقي هكذا.. سنعالج كل شيء في حينه.. الآن يجب أن نحل مشكلة الالتهابات

المزمنة.. والأكياس إن وجدت..

لكني كنت في حالة عصبية، وقد تملكتني الفكرة لأعيد طرحها بألم مبرح: صارحيني يا دكتورة.. هل أنا عقيمة؟

كانت الطبيبة في منتهى الدقة باختيار الكلمات وهي ترد على مخاوفي بالقول: لا.. لست كذلك بشكل كامل.. هي تعقيدات تمنع حاليا.. الرحم مرهق من الإجهاضات السابقة المتكررة، والالتهابات المزمنة.. عدا التكيسات التي أشك بوجودها..

شعرت أن هذا كثير عليّ.. كثير جدا كي أكون هادئة وأفهمه وأتقبله..

بنبرة تشكك سألت الدكتورة منار: لا أريد التدخل بشؤونك يا ابنتي.. هل أنت على وشك الزواج من جديد؟ أقصد بعد العدة طبعاً.. أم إنك تفكرين ربما بالعودة لزوجك؟!

دون وعي هتفت: أموت ولا أعود له.. أنا أنتظر إتمام العدة بفارغ الصبر..

ثم خفت صوتي وتحشرج وأنا أضيف بألم: أنا لا أفكر بالزواج نهائيا.. بعد كل ما جرى لي أشعر أنه مستحيل..

لكن..

لم أجد الكلمات لأكمل.. شعرت أني مشوشة ولا أعرف ما أريد.. لكن الطبيبة فهمت وأدركت وهي تقولها عني: لكنك تخافين المستقبل.. أليس كذلك؟

شعرت بالدموع تحرق عيني كما قلبي يحترق، وأنا أسألها بتوسل: هل سأحرم أن أكون أمّاً؟

ثم تذكرت أمراً لأسارع بإخبارها اياه وكأني أدفعها دفعاً أن تعطيني الأمل: أمي.. أمي مثلي.. بعد ولادتي أجهضت ثلاث مرات.. ثم بعدها رزقت بخمسة أطفال..

تبسمت بإشفاق فحاولت مراعاة حالتي بالقول التفاؤلي: أرأيت؟ هذا مثال جيد..

وكما الفكرة توهجت في رأسي فجأة خبت فجأة لأتمتم رداً على تفاؤلها: هل.. هو حقاً؟! أمي لم تتعرض لما تعرضت له.. أبي كان رجلا محترماً لم يؤذها قط..

تنهدت الطبيبة، وبدت مرهقة للغاية، وأنا لا أشعر بها وقد غرقت في نفسي لكنها منحتني اهتمامها رغم التعب البادي على وجهها لتقولها لي بنبرة إنسانية لم تخرج كثيراً عن إطارها كطبيبة: من واقع خبرتي لخمس وعشرين عاماً

أقول لك.. الإنجاب بيد الله وحده.. مرت عليّ حالات لا تحصى لم يتمكنا من الإنجاب رغم خلوهما تماماً من أي عارض يمنع.. والعكس صحيح أيضاً.. حالات شبه ميؤوس منها، ويحصل الحمل بتوءم.. كله بيد الله فلا تقنطي هكذا..

أحدق في الطبيبة، وأنا أواجه شعوراً جديداً لم أختبره من قبل.. بل لم أظن أنه سيخطر ببالي منذ خلاصي من عزّام.. إنه شعور ساكن نائم في كل امرأة قد يستيقظ في أي وقت مطالباً بإلحاح إشباعه.. إنه شعور الأمومة..

لم أفكر فيه قبلها على الإطلاق.. لم يعنِ لي شيئا.. لم يكن ضمن أهدافي المستقبلية التي أسعى لها، لأن الزواج بحد ذاته بات مشطوباً من قائمتي وأنفر منه.. كنت أجهل أن فقدان رغبتي كأنثى لا يعني بالضرورة فقدان رغبتي كأم.. هكذا هي النعم.. لا ندرك قيمتها إلا عندما نواجه تهديد خسارتها..

*****

شعرت وأنا أغادر عيادة الطبيبة أن مشواري في الحياة أصعب من أن أحتمله.. لا زلت أذكر كيف لففت ذراعي حول رحمي كأني أحضن أطفالا سُرِقوا منه.. انتزِعوا انتزاعاً.. أطفالي..

للمرة الأولى أبكي تلك الأجنة الموءودة.. للمرة الأولى أشعر كالأمهات الثكالى.. لم يكن عزّام فقط قاتلهم.. كل من باعني ورضي وبارك البيع وسكت عنه.. كنت أسير في الشوارع وأشهق بالبكاء.. وبعض المارة ينظرون إليّ بدهشة أو تعاطف أو إشفاق.. وربما امرأة سألتني إن كنت بخير.. أو رجل مسن ناداني إن كنت بحاجة لمساعدة.. لكني لم أتوقف.. لم أستجب.. كنت «ثكلى» على أطفالي الذين ماتوا ولن أرزق بغيرهم..

عندما دخلت الدار لاحقتني نداءات أمي عن سبب بكائي؛ لكني لم أستجب كأنها غريبة كغرباء الشارع بل أشد غربة.. دخلت غرفة أخوتي الصغار، وانهرت على سرير أمير الصغير.. أخبئ وجهي في وسادته، وأبكي بحرقة.. لم أكن أشعر بهم وهم يلتفون من حولي.. وفجأة شعرت بأجسادهم تجتمع لتحاوط جسدي كستر.. هذا ما شعرته.. كانوا ستراً لجرحي.. ستراً لأمومتي التي ذُبِحت بعد انتزاع أطفالها من رحمها..

انقلبت على ظهري وبطريقة ما كنا جميعا نحاوط بعض.. وكلما اشتد الخوف في نفوسنا التصقنا ببعض أكثر، وصمتنا أكثر.. وسالت دموعنا أكثر وأكثر..

*****

اليوم التالي

انتظرت قدوم سمارا بفارغ الصبر، لكنها تأخرت واتصلت تعتذر أنها ستغيب ساعتين أو أكثر بسبب مغص ينتاب ابنتها فرح، ويجب أن تأخذها للطبيب..

لم أكن أدري ما الذي أريده من سمارا بالضبط.. هل لأنها امرأة مثلي؟ ولماذا لم أكلم شاهين، وقد سألني عن سبب حالتي الغريبة، ووجهي الشاحب، لكني تهربت منه، وسارعت للاختباء في المطبخ..

كنت خائفة.. بل تتملكني هستيرية الخوف.. فجأة لم أعد أطيق البقاء وحيدة.. أريد أن أفعل شيئا يخرجني من حالة الخوف.. رعب..

دخلت الغرفة حيث يعمل باهر.. قدماي قادتني إليه، أو ربما لأني شعرت بحدسي أنه سيقدم لي طوق نجاة..

كان بمفرده في الغرفة، وقد غادر زميله بالمكتب حامد لأمر ما، فرفع وجهه إليّ وهو ينظر إليّ من خلال نظارة طبية ليتساءل باهتمام: ما بك أشرقت؟!

تقدمت منه، وأستطيع أن أتخيل حالتي البائسة المزرية

من نظرات باهر إليّ بينما أهمس بارتجاف: أحتاج.. مساعدة..

بوجه جاد للغاية، أجاب دون تردد: قولي لي أي شيء افعله لأجلك!

كنت أقترب منه، حتى وقفت جواره، وهو يجلس على كرسيه، يرفع نظراته لي ينتظر أن أفسر.. فقلت أول ما خطر ببالي: أريد أن أتعلم!

تساءل بهدوء وتركيز: ماذا تريدين أن تتعلمي؟

كنت مشوشة للغاية.. أكاد أفقد الوعي من شدة التشوش الذي في رأسي.. فعبرت عن هذا التشوش بالقول: أي شيء.. بل كل شيء!

للحظات طويلة ظل ينظر إليّ نظرة لم أفهمها تماماً.. هل هو إشفاق، أم تفهم.. أم شيء آخر، لم أكن حتى تلك اللحظة أفهمه..

سحب كرسيا، وقال بصوت هادئ: اجلسي أشرقت..

فعلت، وأنا لا أملك ألا أن أُطيعه.. لم يكن لي أي مرسى لتخبطي مع أمواج عالية تفوق قدرتي على مواجهتها

وحدي اللحظة..

قال بعدها: حاولي أن تركزي.. هناك أمر يقلقك بشدة.. أنت مضطربة للغاية، وواضح أنك مشوشة لا تعرفين بماذا تبدئين.. خذي نفساً عميقاً وحاولي أن تفكري ما الذي تسبب لك من الأساس بهذا القلق؟ ما الذي حركه بهذه القوة فجأة.. مؤكد حصل أمراً ما بالأمس أو صباح اليوم.. كنتِ بخير عندما غادرنا الشركة.. ماذا حصل عندما غادرتِ.. هل عدت للبيت؟

أغمضت عيني، وأنا أحاول الاستماع لنصيحته.. فاسترجعت ما حصل.. لقد كانت زيارتي للطبيبة.. الموعد المتأخر الذي تحصلت لي عليه سمارا، فكنت آخر مريضة تستقبلها ليلة الأمس.. اهتاجت جروحي كلها، وأنا أتذكر كلمات الطبيبة.. خوفي من مستقبل مظلم لا إشراق فيه.. احتمالية عقمي أرعبتني.. جعلتني أشعر أن الخسارات تكالبت عليّ، ولم أعد بقادرة على حملها..

أنا كنت مرعوبة حرفياً.. أفكر ماذا سأفعل بحياتي؟ هل سأظل أنظف المكاتب وأعيش وحيدة؟ لا أدرى حقاً بماذا كنت أفكر.. أنا فقط شعرت أن حياتي كلها محطمة.. لا شهادة، ولا عملاً، ولا فرصة زواج طبيعي، ولا احتمالية أن أنعم بالأطفال.. أعلم أن الأمر يبدو مبالغ فيه لمن يقرؤه.. لكن من يعيشه مثلي بكل الظروف التي

كنت فيها كان واقعاً صاعقاً..

فتحت عيني، ومسحت دمعة هطلت على خدي، لأحاول التماسك وأن أمسك طارف خيط يسحبني، فقلت لباهر وصوتي يرتعش: اريد أن أملك وظيفة محترمة، وأصرف على نفسي.. ساعدني بالله عليك..

صمت ولم يعقب دون أن يفقد اهتمامه، بل تركني أرتب أفكاري على مهل فأضفت بعد لحظات بصوت أكثر ثباتاً، لكن كلماتي تشتت في النهاية: أنا لم أكمل مدرستي.. ولا أملك معرفة بأمور كثيرة.. أنا تائهة و.. خائفة.. خائفة كثيراً يا باهر.. خائفة على نفسي.. خائفة على أخوتي الصغار..

دموعي تهطل مدراراً، وعدت لهستيرية الخوف، وأن اواجه المستقبل القاتم، ووسط تلك الغمائم من الدموع أشرقت عيناه من خلف زجاج نظارته..

كانت المرة الأولى التي اتنبه لهما.. عينان عاديتان بنيتان.. صغيرتان بعض الشيء.. لكن ما أشرق فيهما بدا كطارف الخيط.. عيناه تشبهانه! كان رجلا عادياً غير ملفت، بل خجولا لدرجة تنسى وجوده.. لكن هذا لا يعني أنه غير موجود عندما تحتاجه..

كلماته تشرق على روحي أكثر، وهو يقول لي بابتسامة متسامحة: هدئي من روعك يا أشرقت.. أنت صغيرة لتخافي كل هذا.. ما زال أمامك فرصًا لا تحصى لتحصلي على المعرفة والخبرة.. أنا أعلم حجم المسؤولية والمخاوف التي تواجهينها.. لكنها الحياة وطبيعتها.. يجب أن نثير مخاوفنا بين فترة وأخرى كي نجدد قوانا.. وأني أراك اللحظة أقوى من أي وقت مضى، رغم مخاوفك وقلقك.. هل تعلمين لماذا أنت قوية؟ لأنك تبحثين عن النجاة، حتى وأنت تشعرين أنك غارقة لا محالة.. فتشبثي بهذا..

عندها فقط علمت لماذا حدسي أخذني لباهر.. لأن لديه القدرة على تبسيط الصعب دون أوهام.. إنه قادر على منح السلام والثقة بالنفس.. ومنذ تلك اللحظة علاقتي بباهر تغيرت.. تمر الأيام سريعاً أكاد لا أشعر بمرورها وأنا لا أكف عن القراءة.. أول الكتب التي أمدني بها باهر كانت كتباً مبسطة في الحاسوب لأتعلم.. معظم الوقت كنت لا أفهم الكثير لكني (تشبثت) بالقليل الذي فهمته، فأنطلقُ للمزيد.. باهر أوصاني أن أوسع مدارك عقلي وثقافتي أيضًا حتى أستطيع استيعاب مطالب عمل أكبر..

هو نفسه موسوعة.. أعطاني الكثير من كتبه التي يقتنيها في كل المجالات.. كتب اقتصاد.. علم نفس.. فن وأدب.. واشترى لي كتاباً لتعلم اللغة الإنجليزية للمبتدئين

لأستكمل ما درسته في المدرسة، قبل أن أتركها بوفاة أبي، وزواجي من عزّام..

ستتسألون إن حاول معي (عاطفياً) في هذه الفترة، وسأرد عليكم بالقول.. لا.. لم يحاول.. كان يعاملني كإنسانة تحتاج للمساعدة والدعم.. فقدمهما لي ببساطة.. هل ترون الأمر محبطاً؟ أتبحثون عن بعض الرومانسية وسط هذه الحكاية السوداء التي أحكيها لكم؟ ربما تنتظرون للقادم (لعلّكم) تجدون بعض الفتات؟ لن أرضي فضولكم هذه المرة.. وسأكتفي بأن أخفف عنكم بتغريدة رومانسية للدكتورة فريدة أعجبتني للغاية..

تغريدة

الحب الحقيقي يعني أحياناً أنكِ تريدين ضرب الحبيب بالمقلاة.. يجب أن يثير فيكِ هذا الانفعال المتهور لتعرفي أن الاهتمام وصل أقصاه.. #حضّري_مقلاتك #للنساء_فقط

*****

البوح الثامن

بعد أيام أخر..

تغريدة

اخلقي لنفسك حلمك الخاص.. لا تدعي أحدا غيرك يرسمه.. لا تدعي أحدا يشوهه.. أنت حرة.. طيري وحلّقي وأنت ترينه في منامك وتحققينه على مهل في صحوك.. ستنجحين.. فقط #كوني_متفائلة

ابتدأ صباحي بهذه التغريدة.. ابتسمت ببعض الرعشة الرقيقة كأني هاديت نفسي حلماً، ثم وضعت هاتفي جانباً، وبدأ نهار العمل..

لم أعد أتساءل كيف تفعلها الدكتورة فريدة وتكلمني هكذا وهي لا تعرفني ولا تعرف بوجودي على هذا الكوكب.. لكني آمنت أني لستُ وحدي.. والدكتورة فريدة تكلمني وتكلم مثيلاتي وغيرنا كثيرات..

كل يوم كنت أنتظر لحظة وصولي إلى الشركة كي يرتبط هاتفي مع شبكة الانترنت لأقرأ التغريدات الجديدة، وأمر

على مواقع أخرى للطبخ.. لم تكن لي القدرة للحصول على باقتي الخاصة من الانترنت في الهاتف، لذلك حال مغادرتي الشركة أنفصل عن العالم الافتراضي وأعيش العالم الحقيقي فقط.. وهذا أفادني كثيراً في الواقع فلا أنشغل وأنا في البيت إلا في قراءة الكتب التي يعيرني إياها باهر..

حتى أني أحياناً أحمل معي كتاباً لأقرأ فيه وأنا في الحافلة.. كنت نهمة بطريقة مخيفة وأحياناً مُرهِقة..

في الشركة ما بين العمل، وتغريدات الدكتورة فريدة وبعض الدروس المجانية هنا أو هناك في الشركة.. ساعة ألاحق باهر، وساعة أتتبع كلام سمارا، وساعة أشارك بصمت مراقبة شاهين، وهو يعمل بتركيز.. كنت كطفيلية ألتقط أي شيء أجده في طريقي، وكأني أجمعهم في حجري، وفي آخر النهار أرمي ما لا ينفعني، أو بعيدًا عن قدرتي لاستيعابه، ثم أحتفظ بالباقي.. و(الباقي) هذا ساعة يكون وفيراً مُحمّساً.. وساعة يكون شحيحاً محبطاً.. لكني.. لم أيأس..

خطوات علاجي مع الدكتورة منار تسير وفق خطتها.. وقد اتضح من الفحص الذي طلبته الطبيبة أن لدي تكيسات على المبيض الأيسر.. لم أتوقف لاجترار الألم مجددا عند تأكيد النتيجة.. كنتُ أسابق نفسي.. أسابق آلامها وأوجعاها ومخاوفها.. أسابق جهلها وقلة ثقافتها..

الدكتورة منار أيضًا ساعدتني لأتثقف حول جسدي أكثر.. أعطتني رابطاً لموقع طبي ينشر ثقافة عامة للإناث.. سيدات وآنسات..

مر اليوم بشكل طبيعي للغاية، حتى انتهى وأنا أغفو على السرير الضيق الذي يجمعني بأخي أمير، وكتاب مستقر فوق صدري، يستمع لأنفاسي المقاومة..

*****

أسبوعان وتنتهي العدة.. لا صوت ولا همس عن زيد حتى أني نسيت التفكير به ولن أقول إني نسيت وجوده.. أما عزّام فكان اللعنة في حياتي التي تطل برأسها القميء لتجد في عمي لساناً يوصل إليّ ذكره الذي لا ينقطع في بيتنا الفقير.. فكيف ينقطع وعزّام أحد أهم الموارد التي يتنازع عليها عمي وأمي وهما يقتسمانها.. أصبحا غريبين عنا، وكأن صلة الدم بيننا أنا وأخوتي من جهة، وبين أمي وعمي من الجهة الاخرى قد جفت في عروقنا، ولم تهطل أمطار الرحمة لتجدد الصلة وكأنها أرضٌ باتت بوراً..

أطياف تكبر وجسدها النحيل يخفيها لكن إلى حين.. إنها مسألة وقت.. بدأت أخشى عليها من خطط تعد بالخفاء بين عمي وأمي..

المال.. المال هو مربط الفرس.. وأنا في سباقي الهستيري لأجد موضع قدم في عالم مادي لا يعطي الفرص لاغتنام نصيب يحفظ كرامة البشر.. نفقتي الشهرية من عزّام قررت أن لا أصرف منها الا للضرورة القصوى.. لقد فتحت حساباً بنكياً بمساعدة سمارا بالطبع.. أنا من طلبته، وهي شجعتني عليه.. لم يكن لي غاية أكثر من الإحساس أني أتطور، وأدخل مجالات الحياة، لأتعلم وأفهم ما يجري حولي..

وهكذا أخفيت مالي القليل هناك من النفقة الشهرية التي ضاعفها عزّام وكأنه كلما مر شهر على العدة كان يشعر بانفلاتي منه؛ فيزيد جرعة المال وهو يظن أني لن أعيش بدونه...

كم أنا ممتنة لوداد؟! يكفي أنها أبعدته عني في هذه الفترة التي احتجت العودة فيها لإنسانيتي.. أن أشتري حرية روحي مع حرية جسدي.. أنا لم أعد عبدة لأحد إلا للذي خلقني.. ورغم أني سعيدة في داخلي لأني آخذ حقي منه وهو يرسل المال لي كي يكفيني الحاجة، ولعمي كي يكفيني لسانه وخططه؛ إلا أنني كنت أشعر أن القادم مع عزّام لن يمر على خير..

*****

في الصباح الباكر دخلت المبنى وأنا أبحث عن مفتاح الشركة.. أصبحت أول الحاضرين للمبنى ككل، وليس الشركة فحسب.. نشاط عالٍ شعرته يدب في جسدي في تلك الفترة وكأني تهيأت نفسياً لاستقبال حريتي كاملة وأنا أقف على أعتابها.. على الدرجة الأولى من السلم وبينما منغمسة في البحث عن المفاتيح داخل حقيبتي الكبيرة شعرت بيد تمسك معصمي.. حركة دفاعية تلقائية، وأنا ألتفت بحدة لأسحب يدي وأواجه بشراسة ذاك المتعدي عليّ، ففاجأتني رؤية زيد! وعلى قدر المفاجأة التي كنت أتوقعها بعد هذا الغياب على قدر الدهشة التلقائية وأنا أراه في حال يرثى له..

شاحب الوجه على نحو ملفت للغاية وقد هزل كثيراً وجهًا وجسداً.. بدا لعينيّ مريضا بما لا يقبل الشك..

همس اسمي بعاطفة، وأظنه أراد الاعتقاد أن قلبي رقّ لرؤيته هكذا: أشرقت..

لكن الواقع ومهما أعتقد زيد لحظتها أني لم أتأثر.. هناك جدرانٌ وجدران تفصلني عن التأثر بحالته.. اكتفيت بالرد بهدوء على ندائه باسمي، وأنا اسحب معصمي من بين أصابعه ببطء: نعم!

شفتاه اللتان عرفتُ طعم قبلاتهما الحارة بدتا اللحظة جافتين متشققتين شاحبتين.. في لحظة غريبة شعرت أو مخيلتي أوحت لي إنه عذاب الله يطاله كما يطالني.. تذكرت جملة على لسان شيخ جليل قرأت له كتابا أعارتني إياه سمارا: حتى عقوبة الله هي رحمة منه، فلا تخف منها..

أخرجني صوت زيد من انغماسي بأفكاري، وهو يتساءل بما يشبه عتب العاشقين: ألن تسلمي عليّ؟ ألن تسألي عن حالي؟

نفس الصقيع ونفس البرود.. لا أرسمه، لا أدعيه، ولا اتخيله.. هو فقط ما أشعره ببساطة وأنا أرد: ليس بيني وبينك شيء لتتوقع مودة السؤال يا زيد..

الفسحة الصغيرة التي تفصل بين بوابة المبنى وبداية السلم كانت خالية تماماً.. لكن ليس لوقت طويل.. أردت إنهاء الأمر معه، بينما يبدو هو ليس مستعداً لهذا على الإطلاق.. أغضبته كلماتي كما أغضبه برودي.. شعّت عيناه الخضراوان الجميلتان بغضب العاشقين وهو يعاود إمساك معصمي ويهدر: حقاً؟! ليس بيننا أي شيء؟ إذن القرحة في معدتي التي انفجرت بعد لقائنا الأخير.. الدم الذي تقيأت في صباح اليوم التالي، وركضت بي أمي للمستشفى مذعورة لحالتي غير المسبوقة.. كل هذا كان بسبب ماذا بالضبط؟!

أكان يفترض في هذه اللحظة أن أتذكر كيف راعاني زيد يوماً، وأخذني للسرير أتوكأ عليه، وآثار ضرب عزّام تملأ وجهي وجسدي؟ أكان يجب أن أتذكر حنانه ورقته وهو يعد لي الحساء؟ أم كان يفترض أن أرمي بنفسي عليه اللحظة وأقول له: هون عليك حبيبي.. سنكون لبعض خلال أقل من أسبوعين!

لا.. لا يفترض أي شيء من هذا ليحصل.. إنها ليست ضمن مفكرة أحلامي التي أسجل فيها بوحي وتشهدها جدراني..

جاء ردي بنفس البرود وأنا أقول: أجهل السبب فاسأل طبيبك.. شافاك الله وعافى الجميع!

حاولت أن اسحب معصمي من جديد، لكنه تشبث وهو يهدر بغضب متصاعد: أيعقل أن تكوني بكل هذا البرود نحوي؟ لماذا تفعلين معي هذا؟

الأمر بدأ يثير غضبي أنا الأخرى؛ فحاولت مقاومة أصابعه وأنا أرد بحزم: لم يعد هناك ما أقوله زيد.. المرة السابقة كنت واضحة تماماً معك.. اترك معصمي.. لا يصح ما تفعله خاصة، وأني ما زلت في فترة العدة..

لكنه لم يستجب، وبدلا من هذا سحبني لأنزل عنوة عن الدرجة اليتيمة التي صعدتها؛ ليجرني بعدها لزاوية مخفية عن بوابة المبنى، فيمسك بكلتيّ معصميّ يهز جسدي وقد أفلتت أعصابه تماماً: هل الزواج بك هو الذي سيجعلك تغفرين وتعودين الي؟ حسنًا!.. سأتزوجك.. الآن حالا إذا أردتِ..

أعترف أني تفاجأت بالعرض.. أعترف أني تمنيت (للحظة) لو عاد الزمن لتلك المواجهة الأخيرة بيننا في بيت عزّام، ونتغير الأقوال والأفعال التي صدرت منه.. ليقول لي هذا الكلام الذي كنت أنتظره وأتوقعه منه كأمر بديهي حتميّ..

لكن اللحظة مرت.. والزمن لا يعود.. والمشاعر الميتة لا تصحو، وقد لفظت آخر أنفاسها تحت تراب الخذلان.. الغفران الذي يبحث عنه زيد وقد ربطه بالعودة.. أمران أعجز عنهما..

فلا الغفران أملك له قدرةً.. ولا العودة أملك لها أدنى رغبة أو تفكيرًا..

نظرت إليه وأوشكت على صفعه! لا اعلم لماذا انتابتني هذه الرغبة الآن بالتحديد.. فاكتفيت بصفعة معنوية علّه يصحو من أوهامه ويكف عن سعيه: مؤكدٌ لا تعني هذا،

ولو كنت تعنيه فأنا أرفضه..

همس باسمي، وهو يحاول تليين رأيي باحتضاني بين ذراعيه؛ لكني قاومته بشراسة هذه المرة، وقد كنت واعية تماماً لحقيقة نفسي، وقد خرجت من التيه الذي كنت فيه.. أخذت أدفعه وأنا أزجره بعنف: دعني.. اتركني.. ألا تفهم؟! الأمر انتهى.. دعني.. قلت لك!

جن جنون زيد لما اعتقده عناداً مني.. فأمسك بأعلى ذراعيّ ويهزني بشكل أعنف هذه المرة، وهو يهدر مجددا: ماذا تريدين ها؟! هل تحاولين إثارة جنوني؟ هل تنتقمين مني لأني رفضت فكرة الزواج منك؟

جنونه أثار جنوني أنا الأخرى؛ فأخذت أشوح بكفي يميناً ويساراً في صفع عشوائي لوجهه؛ بينما جسدي النحيل ينتفض مقاوماً لإبعاده وأنا أرد له بنفس الهدير: لا أريد الزواج ولا الانتقام.. فقط دعني..

- دعها وشأنها يا زيد..

صوت سمارا جاء قريباً للغاية، وبصوت خافت حذر؛ لكن ينضح بالغضب المكتوم..

التفت كلانا إليها، فوجدناها تقف قريبة للغاية، بحاجبين

معقودين ووجه متجهم الملامح.. تجمدنا أنا وزيد ثم شعرت بقلبي ينبض بتباطؤ وأنا أهمس لها: سمارا انا..

قاطعتني سمارا وهي تتقدم بحزم، وتبعد كفي زيد عن ذراعيّ، وهي تقول بخفوت: أنت بلا أخلاق! ألا يكفي تعقيدات حياتها التي يبدو جلياً لي الآن أنك كنت جزءًا من تلك التعقيدات لتسيء لسمعتها هكذا في مكان كسب رزقها؟!

ابتعد زيد نصف خطوة؛ بينما سمارا تقف جواري، وأنا أشعر بالدوار والخرس.. خزي أكبر من طاقتي على ايجاد الكلام.. لكن صوت زيد استفزني وهو يواجه سمارا: لا تتدخلي سمارا.. المرة السابقة تدخلتِ بيني وبين هديل، فأفسدتِ الأمر وزوجتِها بمن تريدينه أنتِ.. لكن اليوم لن أسمح لك..

لم أشعر إلا وأنا أصرخ فيه: هل أنت عاجز عن الفهم لهذه الدرجة؟ أنا التي أرفضك، ودون تدخل أي إنسان.. لا أنت ولا غيرك أريده في حياتي..

عمَّ صمت، وأنا أشعر بأنفاسي تصرخ مع صوتي؛ لأضيف بنبرة أشد وطأة: حتى لو شفيتُ من العطب الذي أصابني.. فلن أرتبط بك.. أنت سقطت من نظري زيد.. سقطت وقد كنت في برج عال.. لكنه كان من

الأساس برجَ هاوية..

كنت أرى مشاعر محطمة في خضرة عينيه.. لا أعلم ما الذي كان يتحطم بالضبط! أقلبه أم صورته كرجل أمام نفسه..

واجهنا بعضنا هكذا، وسمارا تشهد ليكون لها القول وهي تأمره: غادر زيدًا.. شاهين على وصول.. ولو رآك ستحدث مشكلة كبيرة..

نقل نظراته مني إلى سمارا، فيقول بتحدٍ يداري فيه ذاك الحطام الذي يتجسد على وجهه بوضوح: وهل أخشى شاهين هذا أيضا؟!

ردت سمارا بهدوء وضبط نفس لم أتوقعه من شخصية نارية مثلها: قد لا تخشاه، لكني أظنك تهتم كفاية لسمعة أشرقت.. ومؤكد تهتم أنها في فترة عدة، ولا تريد المشاكل، أو أن تعود لعصمة ذاك الحيوان..

وكأنها أصابته بمقتل، فأحنى رأسه ويمرر أصابعه في شعره وهو يتمتم: اللعنة!!.. اللعنة!!..

ثم صمت للحظات قبل أن يرفع وجهاً يحمل تعابير مجروحة ليقول بصوت منخفض ونبرة مبحوحة: الأمر لم ينته بعد

يا أشرقت.. فقط أستعيد صحتي، وتكملين عدتك وسنتكلم بعيدا عن كل هؤلاء الذين ظهروا في حياتك فجأة يحامون لك، بينما أنا من كنت معك في أحلك الظروف.. تذكري هذا.. أنا لست الحقير النذل.. كوني عادلة وتذكري..

ثم استدار ومضى، دون أن يضيف المزيد..

*****

كنت في قمة التوتر، وأنا أتحرك ذهابًا وإيابًا في المطبخ الضيق.. بدأ شعور بالخدر يسري في أطرافي، وعرق بارد أشعره على جبيني..

سمارا عرفت الحقيقة التي أخفيها.. لا.. ليست الحقيقة.. بل جانباً بشعًا تشكل عبر كلمات سمعتها سمارا مني ومن زيد ونحن نتبادل ذاك الحوار الرهيب عند مدخل المبنى، وتظل لمخيلة سمارا باقي العمل كي تملأ الفراغات في الصورة.. وكلما استرجعت الحوار لأحاول تخيل ما ستفكر به سمارا حول علاقتي بزيد زاد توتري.. لا بد أنها تعتقد الاسوأ! خاصة وقد التزمت الصمت التام بعد رحيل زيد، وصعودنا درجات السلم معاً دون أن أنظر إلى وجهها حتى..

لم أحتمل البقاء هكذا، فأخذتني خطواتي إلى غرفة

مكتبها الصغير فدخلته دون استئذان، وأغلقت الباب خلفي، وأنا ألهث حرفياً كأني كنت أركض في طريق لا ينتهي..

وجدتها تجلس خلف مكتبها البسيط تنظر إليّ بهدوء، وكأنها كانت بانتظاري.. فقالت لتختصر الكثير: هل تريدين الكلام؟

تقدمت خطوات، وأنا ما زلت ألهث، فأبادرها السؤال: هل تساورك الأفكار السيئة عني حول علاقتي بزيد؟

فاضت ملامحها اللطيفة تسامحاً، وقد حاولت إعفائي من الحرج قائلة: إنه أمر يخصك، ولا يحق لي ولا لغيري أن يحكم عليكِ أو يحاكمك..

لكن حالتي تلك اللحظة لم تسمح لي أن أرى محاولتها التخفيف عني ورفع الحرج.. بل تصرفت بسخافة وفقدان سيطرة وأنا أهتف بفظاظة: لا تكوني مثالية هكذا.. كلكم هنا تحاولون التصرف بمثالية.. كأنكم من عالم مختلف غير العالم الحقيقي البشع من حولي..

هل قلت لكم إنني كنت ألهث وأنا أدخل مكتب سمارا؟ في هذه اللحظات كنت أختنق بحاجة للأوكسجين كي يدخل رئتيّ.. لا أعرف ما دهاني.. لا أعرف لماذا

انفجرت فيها هكذا.. كل ما أعرفه أنني كنت خائفة.. خائفة كما لا أحب لأي إنسان أن يخاف.. خائفة من خسارة القليل جدا مما بنيته.. خائفة من أن أتوه مجددا.. خائفة من نظرات مستحقرة في عيني أناس أحببتهم.. صحيح أني كنت أضع حواجز عاطفية كحماية تلقائية وقلة ثقة بعد كل ما مررت به.. لكني أحببتهم بصدق.. سمارا وشاهين وباهر وحتى الانطوائي حامد الذي أنسي وجوده في الشركة أحياناً.. كلهم باتوا حجر أساس لا أستطيع التفريط به..

وقفت سمارا على قدميها، ثم تحركت لتلتف حول مكتبها فتقترب مني، وهي تقول بهدوء: ربما نحاول التصرف بإنسانية فقط وليست مثالية.. هذه طريقتنا التي جمعتنا هنا في هذه الشركة الصغيرة لنواجه بشاعة العالم الذي تصفينه ونواجِهه مثلك كل يوم.. نحن لا نختلف عنك بالكثير يا أشرقت..

شعرت كأني طفلة صغيرة تتلقى التوبيخ من أمها.. نجلت وموجتي الثائرة تهبط منكمشة بينما أتمتم: انا.. آسفة..

لا أعلم كيف.. ولا أعلم لماذا.. لكني في لحظة كنت أرمي رأسي على صدر سمارا وأجهش في بكاء مرير.. احتضنتني سمارا برفق وصوتها ذو النبرة الأمومية في أذني: اهدئي أشرقت.. ما قاله وفعله زيد لن يغير من نظرتي

إليك..

رفعت رأسي.. دموعي تنسكب مدراراً.. أدافع بقوة عن نفسي، وأنا أقول بصدق وانهيار انفعالي: لم أعاشره أبداً.. أقسم بالله لم أفعل.. كنت فقط.. أعاني بين أربعة جدران ابوح لها وحدها بما يجري عليّ.. الصدفة جمعتني بزيد.. تشابكت خطوط الهاتف.. ثم.. ثم.. اوشكنا أن نقع بالخطيئة.. لكن لم أرض.. ثم ظننت.. ظننت..

عجزت عن إكمال هذري، وكأني تهت أو ربما أغرق ولا أعرف كيف أنجو لتقولها سمارا بتوقع ذكي وفطنة: ظننتِ أنك إذا تطلقتِ من عزّام سيتزوجك زيد..

وكأنها بجملة واحدة فتحت الجرح المتقيح لينزف قهراً لا دماً..

لا أعلم لماذا استرخى جسدي فجأة.. كان كاسترخاء اليأس، أو ربما هو استرخاء تقبل قدري.. شعرت أن ذاك القهر الذي حطمني ساعتها، وزيد يستهجن فكرة زواجه مني قد عاد لأعيش اللحظة نفس القهر، بل وأواجه نفسي بما كان في دخيلة زيد، ولم ينطقه على لسانه: في لحظة مدمرة اكتشفت الحقيقة.. أني عشت وهماً.. وأني لست من مقام يناسب مقامه.. أنا الجاهلة التي لم أنهِ تعليمي في المدرسة الثانوية حتى، وسأكون المطلقة

التي مرت بتجربة زواج أقل ما توصف بها قبيحة كقبح الشيطان ذاته.. كان زيد يعلم بكل ما يفعله معي عزّام وشاهداً عليه.. لكن ظننت أنه.. أحبني كفاية..

رأسي تطأطأ بالعار.. عار يلاحقني أمام نفسي.. لا يعرف زيد كم آلمني.. لا يعرف ماذا فعل بي.. شعرت بيد سمارا أسفل ذقني لترفع وجهي وتقول: بالضبط.. هو لم يحبك كفاية يا أشرقت.. لم تكوني غالية عنده كفاية.. لم يكن إنسانيًّا ورجلاً بحق كي يقدر حاجتك أن تكوني محترمة أمام نفسك أولا..

ثم عبس وجه سمارا وهي تضيف: دوماً وصفه شاهين بالدنيء عندما علمنا أنه يحوم حول هديل في الجامعة.. لم أبالِ كثيراً بوصف شاهين.. كنت فقط قلقة على أختي وأريد لها الأفضل.. لكني الآن.. وبعد ما عرفت من حكايتك معه.. لأول مرة أراه دنيئا بالفعل..

كلمة (دنيء) جعلتني أشعر ببعض الذنب، وأنا أتذكر كلماته الاخيرة (سنتكلم بعيدا عن كل هؤلاء الذين ظهروا في حياتك فجأة يُحامون لك، بينما أنا من كنت معك في أحلك الظروف.. تذكري هذا.. أنا لست الحقير النذل.. كوني عادلة وتذكري..)

ولأول مرة أفكر أن ما فعله زيد معي قد جعلني أقوى

بطريقة ما.. الجرح الذي جرحه لي جعلني أنتفض لأدافع عن نفسي؛ فقد كرهت دور الضحية.. لقد ساعدني بشكل غير مباشر كي أخلص نفسي من براثن عزّام بتلك الخطة التي نفذتها وأنا أتلاعب به وبوداد حتى جعلتها تجبره على طلاقي..

وبعد هذه الفكرة المباغتة شعرت أني توازنت من جديد.. أن ما حصل هو الأفضل لي.. بل تماديت بالتفكير أن الله وضع زيدًا في طريقي كي يلهمني الخلاص، واستغلال الفرصة التي أتيحت لي بزواج عزّام من وداد..

مسحت وجهي من أثر الدموع، وأنا أقول لسمارا بكل صدق: لا أريد أن أتحمل مسؤولية تشويه صورته عندك.. أرجوكِ.. هو لم يتعمد أذيتي.. أدرك هذا الآن.. ورغم هذا أنا لا أريد أي صلة به..

نظرت في عيني سمارا دون أن أشعر بالخزي.. بل عدت لتلك الثقة التي تحصلت عليها بمجهودي وتضحياتي.. قلت لها كأنها صديقة قديمة لي أشكو لها بعض همومي: يا إلهي لماذا لا يدعونني لشأني.. لماذا لا يتركونني أصلح حالي وأعيل أخوتي الايتام..

تبسمت سمارا قليلاً، وهي تقول كأنها تطمئنني: سيملّ بعد أن يتيقن أن رفضك لا تراجع فيه.. هو غبي كأي

ديك مغرور لأنه يعتقد أنك غاضبة بسبب تخليه عنك.. لا يفهم أنه سقط من نظرك كرجل.. وهذه هي النهاية التي تقتل أي بداية..

أخذت أهز برأسي؛ لكني لم أكن بثقة سمارا حول ملل زيد المتوقع..

*****

مرت الأيام ثقيلة مشحونة.. كنت مرهقة من أشياء كثيرة.. لم يتبق على العدة إلا القليل وكلما فتحت عيني صباحاً ادعو الله من قلبي أن لا يفعلها عزّام ويردني لعصمته.. وأشغل نفسي باقي اليوم بالعمل الدؤوب المضني.. لا أُضيع دقيقة.. فإن لم يطلب أحد مني شيئا في الشركة ولم أجد ما ألتقطه منهم كي ينفعني كنت أنزوي وأعكف على دراستي للغة الانجليزية..

أنهي يومي لأعود إلى البيت، وأكمل المشوار في القراءة حتى أغفو مستنزفة ويقع مني الكتاب جبراً.. مشاكل بدأت تطفو على السطح بين أمي وعمي.. صراخ واتهامات متبادلة.. كنت أراقبهما بصمت للحظات بسيطة ثم أنسحب.. لم يكن لي طاقة لهما.. فما يتبقى مني أعطيه لإخوتي، وقد كانت لهم مشاكلهم وطلباتهم واحتياجاتهم..

كل شيء كان مرهقاً في حياتي.. كل تفصيل أعيشه كان يمتص من طاقتي.. لكني لم أتوقف حتى لالتقاط أنفاسي..

لا أعلم إن كان يجب أن أذكر لكم الآن امرا صغيراً.. عينان عاديتان غير ملفتتين تتابعانني من وراء حجاب شفاف نقي صافٍ.. لا أعلم لماذا وضعت كلمة حجاب بالوصف، وأنا أضفي عليه الشفافية.. لكن هذا ما كنت أشعره مع باهر.. أجل هما عيناه اللتان كانتا معي دون أن تتجاوزا حدود ذاك الحجاب الذي وضعه هو بنفسه..

باهر الخجول اللطيف المتعاون.. الذي لا أعرف عنه أي أمر شخصي سوى أنه لا يرتدي النظارة الطبية إلا وقت عمله على الحاسوب!

*****

أقبل نهار الحرية..

هل تتصورون ذاك الصباح كيف بزغت شمسه عليّ؟! هل تستطيعون لمس قبس من نوره الذي أشرق في فؤادي؟! لقد كان الإشراق الأول الحقيقي في حياتي مذ أدركت البلوغ.. المرة الأولى التي أحمل فيها اسمي

كوسام..

عند دخولي الشركة وكنت قد وصلت متأخرة مررت بغرفة مكتب شاهين أولا فوجدت سمارا عنده والاثنان مستغرقان في نقاش ساخن حول الميزانية فتركتهما لشأنهما..

لم أصبر حتى أصل المطبخ، وأتخلص من حمل أكياس البقالة فعافرت مع حقيبتي لأخرج هاتفي وانتظرت بلهفة الارتباط بشبكة الانترنت لأفتح تويتر واقرأ تغريدة اليوم..

تغريدة

اليوم تحررت رسمياً من إدمان السجائر.. نعم أعترف الآن أنه كان إدمانًا وقعت في أسره وأنا أُغالط نفسي، وأصر أنها مجرد عادة سيئة.. لم أعد أهوى رائحتها ولا أحن للمس ورقها بين أصابعي.. لم أعد أراها بعين الاشتياق، بل بعين الإشفاق على من يقع تحت أسرها.. زوجي شاكر فخور بي وأنا فخورة (بي).. #تحرري_وافتخري ولا مانع أن تشاركي رجلا كشاكر فخرك هذا..

قرأت تغريدة الدكتورة فريدة؛ وأنا أدخل على عجل للمطبخ؛ فوضعت حملي أرضاً وعيناي لا تفارقان الشاشة

وأشعر داخلي كله يقهقه بالضحك..

- صباح الخير.. أشرقت

التفت فرأيت باهر.. يقف عند باب المطبخ يبتسم دون أن تبتسم شفتاه!

كان أمرًا مُحيرًا وغير مهم بنفس الوقت..

(مُحير) لأني لا أعرف كيف فعلها! و(غير مهم) أن أتساءل من أين يأتي الابتسام..

يكفي أني اشعره وأراه، وكأني حظيت أخيراً بمن أودعه سر إشراقي..

وددت أن أركض إليه وارمي نفسي في حضنه لأصرخ سعادة (أنا حرة يا باهر.. حرة.. حرة).. حسن.. أغلقوا الأفواه التي تدلدلت! مؤكد ليس في ذهني أيا من أفكاركم التي تحوم حول أمر واحد.. عنصر الجذب الأزلي بين رجل وامرأة.. ببساطة لو كانت سمارا من تقف بالباب لانتابني نفس الشعور والرغبة بعناق الحرية والانتصار..

ألم تخمنوا بعد كم كنت وحيدة في هذا العالم؟! ألم تحزروا أني صباحا عندما (أشرقت) بروحي لم أجد متسعاً لأخبر

أختي المراهقة النحيلة أطياف التي كانت تهرول مسرعة لتلحق طابور الصباح في المدرسة، ولم يكن قد تبقى أمامها إلا ثلث ساعة، والطريق يستغرق نصف ساعة مشياً على الأقدام.. لم أخبر أمي التي كانت منشغلة في شجار مع زوجها حول مصروف البيت الذي بات ينقص بشكل عجيب.. ولم أجد حتى أذنا صاغية عند أخوتي الصغار وهم يتدافعون فيما بينهم لا يهتمون إلا بانطلاقهم الصباحي العشوائي هذا..

أجل.. لم يكن هناك أحد أشاركه إشراقي.. لكني لم أحزن لهذا.. كنت فقط كطفلة تقف على قارعة طريق تمسك بيدها ورقة نجاحها في امتحان مهم، كانت تنتظر نتيجته منذ أشهر.. طفلة لا تهتم إن كانت تعرف أحداً من المارة وهي تلوح بالورقة في وجوههم.. كما لا تهتم إن كانوا لا يرونها من الأصل وكلٌ منشغل بحاله..

لكن باهر أتاني حيث أقف، ونظر في ورقتي وعرف.. هل تراه عرف؟!

السؤال العجيب هذا قفز إلى رأسي، وأنا أنظر إلى باهر الذي يبادلني النظر في صمت، والابتسام ما زال موصولا بحواسه الخفية لتظهرها..

تنبهت أني لم أرد تحيته حتى اللحظة، وقد مرت لحظات

كثيرة مذ ألقاها.. فرددتها وأنا أشعر بالغرابة: صباح الخير..

قال وعيناه الصغيرتان تحنوان عليّ بنظرة حلوة: لا تجعلي أي شيء يفسد اشراقك اليوم.. أدامه الله لك!!..

سألته دون تفكير بكلماتي التي فارق شفتي قبل أن آذن لها: هل تعرف؟!

وقبل أن يرد باهر أطلت امرأة مألوفة لي.. خمرية البشرية جميلة بشكل ساحر.. شديدة الأنوثة والنعومة، فتقتحم علينا حوارنا وهي تقول ببشاشة أشد سحراً: هل هناك من مفتقد؟!

في لحظة شعرت أني منسية وباهر يستدير مولياً إياي ظهره وهو يرحب بالسمراء الساحرة مقترباً منها يضم كفها الرقيق في كفه وهو يقول بنبرة صوت لم أسمعها منه من قبل: شهرزاد.. يا إلهي.. ما هذه الغيبة لأشهر؟! لقد أخذك عملك الجديد كثيراً منا..

ما إن ذكر اسمها حتى تشكلت الصور في الذاكرة.. شهرزاد زوجة أحد أشهر معالم التجارة والاقتصاد في البلد.. من جاءت إلى هذا المكتب المتواضع لتعمل فيه بعيدا عن هيلمان زوجها هيثم الجراح.. لا أحد وضح لي

لماذا فعلت شهرزاد هذا؟! كما لا أحد فسر لماذا عادت، وغادرت عالم مكتب شاهين لتدخل عالم زوجها التجاري عبر مكتب نخم جهزه لها كعمل منفصل يخصها وحدها.. لكن الكل كان يتحدث بشهرزاد كأنها من قصص ألف ليلة وليلة.. فأيقنتُ اللحظة ببعض الغيرة أنهم بخسوها حقها.. لقد كانت امرأة كأنها هي ألف ليلة وليلة..

لقد سبق ورأيت صورها معهم تملأ أدراجهم.. سبق وسمعتهم يكلمونها عبر الهاتف والحنين يضج من أفواههم.. لقد رأيتها فيهم.. في عيونهم وقلوبهم.. وها أنا أقابلها أخيرا كأنهم رسموها لي بكل تفاصيلها لأعرفها دون مجهود..

في الواقع هذه ليست أول مقابلة لي معها.. وقد عرفتها من الصور سابقا.. إنها نفس المرأة التي قابلتها وأنا أصعد درجات السلم في أول صعود لي إلى مكتب شاهين قبل أشهر عديدة.. كانت هي مغادرة على عجل فتهبط السلالم كأنها تطير وأنا كنت المتسلقة طلباً لمأوى إنساني وخطواتي تثقل مع كل درجة..

في لحظة انكمشت وأنا أراها تضاحك باهر الذي تورد وهو يطرق في خجل، ثم تميل شهرزاد جانباً لتنظر إليّ بفضول وهي تتساءل بابتسامة عريضة: من الفتاة الجميلة هذه؟

عندها فقط التفت إليّ باهر ليقول: إنها أشرقت..

نظرة من شهرزاد لباهر وكأنها تدقق فيه ببعض الدهشة، ثم أغاظتني بابتسامة خاصة تمنحها له وهي تقول بنبرة خفية مشاكسة: قلت اسمها أشرقت؟ أظن الاسم مميز، أليس كذلك؟

يتنحنح باهر وبدا اللحظة محمر الخدين، بينما شهرزاد تكتم ضحكتها وأنا.. أنا أغلي!

لا أعرف ما يجري.. وربما أعرف وأنكر واستنكر أيضا.. كيف سُرق مني (إشراقي) اليوم بسبب وهج هذه المرأة؟! لم أدرك أني عابسة الا عندما قالتها شهرزاد لي وابتسامتها الحلوة تجبرني على التراخي: لا تعبسي هكذا.. أنت جميلة للغاية، وصبية للغاية كي تعبسي مبكراً هكذا..

ثم تقدمت نحوي وهي تمد كفها الأنيق كأناقة ملبسها قائلة: آسفة لم اعرفك بنفسي.. أنا شهرزاد.. كنت أعمل هنا قبل أشهر..

كفها كان أنعم مما ظننت، وهو يشد بحرارة على كفي الخشن.. خشونة كانت نتيجة طبيعية لنوع العمل وقلة العناية ببشرتي..

ورغم الغيرة إلا إني شمخت نخورة بنفسي.. أنا أشرقت التي حررت نفسها بنفسها.. أنا أشرقت التي تبني حياتها من العدم.. أنا أشرقت من تحمل مسؤولية عائلتها، ولن نتوقف حتى تعبر بهم خط الفقر الذي يرزحون أسفله..

بدت نظرة شهرزاد أكثر حنانًا وتفهمًا، وكأنها تدرك ما يدور بخلدي، وأنا أرحب بها بنبرة رسمية: مرحباً سيدة شهرزاد.. أنا أعرفك.. الكل يتحدث عنك هنا بالخير..

لا شعورياً عيناي توجهتا نحو باهر لكني لم أفهم نظراته.. كما لم أفهم لماذا أنا غاضبة هكذا!!

فجأة قالت شهرزاد بمرح: شاهين وسمارا يشدان بشعر بعض، فلم أزعجهما في معركتهما الخاصة.. سأنتظر حتى ينتهيا لأعلن عن وجودي..

فقال باهر ما جعلني أوشك على رميه بالكوب جواري: تعالي لمكتبي.. حامد سيصل خلال نصف ساعة..

تحركت شهرزاد وهي تغمزه: أمرك يا معلمي!

وقفت جواره، وعاودت الالتفات إليّ، وهي تقول بنفس الابتسامة: باهر هذا معلم من ذهب.. كنت لا أعرف (ألف باء الحاسوب) لجعلني اليوم متمرسة فيه..

شعرت أن الدموع تتجمهر على حافة مقلتي! اياكم أن تبدؤوا التكهنات السخيفة الرومانسية.. كل ما في الأمر أنهما متعبتان من كثرة القراءة في تلك الكتب التي أغرقني بها باهر..

نظرت إليهما والغيظ يشتد، وفكرت في نفسي بأفكار طفولية للغاية (لا ينقص إلا أن تتأبط ذراعه لتأخذه وتمضي!)

ماذا جرى لي ذاك الصباح بالضبط؟! لا أدري!

هل هي غيرة من امرأة كشهرزاد، أم هي غيرة على باهر، وقد اعتدت اهتمامه الخفي بي.. لكني وبّخت نفسي لكل هذه السخافات التي انتابتني، وسرعان ما عدت إلى واقعي الملموس الذي لا إخفاء فيه.. أنا أشرقت، بتُّ حرة، ولي طموحات كثيرة لأكون أفضل وأفضل..

ابتسمت أخيرا، أو لأصارحكم أجبرت نفسي على هذا الابتسام، وأنا أسال بلطف: هل تشربين شيئا يا سيدة شهرزاد؟

ردت علي: نادني شهرزاد وحسب.. أشرب كوب شكولاتة لو سمحت.. إنه المفضل لدي..

اكتفيت أن أهز رأسي بنفس الابتسام، بينما يغادران وشهرزاد تثرثر بأريحية ومحبة خاصة مع باهر..

بصمت أخذت أعمل لكن حركات يدي كانت حادة بعض الشيء، حتى انزعجت شخصياً من الاصوات التي أطلقها، وأنا أفتح الأدراج والخزانات..

- رغم إنك لم تسأليني لكني سأطلب.. شاي بالحليب لو سمحتِ..

التفت لأرى باهر يقف عند باب المطبخ مجددا ينظر إليّ نظرات أفهمها، وأدعي أنى لا أفعل!

نظرت إليه مطولا بنفس الهدوء كأني أثبت له ولي أمراً غاية بالأهمية، وقبل أن أقول شيئا بارد المعاني كما خططت اللحظة وجدته يتقدم نحوي وهو يخرج من جيبة علبة مستطيلة لا أعرف كيف حشرها في جيبه ليقول بابتسامة مترددة: هذه هدية بسيطة يا أشرقت لإنهائك بنجاح أول دورة حاسوب للمبتدئين..

وضع العلبة أمامي ثم حشر يده في جيبه بحركة مرتبكة مضيفاً: إنها هدية بسيطة.. ساعة يد جلدية أتمنى أن تعجبك.. لاحظت أنك لا ترتدين واحدة.. ففكرت أنها

تناسبك لأنك تقدرين كل دقيقة من وقتك..

تطلعت للعلبة بإحساس منسيّ منذ سنوات.. منذ وفاة أبي.. آخر هدية نجاح تلقيتها منه.. ومن بعده نسيت الهدايا، وشطبت النجاح من قائمة انتظاراتي..

للأسف الموقف كان أكبر مني، وفضحتني تلك الدموع تجري على خدي، كأنها لم تعرف (خدين) قبلي!

كنت أشهق بالبكاء الخافت، وباهر جواري في أشد حالات الارتباك وهو يتساءل بخفوت: لماذا تبكين يا أشرقت.. أنا آسف إن كنت تسببت بتذكيرك بشيء محزن..

أشفقت عليه كما أشفقت على نفسي؛ وان كان الإشفاق لأسباب مختلفة.. أهز برأسي نفياً لأخفف عنه لكني لم أستطع التقاط أنفاسي كي أتكلم.. ولم أستطع التوقف إلا عندما اجبرت نفسي لأتحرك خطوة نحو حوض غسل الصحون لأفتح صنبور الماء وأغسل وجهي..

عندما التفت وجدت باهر المرتبك يحمل لي المنشفة بصمت، فجففت وجهي وقد هدأت قليلاً، ثم رفعت عيني إليه أمنحه ابتسامة لم أمنحها إلا لأبي.. لا أعلم كيف عرفت هذا عن (ابتسامتي).. لكني عرفته وحسب..

قلت لباهر بصوت تفضحه بقايا شهقات بكاء: آسفة لإرباكك.. فقط تذكرت أبي.. كان آخر من أهداني هدية نجاح..

نظرته تلك اللحظة جعلتني سأنفجر بالبكاء مرة أخرى.. نظرة فيها حنان وبراءة وطيبة.. لكني تماسكت، وشعور آخر نحوه يداهمني.. شعرت في اللحظة التالية أنه لا يستحق فتاة مثلي بكل تعقيدات حياتها وتاريخها المخزي القاتم.. عليه أن يتوقف.. وأنا من سأوقفه..

لقد اخترته ليكون أول من يعرف.. ففي المعرفة تتحدد اختياراتنا بشكل أوضح.. شعرت بأنفاسي تتجدد في صدري، وأنا أقول له بفخر حقيقي: أنا اليوم احتفل بحريتي أيضًا يا باهر.. لقد نجحت بانتزاعها.. انتهت شهور العدة.. ولن يستطيع طليقي إعادتي لعصمته..

هل ظننت أني أصدمه؟! حسنًا.. هو من صدمني وهو يبتسم قائلاً باختصار: أعرف.. وأنا سعيد لأجلك..

ثم تركني واستدار مغادرا، وأنا على وقفتي تلك، والمنشفة في يدي فوددت لو رميتها في وجهه دون أن أعرف السبب!

*****

البوح التاسع

بضعة أيام مضت وأنا ألبس ساعة اليد بفخر.. فخر استحققته عن جدارة.. لكن في ذات الوقت كنت أتجنب باهر.. وهو في المقابل منحني مساحة لأستوعب حقيقة أنه كان يعرف من البداية.. أو المنتصف! لا أعلم متى عرف بالضبط وضعي كـ(مطلقة)..

أردت أن أسال سمارا إن كانت هي من أطلعته، لكني تراجعت.. وجدت السؤال لا مذاق له!

وأعترف في داخلي أنني كنت متأكدة أن سمارا هي من أخبرته عن هذا.. أظنها لاحظت اهتمامه بي، وبأسلوبها الأمومي الذي اعتدت عليه أستطيع التخيل أنها أرادته أن يعرف في أي أرض يخطو، وليكون على بينة.. تُرى هل نصحته الابتعاد عني لأني لا أنفعه؟! أو ربما لا أليق به؟! ورغم ألم التساؤل لكن في الواقع شيء واحد أقلقني بجدية.. هل يمكن أن تتمادى سمارا لتخبره عن زيد أيضا؟! لكن عقلي عاد واستبعده.. سمارا لن تفضح أمراً يمس سمعتي أبداً.. تذكرت تغريدة للدكتورة فريدة قرأتها مرة:

تغريدة

(الأم) الجيدة تناقش أولادها في أخطائهم دون أن تفضحهم على الملأ.. كما أنها تكشف فقط ما تراه ضروريا للمصلحة العليا..

#كوني_أمّا_جيدة وأخبري شاكر أني كذلك

خفتت فرحة الحرية كفرحة الحصول على شهادة جامعية التي قد تمتد لأيام ثم تنتهي بتعليقها على الجدار كمصدر فخر لك.. بعدها تأخذك أفكار جديدة للحياة؛ كي تمضي قدماً في رحلة جهادك لبنائها.. خاصة حياة محطمة الأركان كحياتي أعيد بناءها فأضع بتمهل وعناية لبنات الأساس..

كنت أحضر القهوة لضيوف عمل مبكرين لشاهين؛ عندما أطلت سمارا عليّ في المطبخ وعلى وجهها كلام جدي لا يحتمل التأجيل..

تلقائيا سألتها ببعض التوجس وكأن انتظار السيء بات جزءا من تركيبتي وضريبة وجودي دون سند في هذه الحياة: خيرا سمارا!

تقدمت مني وأخرجت من حقيبتها ظرفاً مغلقاً لتقول بهدوء: وجدت زيد عند بوابة المبنى، وطلب مني أن أوصل إليك هذه الرسالة..

ما أن ذكرت اسم زيد حتى تراءى لي عزّام.. وكأنهما قرينان، أحدهما يذكرني بوجود الآخر..

أخذت الظرف منها دون أن أقول شيئا فقلّبته عفوياً في يدي على الجانبين وقد كان بياض الظرف خاليا من أي إشارة أو ملاحظة مكتوبة.. لم أهتم لهذا وقررت أن أفتحه لأرى ما في باطنه، وكلي عزم أن أتخلص من (القرين الأول).. فهل سأستطيع أن أفعلها؟!

جرت عيناي على خط يده الذي أحفظه.. لا زلت أذكر ما انتابني ساعتها وأنا أقرأ رسالة زيد.. ربما ستتهمونني بالأنانية لأن ما همني لحظتها أني كنت حرة لأقرر ما يناسبني.. أو على وجه الدقة كنت أباشر مهامي الأولى في تحملي لمسؤولية الحرية التي حظيت بها.. وكم كان شعوراً لا يُنسى..

تفاجأت بقصر الرسالة، وقلة محتواها.. كانت مباشرة، محددة، مقتضبة.. حتى أنه لم يذكر اسمي فيها.. وكأنه يخشى أن تقع بيد غيري ويقرأ أسراراً غير مرغوبة..

(أعلم أن عدّتك انتهت.. أظن لم يعد هناك حرج من لقائنا وفي مكان عام.. قابليني وقت استراحتك ظهراً عند مقهى الـ (..))

قرأت الرسالة مرتين.. ثلاث.. ولم أكرر القراءة لأحاول الفهم أكثر، بل كررتها لأختبر أي ردة فعل داخلي نحو زيد؛ فلم أجد صدى إلا.. الخواء..

*****

عند الواحدة ظهراً رافقتني سمارا للموعد المحدد مع زيد.. كان طلباً مني وهي لم تخذلني.. بل أظنها كانت ستفرض عليّ حضورها حتى لو لم أطلب.. ألم أقل لكم سابقاً إنها (أم جيدة)..

تبادلنا التحايا الباهتة، قبل أن تنسحب سمارا لتجلس على طاولة تبعد طاولتين عن طاولتنا، فتركت لنا خصوصية الحديث..

خلال دقائق صمت كان النادل يضع لي وله كأسي عصير، وكأسًا ثالثًا وضعه على طاولة سمارا القريبة من طاولتنا..

زيد بدا أفضل حالا نوعاً ما مما رأيته آخر مرة.. كان شديد الوسامة بنحوله الذي يليق به.. شاب تحلم عشرات الفتيات بنظرة من عينيه الخضراوين.. خاصة كهذه النظرة التي كان يوجهها لي في تلك المقابلة، وكأنه عاشق ولهان

يلتقي معشوقته الغاضبة منه بعد طول خصام..

كل هذا كنت أستشعره منه، لكن دون أن يمس داخلي بشيء.. أتصدقون أني حاولت أن أشعر؟! أجل لا تستغربوا ما أقول.. ولم يكن أمراً قاسياً مني كما تخمنون.. بل على العكس.. شعرت بالخوف من نفسي، وعلى نفسي، لأني لا أشعر بشيء هكذا..

توقفت عندها عن المحاولة، وقررت أن لا أفكر كثيراً بتبلدي العاطفي، وأن أعالج الأهم الآن، ومن ثم أعالج المهم..

قال زيد بصوته الجذاب الذي كان أول ما دغدغ مشاعري منه عبر تشابك خطوط!: اشربي العصير!

نظرت للعصير بلونه الأصفر المائل للبرتقالي، فلم أجد رغبة حتى في ارتشافة صغيرة فأكتفي بالقول: شكرًا لا أريد!

تبسم في وجهي، وعيناه تطمعان بنظرة دافئة مستجيبة من عيني، ثم قال بلمحة ممازحة: إذن هل ستدعينني أشرب أنا؟

تركت نفسي على سجيتها، فلم أجد إلا هذا البرود

الحقيقي؛ ليكون معيناً لي في لقائي به، فقلت له بهدوء: كما تشاء.. في مطلق الأحوال سنكمل كلامنا قبل أن تنهي كأسك.. لا أستطيع التأخر كثيراً.. لدي عمل ويجب أن أتسوق قبل عودتي..

تلاشت ابتسامته، وبدت جديته جلية، وهو يقول بتصريح مباشر: ما دام وقتك ضيق هكذا فسأختصر.. أشرقت.. أنا أريد الزواج منك..

اقشعر جلدي لحظتها.. أعترف.. لكني كنت واثقة أن ردة فعلي لم تكن لأجل زيد.. بل لأجل طلب الزواج الحقيقي الأول في حياتي.. طلب لم أحظَ به وأنا الـ(مطلقة).. فعزّام لم يطلبني.. بل سرقني.. خطفني.. استباح براءتي، ونحر صغر سني..

في لحظة شعرت برغبة التقيؤ وليلة (نحري) تتراءى لي.. تُرى هل سأنسى يوماً تلك الليلة وما تبعه من ليالٍ أشد قرفاً ونفوراً؟!

تماسكت وأنا أعود لأرض الواقع على صوت أحد الزبائن وهو ينادي النادل.. عادت صورة زيد لتفرض الواقع عليّ أكثر وأنه ينتظر رداً مني.. التلهف واضح على محياه الوسيم، لكني وبكل بساطة وجدت نفسي ألقي سؤالا ساخرا: لا أظن حتى أذنيك تصدقان طلبك..

عقد زيد حاجبيه، وقد أغضبته ردة فعلي ليقول حانقاً: هل تظنين أني ألعب يا أشرقت؟! بعد كل هذه الفترة التي عرفنا فيها بعض..

عيناي هبطتا لفمه كما فعلت عيناه.. كلانا يتذكر قبلاتنا لبعض.. ربما هو يتذكرها بالحنين والشوق، أما أنا فأتذكرها بالخزي، ومزيد من البرود، ورغبة أكيدة بمحوها من سجل تاريخي!

سألته والقرار داخلي بات محسوماً: وهل سترضى أمك بزواجك مني؟ هل ستخبر عائلتك عن ظروفي؟

هز رأسه وهو يقول بعناد ومكابرة: لا يهمني إلا أمي.. وأنا سأجعلها ترضى..

علمت أن نقاش زيد وهو بحالته العاطفية هذه لن يجدي نفعاً.. ثم فكرت سواء أكان جاداً فعلا بتحمله لمواجهة أمه والمجتمع.. سواء أكان قادرا فعلا على نسيان ظروف تعارفنا الشائن.. سواء أكان عاشقاً حقيقياً يرغب بتعويضي بإخلاص عما مررت فيه.. كل هذه الـ(سواءات) لا تهم.. لأني ببساطة لا أريد زيد زوجاً لي..

والأمر لا يتعلق فقط ببرودي العاطفي الذي أمر به

حاليا، وحالة النفور التي تسيطر على استجاباتي.. بل لأن (زيد) مرفوض بالكامل.. هكذا دون شروح مملة!

قلت له بمنطقي البسيط: لكني لست راضية!

يزم شفتيه ثم يسأل بتوتر: ما الذي لا يرضيكِ؟

شعرت بالإشفاق عليه من محاولاته المتأخرة للظهور كرجل عاشق يتحمل مسؤولياته! فطرحت سؤالا لأعينه كي يفهم: أخبرني أنت لماذا تريد الزواج مني..

بانفعال رد: ما هذا السؤال؟! لأني أحبك بالطبع..

حاولت مجددا فقلت: ربما أحببتني لكن..

قاطعني وقد فقد حلمه وصبره عليّ ليعبر عن مشاعره (المفترضة) بصدق: لماذا تتكلمين بصفة الماضي.. أنا أحبك أشرقت.. ماضيا وحاضرا و.. مستقبلا..

شعرت بالحزن! كم كنت حزينة وأنا أنظر إليه وصدره يعلو ويهبط وعيناه تتوسلان بالعاطفة التي يحملها لي.. مهما شرحت له لن يفهم.. مهما شرحت لكم ربما لن تستوعبوني.. أنا حزينة لأجل حب أردته؛ لكنه وصل إليّ وأنا أعافه!

أنا حزينة لحلم بنت صغيرة كانت تحمر خجلا من همسات الغزل البريء وتحلم باللحظة التي يقولها أحدهم لها وبصدق يعنيه (أنا أحبك أشرقت).. وها قد أتى الشاب الوسيم ليقولها بصدق وحرارة وانفعال و و و و.. لكن لم يعد ينفع! فوجدت لساني ينطقها: لم يعد ينفع..

تقبضت يداه فوق الطاولة وهو يسأل: لماذا؟

قلتها وعيناي تدمعان فقداً وحزناً على مشاعري التي انسكبت هدراً في مجرى ليس مجراها: لأني لم أعد أحبك..

غضبة عاشق جعلته يقول بانفعال أشد: إن كان صحيحاً ما تقولينه؛ فهذا يعني أنك لم تحبيني من الأصل!

للحظة فكرت أنه ربما محق! فربما لم أحب زيداً بالفعل.. لكن لا يهم.. سواء أحببته ومات حبي له أم انني لم أحبه حقيقة من الأصل فالنتيجة واحدة.. قلت له وأنا أحاول إنهاء الأمر؛ لأن في الإطالة كثرة عتاب وألم: ربما.. لا أعلم.. فلنترك الماضي لأنه مضى، ولن يعود يا زيد..

نظرة من عيني زيد جعلتني أشعر بما يعانيه، وهو يفسر تغير مشاعري نحوه فيقولها بخفوت: لأني خذلتك.. أليس

كذلك؟

صدقته القول وأنا أرد عليه: لا أدري.. كل ما أعرفه أني لا أحمل لك الآن أي عاطفة.. ولا أظنني سأحمل أي عاطفة عميقة لرجل.. لقد اكتفيت ونضبت..

لم يستطع التخلي عن المحاولة بسهولة فمد يده ليحاول إمساك يدي عبر الطاولة مذكراً إياي بالماضي: والبوح الذي تشاركناه، وطلبتِ مني تسجيله.. هل تذكرين..

سحبت يدي، وأنا أدفع الكرسي للخلف كي أقف، وأنا أقول له بعزيمة واستقلالية عن الجميع: أنا لا أذكر إلا هذا البوح.. وما زلت أتعلم كيف أكتبه بنفسي..

ينظر إلي.. عيناه لا تصدقان أنه الوداع لأقولها نيابة عنه مع طلبي الأخير قبل الفراق: وداعاً زيد.. وإن كنت تحمل في قلبك أي مشاعر لي فدعني بسلام.. لقد نالني الكثير، وأحتاج لتعلم الكثير كي أقف على قدمي من جديد، وأعيل نفسي وأخوتي.. لا أريدهم أن يضيعوا كما ضعت أنا..

ثم استدرت لأرى سمارا واقفة هي الأخرى، وقد كانت تنظر إليّ بـ(فخر) سأسجله ضمن قائمة إنجازاتي.. كفخري بالساعة الجلدية في معصمي..

*****

مر أسبوع كامل على لقائي الأخير بزيد.. أعترف أني تأثرت بعده ليومين، وقد أصابتني حالة حزن.. حزن على نفسي.. حزن على قلبي الذي لم يعد قادراً على الحب كأي (فتاة) شابة.. لكني لم أستسلم لها، فاجتهدت بالعمل، ورغم أني أنجزت الكثير؛ لكن في ذات الوقت ما زال أمامي إنجاز أضعافه.. والوقت كان عدوي المباشر الذي أواجه..

كلمة (عدوي) استحضرت اسم عزّام تلقائيا..

(طليقي) لم يظهر بالصورة رغم مرور قرابة الأسبوعين على انتهاء العدة.. وطوال هذه المدة لم يأت ذكره حتى ليلة الأمس عندما نوّه عمي بشكل عابر أنه التقى عزّام في السوق الكبير.. فأقلقني ذكره..

وكيف لا أقلق وهو القرين الثاني.. الأشد خطورة والأكثر ترهيباً لي.. المارد الأسود الذي أنتظر منه ما لا أتوقعه! وقد كان..

اتصلت أمي، وأنا منهمكة بتنظيف الموقد في مكتب شاهين، فشعرت بالقلق من اتصالها غير المعتاد، وخفت

أن يكون أحد أخوتي أصابه مكروه، فسارعت لأفتح الخط، وأنا ألهث من التعب والقلق متسائلة: ماذا هناك أمي؟

جاء صوت أمي مقلقاً للغاية، وهي تتكلم بصوت خافت متعب: أشرقت.. تعالي للبيت..

شعرت بقلبي سيتوقف وأنا أسألها باضطراب: لماذا.. ماذا حصل؟ هل أخوتي بخير؟!

ردت بصوت باكٍ: أخوتك في المدرسة وبألف خير.. أنها أنا يا ابنتي.. عمك.. عمك ضربني..

فارت الدماء في عروقي تلقائيا، وأنا أسأل بغضب: لماذا فعل هذا؟! واين هو الآن؟

ردت أمي وهي (تشهق بالبكاء): لقد تركني هكذا وذهب.. أخذ المال مني عنوة.. أرجوك يا ابنتي تعالي إليّ، ولا تخبري أحدا عما جرى.. لا اريد أن يراني إنسان بهذا الوجه المكدوم المتورم..

كانت حميتي نحو أمي في أقصاها.. انها أمي في النهاية.. كما إني أكثر امرأة تفهم معنى أن نتعرض للعنف الجسدي من رجل.. لم أفكر مرتين وأنا أستأذن للانصراف مبكراً

من شاهين متعللة بالسبب الحقيقي وإنْ خففت وطأته كثيراً.. فاكتفيت بالقول إنه شجار بين أمي وزوجها، وعليّ التدخل للإصلاح بينهما قبل عودة أخوتي من المدرسة..

ورغم إلحاح شاهين أن يأتي معي لكني رفضت.. حتى باهر بطبعه الهادئ الرابط الجأش بدا قلقاً بشكل ملحوظ، وحاول إقناعي أن يلحق بي بسيارته كي يكون قريباً إذا احتجت لشيء، لكني رفضت أيضًا، وطمأنتهم أنه شجار عادي متكرر فلا داعٍ للقلق..

وهكذا غادرتهم مسرعة إلى بيتي.. ويا ليتني لم أفعل.. لقد كنت أُسرع إلى حتفي..

*****

دخلت البيت الصغير الذي يأوينا، وأنا أنادي بعلو صوتي: أمي.. أمي..

متُّ قلقاً وأنا لا اسمع اجابة.. الهدوء يعمّ المكان بشكل مخيف قابض للقلب..

ساقاي ترتجفان، وأنا أهرول إلى غرفة المعيشة التي تجمعنا دوماً، وما زال نداء (أمي) يتردد من بين شفتيّ بلوعة.. وهناك تباطأت خطواتي وعيناي تقعان ابتداء على أمي

وهي تجلس على الأريكة تلبس عباءتها السوداء ووشاح رأسها كأنها تستعد للخروج أو تستقبل ضيوفاً..

ما بطّأ خطواتي ليس ملبسها بل نظرة عينيها المضطربة رغم الابتسامة العريضة على وجهها..

وجهها؟! لم تكن هناك كدمة واحدة على وجهها!

نادتني بتلك البشاشة المصطنعة.. فانتابني إحساس الشاة والجزار يناديها بابتسامة مخادعة..

كان يجب أن أستجيب لحدسي لحظتها.. كان يجب أن لا أتقدم أكثر.. لكني بكل غباء فعلت.. وجدت نفسها وسط غرفة المعيشة لأعرف سر ارتداء أمي لعباءتها.. لم تكن بمفردها.. بل كان عزّام بصحبتها..

لا أعلم كيف سأصور لكم إحساسي.. لا أعلم كيف يمكن أن أكتبه لتشعروا بما انتابني لحظتها، وأنا أحدق في عزّام، وقلبي يخفق كأنه غريق يصرخ بعلو صوته يبحث عمن يسمعه وينجده..

لقد خرج المارد وشعّ من عينيه سواد روحه الأغبر! خرج المارد وأقرأ في نظراته أنه عرف الكثير.. وما عرفه أشاع الجنون فيه؛ فقرر أن يأتي ليُعربد في حياتي من جديد

ضارباً بعرض الحائط كل حواجز وضعتها وداد لتمنعه عني..

لم ينطق أيّا منا بشيء للحظات طويلة.. فقط أنا وعزّام نتبادل النظرات.. نظراته الشرهة تمر فوق جسدي بتملُّك فاجر.. نظراتي المرتعبة تمر فوق وجهه المرهق الشاحب رغم لجاجة تعابيره المُقرفة.. شفتاه المبتسمتان باستهانة كانتا تميلان للزرقة، وعيناه بسواد نواياه كانتا غائرتين بشكل ملحوظ..

اخيرًا نطق؛ ودون أن يحول نظراته الشرهة الغاضبة عني أمر (أمي) بأسلوب صفيق: اخرجي.. دعينا بمفردنا..

يأتيني صوت أمي من بعيد... بعيد جدًّا.. كأنها انفصلت عن واقعي: لكن ليس هناك في الدار غيري يا عزّام.. لا يجوز أن تنفرد بها يا ولدي؛ وقد انتهت العدة..

شعّت عيناه بغضب الماردين الآن وهو يصرخ فيها: قلت لك اخرجي يا امرأة!

ثم رأيته يهبّ واقفاً على قدميه؛ فيبدو أن تردد أمي لم يعجبه؛ نخطى نحوها يجرها من ساعدها، وهو يطردها من بيتها! وأنا أقف مكاني وسط غرفة المعيشة..

أتعلمون ذاك الشعور، وأنتم تعبرون شارعاً وفجأة تتنبهون (متأخراً جدًّا) لسيارة مسرعة قادمة نحوكم، فيصيبكم نوعاً من التجمد، فلا تجدون حراكاً في أجسادكم؟ هكذا كان شعوري وأنا أرى عزّام يطرد أمي، وأسمع صوت قفل الباب، ثم يعود إليّ ليتقدم نحوي كسيارة مسرعة ستدهسني وتمزقني إرباً..

يتقدم ويتقدم والتهكم الغاضب يرسم مُحياه المُنفر.. شفتاه تهمسان بصوت كأنه الشيطان يجد منفذا عبر صوت بشري: لا يجوز أن أنفرد بك! كم هي مزحة ثقيلة..

كنت على مفترق حياة! أجل.. هو المفترق الذي يجب أن أقرر فيه مكاني في هذه الدنيا.. فإما أناله، وإما أترك الدنيا وما فيها..

ساقاي حتى اللحظة متخدرتان لا تطاوعاني على الحركة، لكن عقلي كان أسرع ليستوعب صدمة ما أعيشه اللحظة مع عزّام..

أما عزّام فقد كان منشغلاً بنفسه كالعادة، وهو يقف أمامي قائلاً بنفس التهكم الغاضب والتملك الفاجر: عقود الزواج لا تهمني.. أنت ملكي واشتريتك بمالي.. أم هل كنت تظنين أنك ستتحررين مني نهائيًّا، وتكسرين قيد ملكيتي لك بعملك التافه من وراء ظهري؟! أنت غبية

أشرقت إن ظننتِ هذا.. لقد خسرت الكثير خلال الأشهر الماضية، ولا أنوي خسارتك أنت أيضًا..

رعدةٌ في جسدي مع آهة وجع، وكفه يمتد ليقبض على أحد مفاتيي، كأنه يقبض على بضاعة مملوكة هادرًا بما جال في خاطري: في زمنٍ آخر كنت ستعدين جارية مملوكة لي.. فهل يُمنع المالك من استعادة ملكه؟ وهل يحتاج لعقد زواج؟!

يده القذرة ضغطت على زر اليقظة، فدبَّت روح المقاومة ليستجيب جسدي فأدفع عزّام في صدره بكلتي كفي، وبكل ما أملك من قوةٍ فانتزعت مفاتيي من قبضة يده عنوة وأخذت أتحرك لاهثة كي أخرج من هذا الفخ الذي أعدَّته لي أمي!

كان يلهث هو الآخر وهو يلاحقني، بينما أقول له بجرأة انطلقت على لساني للمرة الأولى مع عزّام: هذا في خيالك المريض فقط، أنا لن أكون لك مرة أخرى.. أنا لست مملوكة لأحد..

لم يكن يسمع إلا رغباته التي اهتاجت اللحظة.. كان يلاحقني بألف كف وكف تلامس جسدي تشتاق نهشه كما لم تفعل من قبل.. يلهث وهو يمنعني مغادرة غرفة المعيشة هادراً بأفكاره التي تثير التقزز في نفسي: أخذتك

طفلة في السادسة عشرة.. علمتك كل شيء تفعلينه في السرير لأجلي.. ورغم إني عاشرت عشرات النساء معك.. لكن أنت.. أنت الملك الأغلى، وقيمتك لا تفنى..

وجدت نفسي محصورة في الجدار بجسده ولهاثه البشع يسجن أنفاسي في صدري وهو يهمس بخشونة: هل تذكرين تلك الليلة.. ليلتنا الاخيرة معاً.. لقد كنتِ كاملة.. كاملة يا أشرقت.. لم أنسها أبدًا.. وكأنها عذاب سقطت فيه، أو لعنة تلاحقني..

لم أفكر وأنا أطوي ساقي اليمنى للأعلى؛ فأوجه ضربة أصابت هدفها بين فخذيه..

تحررت منه وأنا أصرخ فيه بغضب يعادل غضبه بل ويفوق لأهينه وأصغره وأنا أراه يتلوى أمامي من الألم: أنت مريض.. انظر لنفسك وأنت تبدو كعجوز بائس.. لقد أنهكتك المعاصي، ورغباتك المقرفة..

قلتها وأنا أغادر غرفة المعيشة أخيراً نحو المطبخ، وحالما وصلت للباب المقفل لم أجد المفتاح، ودون تفكير علمت أني يجب أن أقاتله ففتحت درج السكاكين لأخرج أكبر سكين للحم وأنا أستعد لعزّام..

وصلني صوته قبل أن أراه يدخل المطبخ، وقد استعاد

قوته ليقول لي بلهاث مشتعل بالغضب: هل هذا ما تعلمتِه بعملك الجديد، الذي تخفين عنوانه حتى عن أمك وعمك؟

رفعت يدا خذلتني بارتجافها بعض الشيء والسكين موجه نحوه وأنا أقول مدافعة باستماتة عما بنيته خلال الأشهر التي مضت، كما أدافع عن شرفي اللحظة: قد يكون لعملي فضل أن أتعلم الكثير.. لكن هو كدّي وتعبي.. مجهودي واختياري.. أنا اخترت وأحفر في صخر الحياة مساري..

كالثور الهائج صرخ مهاجماً بقوة مرعبة دون أن توقفه السكين في يدي ودخلنا في عراك غير متكافئ حتى قيد حركتي وأخذ مني (سلاحي)، ثم لف جسدي بعنف ليلصق ظهري بصدره، والسكين اللحظة باتت في يده، وموجهاً لعنقي وهمسه اللاهث المنتصر في أذني يقول: إذن تحتاجين لدرس جديد قد يغير مسار حياتك الذي تحفرين..

كان يسحبني للخلف، وأنا أقاوم حتى جرحني السكين لكني أصرخ: اتركني.. اتركني..

لكنه كان يسحبني إلى غرفة نوم أمي، وأنا أرفس وأقاوم بما أستطيع، والسكين يحز رقبتي ذهاباً وإياباً حتى رماني عزّام على سرير أمي.. ما كان سريراً لابي يوماً ها أنا اللحظة أذبح فيه..

عزّام أقفل باب الغرفة ثم أخرج المفتاح وأراد رميه فوق خزانة الملابس، وقبل أن يفعل قفزت من السرير لأهجم عليه كي آخذه منه؛ فسقط المفتاح أرضًا وقبل أن أنحني لألتقطه كان عزّام يرفسه برجله ليتزحلق المفتاح من تحت عقب الباب.. ضحك ضحكة قبيحة وأنا أقف مرتجفة لاهثة الأنفاس ثم قال: الآن أنا وأنت فقط.. محبوسان ها هنا.. شئنا أم أبينا..

تقدم إليّ والسكين في يده اليمنى، بينما اليسرى يفك أزرار قميصه، وعيناه تمران باشتهاء مجنون فوق جسدي، وهو يلهث بالقول: ألم أقل إني أعرفك؟! لو عاشرتك اللحظة وسأفعل حتماً.. ستتوسلين إليّ كي أتزوجك.. لن تحتملي أن لا تصححي خطئًا كهذا.. والدك أحسن غرز الحلال والحرام فيك قبل أن يرحل..

عقلي توقف عن التفكير، ولهاث الرعب في صدري يسابق لهاث الإثارة في صدره، بينما يكشف عن أعلى جسده، والعرق يتصبب من جبينه، تخنقه الرغبة المجنونة: تركك لي طفلة تفور بأولى مفاتن الجسد.. طفلة كنت حريصاً أن يبقى داخلها هكذا.. فقط طفلة.. طفلة ملكي.. لحبستها خلف الأبواب المغلقة.. أراقب كيف تزهو مفاتنها لاستقبالي..

أوشكت أن أتقيأ وسط دموعي التي أخذت تجري، وأنا أصرخ استنجاداً بأمي.. بأي بشر قد يرسله الله رحمة بي من هذا الوحش الآدمي الذي ابتليت به..

لكن لم تصل صرخاتي إلا للجدران.. لأدخل في خضم عراك جديد أشد ضراوة ولعزّام ترجح الكفة.. كان صراعاً عنيفاً مستنزفاً قاومت فيه بكل ذرة قوة في جسدي وروحي.. حتى سقط السكين من يد عزّام ولم يعد يحتاجه، فقد أمسك بالفريسة التي خارت قواها بعد ضرب مبرح فاق كل ما تلقيته منه سابقاً.. حتى عزّام كان جسده يئن من المجهود الذي بذله في ضربي..

أخذ يُقلّب جسدي يميناً وشمالاً في نشوى وأنا بلا حول ولا قوة كأني عدت في لحظة تلك الذبيحة الخرساء في محرابٍ سجنني فيه عزّام لسبع سنوات، أدارني أخيراً على بطني ثم جثم بجسده الثقيل فوق أسفل ظهري ليميل برأسه نحو رأسي وهمسه المنهك من العراك قرب أذني: أريد جسدك نابضا بالخنوع، هكذا كي يستقبل جسدي بالترحاب الذي يستحقه..

كفاه امتدتا للأمام يمزق قميصي من المقدمة، ويكشف ستري ليقبض على مفاتني دون حاجز، وهو يضيف بهوس: كتلك الليلة أشرقت.. هل تذكرينها..

ساعتها وأنا أشعر بعزّام يتحرك قليلا ليحاول نزع سروالي عني، قررت أني أريد الموت على أن يغتصبني.. نزلت دموعي مجددا وأنا أقول بهمس الاستسلام للموت: أنت غبي عزّام.. تظن أني مجرد طفلة بريئة تخشى الحرام.. هل حقاً تعتقد أني كنت أكتفي بك؟! أنت لا تعرف كم رجلاً عاشرت معك..

شعرت بتجمده فأغمضت عيني وأنا في قلبي أودع أخوتي أمانة عند الله، ثم صرخت بألم شديد وعزّام يشد شعري للخلف ليبرز عنقي، وقد استل السكين من جديد ليحز به بشرتي مهددا، وهو يسأل بصوت يتقطع على نحو غريب: هل.. كنت.. تخونينني؟!

فرددت وعيناي تدوران في أرجاء غرفة أبي كأني أبحث عن يده الحانية لتمتد وتأخذني معه: أجل.. كان هناك من يزورني في غيابك، ويتسلل من الباحة الخلفية عبر بيت... آآآه..

لم أستطع التتمة، وهو يشد أكثر وجسده يتشنج بعنف.. يسبني ويشتمني بأقذع العبارات.. الألم والإنهاك خدراني؛ فلم أعد أعي ما يحصل.. كل ما علمته انها النهاية فهمست مستسلمة لها كقربان يذبح ذبح الراحة الأخيرة: اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..

بعدها انتشر ظلام دامس وقعت في هوته السحيقة راضية مرضية..

*****

الموت له هيبته.. له رداء خاص لتعرفه.. ولقد رأيت بأم عيني هذا الرداء المهيب يقترب مني يلفني بترفق مُشفق ويهمس إنه الكفن..

تعالي يا ابنة آدم المظلومة فقد ابتليتِ في حياتك القصيرة بالكثير، فاحملي الشكاوى وأحضري الشهود.. تعالي يا ابنة حواء، وارفعي وجهك لينُير، فأنت بين يدي الذي لا يُظلم تحت حكمه أحدٌ.. هذا يوم العدل الرباني إن شاءه نصيباً في الحياة الدنيا وإن شاءه نصيباً في الآخرة.. وله وحده تقسيم النصيب..

على حين غرة وجدت نفسي في كشك صغير تفوح منه رائحة الريحان، وكنت أعد الشاي لشاهين وهو يضحك.. تلك الضحكة التي تجعله صبيانيا جدًّا.. نقياً جدا.. إنسانيا جدا.. حد رغبتك بالبكاء لأنه إنساني لهذه الدرجة..

سمارا تطلب الفطائر وهي تحمل صغيرتها فرح الضاحكة كأن ضحكاتها منبع الزغاريد..

باهر.. باهر يقف هناك منتظراً يحمل بين ذراعيه فستان زفاف أبيض.. لم يقل كلمة فقط يحمل الفستان وينتظرني أن أنهي عملي في الكشك كي ألبسه..

ألوح له بيدي أن يصبر، وأطياف تعينني لأقدم الطلبات كي أنهي العمل سريعاً وأذهب اليه..

فجأة أخذ باهر يحدق فيما يحمله فشعرت بنوبة اختناق، وعيناي تلمحان بقع دم انتثرت على الفستان بين ذراعيه، وقد تلطخ بياضه..

تجمدت وقتلني حزن لم أعهد له مثيلاً حتى صرخ بي باهر: أشرقت لم يتبقَ وقت.. انظري لساعة يدك.. انظري لساعة يدك!

*****

البوح العاشر

تِك تاك.. تِك تاك.. انظري لساعة يدك يا أشرقت فما زال الكفن يستطيع الانتظار سنين آخر حتى يأذن الرحمن..

تِك تاك.. تِك تاك.. انظري لساعة يدك يا أشرقت فما زال نجاح ينتظر سعيك وعطايا تنادي صبرك..

تِك تاك.. تِك تاك.. انظري لساعة يدك يا أشرقت.. فما زال للقلب حكاية، وللروح رواية..

تِك تاك.. تِك تاك.. انظري لساعة يدك يا أشرقت.. سيحين وقت القطاف، فالأشجار قد أثمرت..

*****

مر يومان طويلان للغاية، وأنا بين صحو وإفاقة.. وكلما فتحت عيني أجد وجهاً أليفا جواري..

أطياف.. سمارا.. شاهين.. باهر..

كل وجه يطل عليّ بتعابير مختلفة، لكن بمجملها كانت تبعث اطمئناناً في نفسي.. فأعود إلى غفوتي، وصوت عقارب ساعة في أذنيّ.. تِك تاك.. تِك تاك..

احتجت لثمان وأربعين ساعة حتى استطعت الكلام.. وكانت سمارا تقرأ لي من كتاب أحبه عندما أوقفتها بسؤالي الهادئ: ماذا حصل؟

ابتسمتْ لوجهي قائلة ببشاشة، وهي تغلق الكتاب: أخيراً نطقت الاميرة النائمة.. ظننتك ستنتظرين قبلة الأمير..

أرخيت أجفاني أضم دمعة تكاد تفلت مني.. لم أكن يوماً أميرة ولن أكون..

صوتي خرج متحشرجاً بالسؤال الصادم لي قبل أن يكون صادماً لسمارا: هل اغتصبني؟

شعرت بكف سمارا يضغط على ذراعي في تآزر، بينما ترد بحمائية: لكنت قتلت ذاك الحيوان لو فعلها..

حشرجة بكاء في صدري المتألم تثقل أنفاسي وأنا أعود للسؤال الأول: إذن ماذا حصل؟ إن لم يغتصبني، ولم يذبحني.. فماذا فعل؟

جاء صوت سمارا هادئا متأنيا في نقل ما غاب عني: عزّام أصيب بنوبة قلبية أشرقت.. وهذا ما أنقذ حياتك.. لقد سقط هاوياً فوقك لتفقدا الوعي معاً..

فتحت عينيّ لأتساءل مرتاعة دون تفكير: هل.. مات؟

ردت سمارا وهي تنظر إليّ بتعاطف كامل: لا.. فلجوء أمك للجيران، كي يكسروا باب البيت مدعية أنها نسيت المفتاح في الداخل أنقذ حياته، كما أنقذ حياتك..

هذه المرة أوشكت أن أختنق وأنا أقول بخزي شنيع: الجيران! يا إلهي.. فضيحة..

عادت سمارا لتضغط على ذراعي تهدئني بالقول: لا تخافي.. في هذا أجادت والدتك التصرف.. لحسن الحظ وجدت مفتاح الغرفة حيث حبسك عزام معه ويبدو أنه رمى المفتاح من تحت عقب الباب، وعندما رأتكما بذاك الوضع، اتصلت بالإسعاف بمفردها.. وأخفت جهدها آثار محاولة الاغتصاب عنك، واكتفت بالقول أمام من يسأل أنكما تشاجرتما شجار المتطلقين حديثاً.. حول النفقة وغيرها..

ثم نظرت في عيني بعزم لتضيف: ستتقدمين بشكوى ضده، وتجبرينه على توقيع وثيقة عدم التعرض.. كنت أهز برأسي وقد بدأت أعود تدريجياً للواقع، كي أفكر بحياتي

القادمة وما تستوجبه مني.. سألتها بحذر وعيناي للمرة الأولى تدوران بتدقيق في الغرفة البيضاء النظيفة: هل هو هنا؟

ردت سمارا تشرح لي ما كنت مغيبة عنه: عندما أتى الإسعاف لبيتك نقلتكما معاً إلى مستشفى حكومي.. لكننا تصرفنا ونقلناك مباشرة إلى هذا المستشفى الخاص تاركين الحقير هناك مع زوجته المريعة..

كلمة (خاص) قرعت نواقيس الخطر، وأنا أتلفت حولي بتدقيق أكثر لأدرك انها مستشفى من طراز رفيع، فأتمتم ببعض الهلع، وعقلي يحاول تخمين المصاريف: مستشفى خاص!

هدأتني سمارا مجددا وهي تقول بإيجاز: لا تقلقي.. شهرزاد تصرفت.. سنتكلم لاحقاً بهذه الأمور.. فقط اهتمي بصحتك الآن..

لكني لم أرتح تماما، وبدأت أفكر أن أستعد للخروج اليوم.. فجأة خطر لي سؤال مفاجئ لأطرحه على سمارا، وأنا أشعر بثقل لساني في نطقه: أين.. أمي؟

بدت سمارا محرجة بعض الشيء وهي ترد: إنها تشعر بالذنب.. فتلازم البيت مع أخوتك.. قالت إنك لن تودي

رؤيتها بعد اليوم.. في الواقع أنا انفجرت فيها، وقلت لها كلاماً جارحاً.. سامحيني.. لم أحتمل..

شعرت بوجع في صدري وشفتاي كأنهما ترتعشان فلا تعينانني بالكلام وأنا أقول: بعد أن طردها.. عزّام من البيت.. وأقفل باب البيت بالمفتاح ليبدأ ذاك الصراع.. البشع بيني وبينه كنت في داخلي أقول (أمي مؤكد ستحضر النجدة).. ربما لم أكن أفكر فيها بهذا الوضوح.. لكن.. هل تخيلين؟! تقفين خارج بيتك و.. و.. وحش آدمي ينهش طفلتك!

نزلت دموع سمارا أمام عيني وتزم شفتيها كأنها تمنع شهقات البكاء بينما أنا استعيد حساب كل الوقت الذي قضيته في صراعي مع عزّام فأكمل بشهقات بكاء متقطع: لكنها لم تفعل الا بعد مرور وقت طويل.. وقت كان أكثر من كافٍ كي يغتصبني عزّام ثم يذبحني بعدها ويشرب القهوة في عزائي..

مسحت سمارا دموعها، ثم مالت لتقبل جبيني، وتهمس لي بالقول: وددت لو أستطيع القول (سامحيها).. لكني أم ولا أتخيل كيف يمكن أن أترك فرح في موقف كهذا لا سمح الله..

أخذ صدري يهتز بالبكاء، وأنا أقول بألم: أشعر بالخزي..

من.. نفسي.. لأنها أمي..

أخذت سمارا تكفكف دموعي، وتقول بتشجيع صلب: بل اشعُري بالفخر.. من الواضح أنك قاومت بشراسة دفاعاً عن نفسك فلم تمكنيه منك.. الحقير وقع صريع النوبة قبل أن يقتلك.. لقد منعت شاهين بالقوة أن يدخل عليه غرفة الإنعاش كي يذيقه بعض ما أذاقك..

تنبهت كل حواسي ساعتها فسألت بهلع جديد: هل.. ذاع الخبر؟! هل علم.. شاهين.. باهر!

وكأن سمارا في ذاك اليوم، كانت ملاكي الحارس الذي يطمئنني في كل لحظة.. ردت بابتسامة حانية: لا تقلقي واسترخي تماماً.. فقط أنا من عرف التفاصيل.. لأني واجهت والدتك، فاعترفت لي كيف وجدتكما في السرير.. حتى شهرزاد تظن أنه كان يضربك فحسب.. لقد أخفيت الأمر عن الجميع.. لكن أظن تلك الحيزبون المريعة وداد قد أدركت حقيقة ما كان يحاول ذاك الحيوان فعله..

أعترف أني هدأت أكثر.. أرخيت أجفاني ببعض الاسترخاء عندما قالت سمارا بنبرة ذات معنى: باهر لم يفارق المستشفى قدر استطاعته، وكان يقرأ القرآن قريباً منك في غفوتك..

شعرت ببعض الدفء في خديّ عندما أضافت سمارا بنفس النبرة: لقد وضع لك ساعتك هنا.. في الدرج..

قالت هذا، وهي تمد يدها إلى درج المنضدة الصغيرة جواري لتفتحها وتخرج منها الساعة الجلدية وتقدمها لي مضيفة: لقّد أحضرها بنفسه من بيتك.. أعطاها له أحد أخوتك الصغار.. يبدو أنها سقطت منك أثناء العراك وانكسرت؛ فأصلحها باهر وأحضرها لك صباح اليوم..

كان قلبي يدق بقوة، وأنا أسال بإحساس امتزجت فيه مشاعر كثيرة: باهر ذهب لبيتي وكلم أخوتي؟!

اكتفت سمارا بهز رأسها بنعم، ثم أخذت تلبسني الساعة حول معصمي وهي تقول: يبدو أن الساعة مهمة لك، ليهتم بها باهر هكذا..

مددت يدي الأخرى لأمسك يد سمارا، وأقول لها بحزنٍ مستقرٍّ في قلبي كخنجر: أبعدي باهر يا سمارا.. قولي له أن يجد فتاة أخرى تليق به.. فتاة بريئة كبراءته.. نظيفة دون ملوثات أقدار معقدة فُرضت عليها فرضاً..

للحظات صمتت سمارا وهي تتطلع إليّ.. ثم قالت بنبرة مختلفة عن كل ما سبق: باهر في الثانية والثلاثين يا أشرقت.. يبدو أصغر سنًّا.. أليس كذلك؟ كما قد يبدو

نجولا لطيفا انطوائيا بعض الشيء لكنه رجل مدرك.. أنت لا تعرفين ظروفه لتحكمي عليه..

حاولت أن أفهمها استحالة الأمر، وأنا أقول بانفعال: لا يهم ظروفه.. ما يهم أنه أفضل بكثير من أن يفكر بفتاة مثلي.. أنا لست فتاة من الأصل.. أنا امرأة مطلقة مُعنّفة، وفي رقبتي أخوتي.. لي من الهموم ما تهتز لها الجبال..

اكتفت سمارا بالطبطبة عليّ، وهي تنهي الكلام في الموضوع الآن قائلة: اخرجي من هنا بالسلامة، وتعافيّ، ثم نبدأ صفحة جديدة لنكتب فيها ما تشائين كتابته..

شعرت أنني مجهدة للغاية، ودون أن أفكر حتى غفوت من فوري وطبطبة سمارا ترافقني كتهويدة طفل..

*****

ستة أيام مرت قبل أن أفاجئ الجميع بحضوري الصباحي إلى مكتب شاهين.. ستة أيام خرجت فيها من المستشفى، وقضيتها مع أخوتي في البيت يضحكونني ويدللونني بطريقة تستجلب الدموع لعيني كلما تذكرت تفاصيلها الآن.. هؤلاء هم لحمي ودمي.. أولادي قبل أن يكونوا أخوتي..

تجربة الاقتراب من الموت بهذه البشاعة جعلتني أُثمّن

كثيراً معنى الحياة، وأخوتي هم أجمل معانيها.. هم مصابيح الخير في دنياي التي تعتمد عليّ، وتنير لأجلي في ذات الوقت..

أمي ابتعدت دروبها عن دروبي.. تحاشاني كما تحاشى النظر في عيني، ولو صدفة.. لم أكلمها ولم تكلمني.. ففي الصمت أبلغ العبارات وأوقع الرسائل..

تسألونني عن عمي حسن؟! هو غاب طوال هذه الأيام مدعياً السفر لمدينة قريبة من العاصمة لأجل العمل.. لكني أظنه يتهرب من وجوده قريباً خوفاً من بطش عزّام، أو ربما بطش أشد من وداد.. تلك المرأة الجبارة التي لا أعرف كيف ستتصرف في القادم.. ولكني اكتفيت بتسجيل شكوى رسمية ضد عزّام لتهجّمه عليّ في بيتي.. وتركت الحياة تمضي، ولكل حادث حديث..

أخذت نفساً عميقاً، وأنا أواجه اعتراضات شاهين وسمارا على عودتي المبكرة والذي تحول كالعادة إلى جدال طفولي بينهما، وهما يواجهان بعضهما، ثم ابتسمت وأنا أرفع يدي قائلة: هل أستطيع الجلوس أولاً فما زلت لم أستعد قواي بشكل كامل..

توقف الاثنان عن الجدل ليلتفتا إليّ معاً بوجهيهما العابسين، وزوجين من الحواجب المعقودة ليقولا بصوت

واحد: ما الذي أتى بك إذن؟!

ضحكت رغماً عني، وما زال جسدي يتوجع من الرضوض والكدمات عندما قطع عليّ ضحكاتي صوت باهر الهادئ: حمدا لله على السلامة.. فعلتِ خيراً بحضورك..

نظرت إليه وهو يقف على مسافة منا مرتدياً نظارته الطبية التي يستخدمها أثناء العمل.. كانت المرة الأولى التي أراه منذ يوم الحادث.. لا أعلم إن كان تعمد الاختفاء أو أنها مجرد صدفة.. حتى إن لم يحضر يوم خروجي من المستشفى ليُرافقاني فقط كل من شاهين وسمارا إلى البيت..

هتف شاهين فجأة ليجفلني بقوة، وهو يقول بصوت جهوري ونبرة صبيانية: (فعلتِ خيراً بحضورك)؟! ما الذي تقوله يا باهر.. اخلع نظارتك كي ترى! انظُر إليها.. إنها أضعف من ولدي يوسف..

ضحكت، بينما تقدم باهر، وهو يطرق بوجهه في ابتسامةٍ خجولةٍ مألوفة منه كانت تخدعني سابقاً أنه شخص ضعيف لأكتشف لاحقاً كم هي ابتسامة مُحببة وقريبة من القلب، ثم قال: أشرقت فتاة قوية من الداخل يا شاهين.. ولديها الكثير لتنجزه.. ووقتها ضيق.. ضيق للغاية..

كنت مُمتنة له للغاية لأنه اختصر عليّ الكثير، فقلت بتأثر صادق نابع من قلبي: لأجل هذا أنا هنا اليوم.. ليس لديّ غيركم يُعينني على حملي.. أنا أحتاج المساعدة..

*****

خلال الساعة اللاحقة، وفي غرفة مكتب شاهين، كنت أشرح لهم بكل شفافية مسؤولياتي المالية خاصة بعد انقطاع النفقة المتوقع من عزّام.. شرحت لهم كأصدقاء مقربين، وليسوا أصحاب عمل..

اخبرتهم بما شغلني التفكير به الأيام الماضية.. أن أجد وسيلة لمصدر رزق تكفينا وتسد رمقنا أنا واخوتي دون ان نحتاج لأحد..

وكما توقعتهم.. باهر يصمت مفكراً بحل منطقي واقعي، وسمارا تعبس كأنها تحاول العثور على بداية الخيط لذاك الحل، وشاهين أول المندفعين ليعرض مساعدته دون تخطيط: أنا كفيل بك وبإخوتك وقسماً بالله إن..

قاطعت كلامه العاطفي الذي أقدره كثيرا لأتكلم بواقع الحال: أرجوك شاهين دعنا نكون منطقيين.. أنت وسمارا وباهر كل واحد منكم رزقه محدود لعائلته.. ليس منطقيا أن تتحملوا مسؤولية عائلة كبيرة كعائلتي.. كما إنني لا أريد

صدقات وإحسان.. إن رضيت تحمل مهانة كهذه لأجل إخوتي، فلن أرضى لهم بشعور الانكسار والذلة..

نظرت إليه بكل روحي لأوصل إحساسي وأنا أقول: إن كنت تريد مساعدتي حقاً فساعدني في لقمة عيش أفضل.. لأن عملي هنا لن يكون كافياً خاصة بعد انقطاع نفقة عزّام..

ثم أطرقت وأنا أضيف بواقعية: والمشكلة أني لا أملك مؤهلات لوظيفة أفضل.. لا شهادة ولا تعليم ولا لغة.. وليس هناك وقت لأسعى في نيل مؤهلات جديدة كي أحسّن دخلي، ناهيك عن حقيقة أن أصحاب الشهادات العليا هذه الأيام لا يجدون فرصة عمل إلا بصعوبة؛ فكيف بي أنا؟!

سألتني سمارا عندها، وكأنها تقرأ في كلماتي بداية الخيط الذي كانت تبحث هي عنه: أخبرينا كيف نساعد إذن..

عفوياً عيناي ارتفعتا لتلتقيا بعيني باهر الذي يقف صامتاً في الزاوية.. أصابع يدي اليمنى أخذت تمر فوق الساعة الجلدية في معصمي الأيسر؛ بينما أخبرهم جميعاً بالفكرة التي استوحيتها من حلمي: أريد أن أفتح عربة لبيع المخبوزات والشاي والقهوة.. أريده بذرة مقهى بسيط..

كنت أنتظر الإشارة فحصلت عليها من تلك الابتسامة الرقيقة على فم باهر فشعرت بنبض قلبي يتسارع.. شعرت بدعمه يبث فيّ قوةً مضاعفة.. ولن أنكر أني احتجت لهذا من باهر تحديدًا.. شعرت بطريقة ما أنه معلمي.. مُلهمي.. أحد تلك المصابيح التي وصفت بها أخوتي.. لكن باهر مصباح لا يعتمد عليّ بل يُنير من تلقاء نفسه ليُريني الطريق.. هللت سمارا بابتهاج وحماسة: إنه مشروع ممتاز..

أصابعي تتوتر فوق الساعة؛ بينما أقول بارتباك وخوف حقيقي من المشروع: لكنه يحتاج الكثير.. على الأقل بالنسبة لي كثير..

ردت سمارا بثقة: سنجمع المال لا تخافي..

كنت أهز برأسي رافضة حتى قبل أن تتم سمارا جملتها، وقلت بإصرار: لا أريد جمع المال منكم.. ألم أقل لك إني لا أريد صدقات.. أرجوكِ.. سمارا افهميني..

ثم شعرت بالحرج الشديد، وأنا أضيف بطلبي الحقيقي: أنا فكرت فقط أن.. أجد ضامناً لي كي.. أطلب قرضاً.. من بنك..

ثم رفعت رأسي، وأنا أكمل ببعض التردد خشية من خطأ فهمي للمعلومات: قرأت أن هناك قروضاً خاصة

للمشاريع الصغيرة.. أليس كذلك؟ أم أني فهمت هذه الأمور بشكل غير دقيق..

أوشك شاهين أن يُعلق وهو جالس خلف منضدة المكتبة، عندما سبقته سمارا الجالسة جواري لتقول بابتسامة عريضة: لن تحتاجين لقرض بنوك.. اسمعيني للنهاية يا أشرقت.. قبل سنة أو تزيد قررنا أنا وصديقات لي من أيام الثانوية إنشاء مجموعة على تطبيق (الواتس أب) هدفها جمع المال لأي منا أو حتى لمعارفنا.. الغاية هي المساعدة بإنشاء مشاريع صغيرة.. وأحيانا يكون لعلاج.. أو عملية جراحية.. إنها ليست صدقات فقراء كما تظنين.. بل مشروع تكافلي لندعم بعضنا البعض عند الحاجة.. المجموعة توسعت وضمّت نساء أخريات، ومنهم شهرزاد، وأختي هديل.. والكل يشترك بمبالغ صغيرة نسبياً..

حاولت الاعتراض، وأنا أشعر بحرج شديد: لكن سمارا..

فقاطعتني سمارا قبل أن أتم اعتراضي: في يوم ما ستحققين مشروعك بإذن الله ويمكنك عندها الاشتراك معنا، ومساعدة فتاة أخرى كي تبني لها مشروعاً..

ضرب شاهين براحة كفه على جبينه وهو يقول: كيف نسيت هذا؟! هديل صدّعت رأسي بهذا المشروع

(النسوي)، وكأنها حلت مشكلة البطالة والفقر في البلاد!

عبست سمارا لترمقه بنظرة مُوبخة، وهي ترد عليه: رجل عنصري لرجولته! أنت تغار فقط لأنكم معشر الرجال لا تملكون هبة التنظيم المُنتج..

تكلم باهر أخيراً وقد أنظم حامد للجمع ليقف جواره: وأنا سأعينك في الحسابات وحساب التكلفة، وكل الأمور المادية الأخرى..

يعلق شاهين متفاخراً، وهو يشير لباهر محاججاً سمارا بالقول: أرأيت؟! وأنت من تتهمين الرجال أنهم لا يملكون (هبة التنظيم المنتج).

وبينما سمارا ترد على مشاكسة شاهين غرقت أنا مع نفسي.. عقلي أخذ يعمل بسرعة يفكر بالتفاصيل، وقلبي يغور عميقاً، وهو غير مستعد لمغامرات العقل وخطواته الجريئة.. خنقني شعور خوف رهيب ليغمرني ارتباك أشد حتى قالها باهر وهو يراها في عيني: لا تخافي..

عندها تنبهت سمارا لحالتي؛ فتترك مشاكسات شاهين لتركز معي من جديد متسائلة: من أي شيء تخافين؟

أطرقت ووجوه أخوتي تتجسد أمامي؛ فأشعر بثقل الحمل،

وأنا أعبر عن مخاوفي: أخاف بعد كل هذا التعب أن لا يكون كافياً لأعيل أخوتي..

طمأنتني سمارا وهي تربت على كفيّ المتوترين في حجري: سيكون بإذن الله.. فقط لا تيأسي..

أخرج شاهين دفتر صكوكه، وهو يقول مدعياً الغيظ: نساء أم لا.. أنا مشترك في هذا..

شعرتُ بالدموع تملأ عيني، وأنا أراه يقف تاركاً كرسيه ليقترب مني وفي يده الصك قائلا: مبلغ بسيط للغاية، فلا تتأملي الكثير، ويخدعك امتلاكي لدفتر الصكوك..

نظرت للصك وهو يشهره قريباً من وجهي وقد كان مبلغاً بسيطا بالفعل نسبة لما أحتاجه في المشروع؛ لكن بالنسبة لي كان كبيراً جدا بمعناه.. وجدتني عاجزة عن قول شيء.. عاجزة حتى عن النطق بالرفض.. لكني كنت أهز رأسي يميناً وشمالاً حتى مال إليّ شاهين بجسده الضخم ليضع الصك في يدي قائلاً بإخلاص رقيق: لو كنت أملك المبلغ كاملاً لما ترددت بإعطائه لك..

شعرت بالدموع تغسل وجهي، وشاهين ينظر إليّ بارتباك من هذه الدموع فيواجهها بأسلوبه الخاص، وهو يقول بفكاهة: فلتمُت هديل غيظاً.. سأكون عالةً عليك كل يوم

لآكل من يدك، ولن أقرب طعامها البائس مرة أخرى..

*****

تغريدة

نحن مخلوقات نعيش حياتنا في محطات.. اصبروا على رفيق السوء في الرحلة فليس دائمًا بقاؤه لنهايتها.. ورحبوا بأي رفيق جديد، فربما فيه كل الخير..

#لا_مانع أن ترموا رفيق السوء من الشباك إن رفض النزول وأصر على رفقته غير المرغوبة..

قرأت التغريدة في شوقٍ شديد.. مضى أكثر من أسبوع، وقد اشتقت حقاً للدكتورة فريدة وتغريداتها.. ضحكت في آخر التغريدة مع دخول باهر للمطبخ..

وضعت الهاتف على المنضدة، وأنا أنظر لباهر ببعض الارتباك الفُجائي.. للمرة الأولى منذ دخولي صباح اليوم لمكتب شاهين أفكر (كيف يبدو وجهي)؟! فكرت هل الكدمات واضحة رغم محاولاتي لإخفاء ما تبقى من آثارها؟ ثم تعمقت أفكاري إلى ذاك اليوم الذي خرجت فيه من هنا بعد خدعة أمي كي أعود للبيت.. تذكرت كيف عرض شاهين مرافقتي، وكيف عرض باهر أن

يلحق بي بسيارته، ليكون قريباً إذا حصل مكروهًا..

لكني.. رفضت.. والغريب أني لا أعرف إن كنت نادمة لرفضي، أم شاكرة لله أن أيا منهما لم يلحق بي، ليراني بتلك الصورة البشعة مع عزّام..

تقدم باهر وهو يقول مُحاكياً أفكاري: سأظل أبد الدهر ألوم نفسي، لأني لم ألحق بك ذلك اليوم.. يا أشرقت..

لقد شعرت أنها اللحظة التي يجب أن أضع النقاط على الحروف.. أليس هذا ما يقال في مواقف كهذه؟ لكن لم تكن مجرد نقاط حروف.. بل نقاط حياة.. وحياتي هي رحلة مضنية رافقني فيها رفقاء السوء طويلاً، وللتو حظيت برفقاء جيدين.. لكنهم سيظلون رفقاء.. يسندون، أو يدعمون ربما.. لكن لن يأخذ أحد منهم منزلة شريك الرحلة للنهاية.. ستأتي المحطة التالية، ويغادرون الرحلة ليركبوا قطاراً آخر ويرافقوا أناساً أُخر..

للمرة الأولى في حياتي شعرت بالفخر من هذه الكدمات المخفية.. حتى إني أوشكت أن أركض للحمام لأمحو ما يغطيها.. أريدها بارزة كأنواط الشجاعة والبسالة التي تُمنح للجنود والضباط بعد عودتهم منتصرين من معركة خاضوها بجسارة..

وجدت نفسي قوية، وأنا أبتسم قائلة في إشارة للكدمات كمزحة: هل وجهي سيء لهذه الدرجة!

رد باهر وعيناه الضيقتان تعبران أكثر من لسانه: بل ذنبي هو السيء لهذه الدرجة..

أخذت نفساً قصيراً ثم زفرته قائلة: لا داعٍ لشعورك بالذنب.. أنا من رفضت عرضك..

ثم بدأت بوضع أولى النقاط، وأنا أضيف دون خجل: كما أنها ليست المرة الأولى التي أتعرض لهذا من عزّام.. وجهي وكل جسدي واجها الكثير من العنف حتى اعتادا عليه.. إنها أنا ببساطة..

قلتها وعيناي في عينيه.. كأني أكرر كل كلمة عبر هذا الصمت القصير الذي تلا تصريحي المخفف عن كوني امرأة مُعنفة.. أو (كنت) امرأة معنفة، وحاليا أنا امرأة تتعافى..

ولم أقلها لأجل نفسي وحسب؛ بل لأجل باهر أكثر من نفسي.. وقد فهمها هو ليقول بهدوء: إن كنتِ تحاولين إبعادي بهذه الطريقة، فأنتِ تفعلين العكس..

لقد كان يضع نقاطه هو الآخر! فاجأني باعترافه الصريح

بهذا الهدوء وهذه البساطة..

ولا أعرف لِمَ ارتبكت أمامه هكذا، وكانت ردة فعلي خشنة وأنا أقولها بانفعال ساخر: أهي الشفقة أم رغبةً بالأجر والثواب؟

ابتسم ابتسامة صغيرة، وهو يطرق بنظراته قائلاً كم يسخر من نفسه: أنا.. لا أُجيد كلام العواطف..

كنت أشد خشونة وأنا أرد بوقاحة: وأنا لا أُصدقها..

رفع عينيه إليّ لينظر إلى (انفعالي) مطولاً قبل أن يرد بصوت خافت: المشكلة أني أنا أُصدقها..

لقد كانت له الكلمة الأخيرة بجملته تلك..

شعرت بالغيظ، وأوشكت أن أدفعه بعنف أكبر، عندما حرك يده لأنتبه أنه يحمل كتاباً فقدمه لي، وهو يقول بنبرة شعرتها حميمية للغاية: أحضرت لك كتاباً جديداً.. هذه المرة رواية، وهي هدية مني وليس للاستعارة.. من أشهر اعمال الكاتب الفرنسي غيوم ميسو..

يدي سبقتني لتأخذ الكتاب منه، قبل أن أمنعها فتقع عيناي على العنوان اقرؤه بتورد عفوي: لأني أُحبك..

وتحت العنوان شدتني صورة لوجه فتاة لا يظهر منها إلا عين واحدة عبر شق في جدار شفاف أحدثته هي بنفسها، وقد شقته بأصابع كفيها الاثنين.. كأنها تبحث عن مخرجها بنفسها.. تشق الجدران الخيالية التي تمنعها الحرية والتنفس.. لقد رأيت الغلاف كمرآة لي.. وتلك النظرة في عينها شعت بالإصرار مع التوجس والحذر كأنها تبوح بحالتي..

وكأن باهر تحول لعازف تعويذة المزمار يشد وعيي للطريق الذي يريدني أن أسلكه: اقرئيها أشرقت، ستجدين فيها ردودا أكثر فصاحة من ردودي..

رفعت عيني إليه، وأنا لا أصدق أنه متشبث بي (أنا) بهذه الطريقة! ما الذي يراه بي حقاً لأستحق إلحاحه الناعم هذا..

وكأنه يقرأ عجبي؛ فيبتسم لذاك العجب، ثم يتجاهله قائلا بخفة: شهرزاد حضرت.. قلت ربما تريدين رؤيتها..

*****

كنت أدخل باب غرفة مكتب سمارا عندما تناهى لسمعي جملة شهرزاد المعترضة: لماذا لا تدعيني أدفع لها

المبلغ الناقص؟! أنتن ادفعن ما تستطعن، وأنا سأكمل الباقي..

لم تنتبه أيا منهما لوقفتي المترددة عند الباب؛ بينما سمارا ترد بقرار قاطع أشبه بقرارات الأمهات الحازمات: لأنك وعدتني عند دخولك المجموعة، بأنك ستدفعين كما تدفع باقي الفتيات..

حاولت شهرزاد الاعتراض مجددا: لكن سمارا..

فقاطعتها سمارا قائلة: سنجمعه لا تخافي.. سنتدبر الأمر..

لم يكن لدي أي شك أني المعنية بهذا الحوار.. شعرت بحرج بالغ، ورغبة أن أهرب من الموقف، وأنسى المشروع برمته..

- لماذا تقفين عندك هكذا كتمثال رخام لا نفع فيه الا بإعاقة الرؤية! تعالي وادخلي فلدينا نقاشات طويلة نبدؤها اليوم..

كانت كلمات سمارا المتدفقة كرذاذ ماء منعش يخفف من حالة الحرج، ورغبة الهرب التي سيطرت عليّ آنياً..

تقدمت وسط الغرفة، وشهرزاد تتحرك نحوي بالمقابل،

وقبل أن ينطق لساني بالشكر لها؛ فاجأتني باحتضانها لي ثم قبلتني على الخدين بحرارة وهي تقول بنبرة حلوة تذيب جليداً متراكماً من مئات السنين: كنت سآتي إليك بنفسي.. حمدًا لله أنك بألف خير.. مشرقة حلوة هكذا كإشراقة شمس الصيف..

غريزياً انكمشت.. ليس منها بالتأكيد.. بل من هذا الدفق الحار الذي لم أعتده في حياتي..

حرت كيف أرد وبماذا أعبر.. تنحنحت وأجليت صوتي عدة مرات، قبل أن أنطق بكلمة (شكرا) بينما شهرزاد تسحبني من يدي بأريحية؛ لنجلس جوار بعض على أريكة صغيرة ضيقة في مكتب سمارا، وأما سمارا فتستند بجسدها على حافة مكتبها الصغير مكتفية بالصمت..

لم أستطع رفع وجهي في وجه شهرزاد، وأنا أغرق بمزيد من الحرج قائلة: سيدة شهرزاد..

قاطعتني مصححة: شهرزاد فقط..

ابتلعت ريقي وأنا أشعر بكدماتي تئن! كأنها تذكرني بالدين الكبير الذي في رقبتي..

حوار مقتضب مع (نفسي): الحمل يثقل يا أشرقت..

عسى أن يفرجها الله من عنده..

ثم نطقت بالحوار الفعلي، وأنا أرفع وجهي أخيراً لشهرزاد، وأقول لها: شهرزاد أنا مدينة لك بالكثير.. ربما لن أرد جميلك يوماً؛ فمثلك لا يحتاج مثلي.. لكني سأدعو لك دوماً بالخير بالإضافة إلى.. تسديد المال طبعا الذي دفعته لي في..

قاطعني صوت شاهين هذه المرة، وهو يقف عند الباب منادياً سمارا بنبرته الجهورية عندما يحتاج أمراً عاجلا: سمارا! كفاك ثرثرة.. تعالي إليّ، احتاجك في المكتب.. لدينا مكالمة مهمة ننجزها معاً..

غادرتنا سمارا وهي تتمتم حانقة، لتلحق بشاهين، وتتركني بمفردي مع شهرزاد..

قالت شهرزاد عندها: أنت صغيرة لتدركي كل شيء في الحياة يا أشرقت..

نظرت إليها، ولمحت نظرة حزينة في عينيها الجميلتين، وهي تضيف بنبرة مِلؤها الصدق: في يوم ما وكنت أملك كل شيء قد تحلم به أي امرأة، لكني وجدت نفسي محطمة، ولم تنفعني الأموال التي ورثتها عن أبي دون مجهود مني، لألملم حطامي المبعثر.. لم ينفعني شيء إلا الصحبة الطيبة

التي وجدتها هنا..

ثم داعبت شفتاها ابتسامة فاتنة وهي تضيف بحنين وعيناها تدوران في المكان: أجمل أيام حياتي كانت هنا.. في هذا المكتب البسيط.. ورغم انشغالي الشديد بمكتبي الذي افتُتح قبل أشهر قليلة؛ إلا أني دوماً أجد في عقلي فسحة صغيرة لاستذكر مكاني هنا.. كأني أذكر نفسي بشهرزاد الحقيقية التي وجدتها بعد عناء ومعاناة وتخبط أغلب سنين حياتي.. حتى لا أنساها مجددا، وأنا أغرق بعالم مبهرج خاطف يخدع بغرور الاكتفاء والكمال..

أعترف أن الفضول ملأني لأعرف حكاية شهرزاد، وما الذي عانته بالضبط.. لكنها لم تمنحني الفرصة لأغرق في هذا الفضول، لتدير دفة الحوار نحو المقصد المهم: لذلك لا تقللي من أهمية شيء على الإطلاق.. ولا تقولي مجددا إني لن أحتاجك بيوم..

ثم تحولت تعابيرها للجدية المطلقة؛ وهي تتكلم كامرأة اعمال محترفة لا تضيع وقتها: انسيْ أمر المال فيما يخص المستشفى لأني لم أدفع فلساً.. صاحب المستشفى هو صديق لوالدي رحمه الله، وقدم لي خدمة شخصية باستقبال صديقة لي تمر بظروف صعبة..

وقبل أن أعلق أكملت: الآن دعينا نتحدث بمشروعك..

سأترك لسمارا موضوع جمع المال، ومؤكد باهر سيساعد في الحسابات فهو بارع فيها.. أما أنا فسأعينك بأمور أخرى.. تسهيل معاملات وغيرها.. سننجزها بأسرع وقت، وأنا أضمن لك هذا..

شعرت في لحظة أني أطير على بِساط.. ليس بِساطًا سحريًّا خياليًّا لعلاء الدين.. بل بساطًا واقعيًّا يُسابق الريح، ولا يمنحني وقتاً كي ألتقط أنفاسي.. كان أمامي خيارين في لحظة القرار هذه.. إما أن أعلن عدم قدرتي على مجاراة سير الأمور، والخوف من توابعها، وإما أن أمسك بطارف البساط لأكون قائدة الرحلة.. فأي الخيارين ترون؟!

*****

بعد شهرين

كتبت تغريدتي الأولى في حسابي..

تغريدة

اقتباس من رواية «لأني أحبك» للكاتب الفرنسي غيوم ميسو

يُقال أحياناً إنّنا في لحظاتِ الموت، على نحوٍ مُتسارِع،

نرى مُجدّداً اللحظات المهِمة من وجودِنا.

دائمًا ما تكون ثمَّة لحظة حيثُ _ أخيراً _ يُشيرُ الوعد إلى مخرَج - ليس ثمَّة جرحٌ لا يمكِن التَّخلُّص منه

الحب هو ما ينسِج العلاقات العائليَّة وليس الدم

كتبت التغريدة من أول باقة انترنت هي الأرخص على الإطلاق لأشترك فيها، كتبتها وأنا أعد كوب الشاي الأول للزبون الأول..

كان قلبي يرتجف، وأنا أمنع يدي من ارتجاف مماثل.. قدمت للزبون الأول طلبه وأهديته قطعة بسكويت خبزتها بنفسي..

عيناي تعلقتا باللافتة، وقد أطلقت عليه اسم (كشك ريحانة).. لم يخطر ببالي غير هذا الاسم لأختاره وكأني أعاند كل الأقدار التي سلبتني الحق كي أشعر كريحانة..

ثم ابتسمت بفخر، وأنا أطالع لافتة أخرى، أعلقها على الجدار الداخلي للكشك، والتي اختطَّتها أطياف بيدها، ولونها الأطفال كمشاركة منهم..

(كشكنا رَيْحانة؛ نحن نحبك)

هذان الشهران هما الأسرع على الإطلاق في حياتي.. لم أمر بأحداث متسارعة كما مررت بها خلال ستين يوماً..

هل تظنون الأمور حُلّت، والحياة صبغت جدرانها باللون الوردي؟! أبداً على الإطلاق..

سجلوا عندكم..

وداد زارتني.. نعم زارتني؛ إن كنا سنسلم بحقيقة من يدخل دارك فهو زائر.. وقد دخلت وداد الدار حاملة بين كفيها هدايا البغض والكره والغيرة.. و.. التهديد..

لا أنكر أني ارتعبت وهي (تزورنا) في تلك الليلة قبل خمسة أسابيع؛ بينما أنا غارقة في أوراق كثيرة؛ تخص معاملات حكومية من أجل إجازة نظامية لمشروع (كشك رَيْحانة).. لكني شعرت بالراحة لهذه المواجهة المؤجلة الأخيرة.. مواجهة كنت أؤجل التفكير فيها حتى لا أستسلم للخوف..

سأختصر الكثير فلدي زبون ثانٍ، وأنا امرأة صاحبة مشروع، ويجب أن أُراعي لقمة عيشي..

ودون مقدمات ممهدة؛ لقد أتت وداد لتوصل تهديداً

صريحاً أنها ستحطمني إذا اتصلت أنا أو أحد افراد أسرتي بعزّام.. ثم رمت في وجهي رزمتين دسمتين من أوراق نقدية، وقررت أنها (مستحقاتي) كمطلقة..

هل تخيلتم أني رفضت المال، كما يحصل في الأفلام، وأن كرامتي أبت؟!

لا.. أخطأتم التخمين.. إن كانت تظن هي هذا، فليس من شأني تفكيرها المريض.. لقد كنتُ زوجة لعزّام لسبع سنوات عجاف.. والنفقة من حقي.. شرعاً وقانوناً..

لحظة من فضلكم لأقدم طلب الزبون الثالث، ثم أعود اليكم..

هذا الزبون (متحرش رسمي)! الأبله يظنني فتاة في الثامنة عشرة، بسبب تلك الجديلتين السخيفتين اللتين لا أتخلى عنهما..

نعود معكم لتسجيل الأحداث..

أمي تطلقت.. لا أظنكم تفاجأتم.. في نفس تلك الليلة التي زارتني فيها وداد.. مقدم وداد كله خير.. ما شاء الله!

عمي ذكي في معرفة الصفقات القذرة الخاسرة، وأنا أوضحت له جلياً أن لا مزيد من الصفقات من هذا النوع، وكل أفكاره حول أختي أطياف التي أشمها، ليُحضر صفقة بيعها إلى عزّام جديد هي ملغية من الأساس..

لقد هددته أني سأبلغ الشرطة عن تورطه كوسيط وناقل ضمن صفقات مريبة مع تجار العملة، وبعض الشبهة ببيع وترويج الحبوب المخدرة..

أظن هذا كان أكثر من كافٍ كي ينسحب من حياتنا للأبد، فلم يعد هناك ما يسعى لأخذه، بل بات مضار بقاؤه أكبر من نفعه..

أما أمي فمنذ أسبوع تبدو غريبة الأطوار، لا تترك هاتفها على الإطلاق، وقد بدأت أشك عن شبه يقين أنها باتت تملك باقة شبكة اتصال تمكنها من التصفح المريح على شبكات التواصل.. فلم يفتني اللون الأزرق للفيسبوك الذي ينير شاشتها!

لكن كيف فعلتها لتدفع.. لا أعلم.. ربما قررت استخدام بعض المال المخبأ الذي جنته من ورائي لتحصل على بعض الترف..

هل تسألون عن علاقتي بها؟! لا شيء.. هكذا ببساطة لا

شيء.. أنا وأخوتي تكيّفنا مع وجودها.. غريبة وهي تحمل وجه (أم)..

منفصلة عنا، لكن تُشاركنا المأكل والمشرب والسكن.. وهنا نصل للون الرمادي.. لا أعلم من أين سندفع المال للإيجار.. فمال (النفقة) الذي رمته وداد في وجهي قد استخدمته في (كشك رَيْحانة)..

حسنًا.. كله في حينه.. وما زال أمامي أسابيع حتى يحين موعد السداد الشهري الجديد..

لا تذهبوا بعيدا ما زال في جعبتي المزيد من الأخبار.. أراجعها معكم لأثبتها في حكايتي.. وأظن هذا الخبر يثير اهتمامكم..

سمعت أن زيدًا تزوج من إحدى قريبات والدته، بعد لقائي الأخير به في المقهى بأيام فقط! لحظة.. لم ينتهِ الخبر.. الأدهى أنه طلق (عروسه) بعد أسبوعين بفضيحة لا أحب ذكرها لكم.. إن الله حليم ستار..

حزنت لأجله كحزني على غريب، وكأني لم أعرفه يوماً.. بل طيف بعيد مر من أمامي، وأنا أسير في طرقات حياتي.. لا أدري كيف تتنقل مواقع الأشخاص هكذا فتهبط وقد تضمحل فتتلاشى.. أو تعلو فتزهو في عُلوها

وتسحبنا للأعالي معها..

ها هو زبوني الذي كنت أنتظره.. أشعر بعيونكم المترقبة بانتظار شخص محدد.. آسفة.. سأخيب آمالكم فمن كنت أنتظره هو الزبون الذي أدين له بباقي حياتي لأطعمه مجاناً.. إنه شاهين بالتأكيد..

ولم يكن بمفرده بل صحبته سمارا التي تبدو عابسة.. لا بد أنه يغيظها كعادته.. كان قلبي يرتجف لمقدمهما.. كأنهما يعلنان بداية النصر الحقيقي لي.. نصري في الحياة ليسمعني الجميع.. يسمعون بما بحته في وحدتي للجدران..

يبتسمان لي ويلوحان فأرد لهما التلويح، وأنا أتذكر المرة الأولى التي رأيتهما فيها..

سبحان من غيّر حالي! شتان ما بين ما كنته، وما أكونه الآن..

أعلم عمّن ستسألون، وقد ضقتم ذرعاً بمراوغاتي.. تسألون عن الجندي المجهول في حكايتي.. باهر.. عن المصباح الذي أنار (كشك رَيْحانة)..

حسنًا.. إليكم ما حصل..

*****

البوح الحادي عشر

الكاتبة التي قررت نشر حكايتي أصرت عليّ أن أكتب هذا البوح، حاولت إقناعها أن لن يصدقنا أحد لكنها عنيدة!

ثم وجدتها تهديني دفترًا جديدًا للبوح، صفحاته تشع بياضاً، وكل صفحة مسطّرة بخطوط رمادية باهتة، كأنها تذكرني بواقعنا الرمادي الذي نتعايش معه جميعا كل يوم.. ثم أعارتني قلمها ذا الحبر الأخضر، وشجعتني بل أمرتني أن أكتب.. فكتبت..

فليصدق هذا البوح من يشاء، ولينكره من يشاء، وليقف على الحياد، من يؤمن باحتمالية حدوثه..

*****

ما لم أتخيل معرفته عن باهر اكتشفته في أول يوم افتتاح.. لم يحضر ظهراً مع شاهين وسمارا، بل انتظر قرابة الغروب ليأتيني وبصحبته.. فتاة!

فتاة بشعر أسود قصير وضحكة طفولية وملامح وجه تخبرك

حكاية أخرى.. متلازمة داون..

كانت تتعلق بذراعه، وتخفي وجهها الضاحك في كتفه.. نجولة حلوة جعلتني أغص بالتأثر وهو يعرفني بها: هذه أختي هند..

فسارعت الجميلة لتعترض مصححة: هنودة..

يضحك وهو يقبل أعلى رأسها قائلاً بفخر أبوي: قرة عيون باهر..

كنت ما زلت مأخوذة، وباهر ينظر إليّ ليقول ببشاشة: هنودة تحب الشاي بالحليب مع قليل من السكر.. إنها في حمية هذه الأيام، أليس كذلك؟

قال جملته الأخيرة؛ وهو يدير نظراته إلى وجه أخته؛ فتعاود هنودة هز رأسها، وهي ما زالت متعلقة بذراع أخيها، والضحكة ما أحلاها وأبهاها.. ليتها كانت أنا، وكنت هي!

لا أعلم كيف خرجت تلك الأمنية من قلبي.. شعرت بالسعادة وأنا أتمناها.. الإشراق الحقيقي الذي أراه في هنودة جعلني أتمناه، وأن أتعلق بذراع أخٍ كباهر؛ مطمئنة خالية البال لا تشغلني قساوة البشر، ولا تعنيني في شيء..

باهر.. ذاك الشاب الذي لا تلتفت إليه فتاة مرتين لتتفقده! وأنا كنت منهم..

لم أر باهر وسيماً كرجل إلا اللحظة.. خطف شيئا مني، وهو يلثم أعلى رأس هنودة ويتكلم عنها هكذا كأنها ابنته..

ستون يوماً معه، ونحن نجهز مشروع الكشك جعلتني أراه بصورة أعمق.. وكأنه فتح لي الباب، ودعاني على استحياء كي أدخل..

ودون أن أعي كنت أستجيب لدعوته.. وها هي صورته كرجل تكتمل في عيني اليوم؛ كأنه وضع الرتوش الأخيرة..

هذا هو الشاب اللطيف الخجول الذي يتورد من كلمة مديح.. هذا هو قليل الكلام والتعبير، وتكاد لا تشعر بوجوده.. هذا هو متوسط البنية، يميل للنحول، ويلبس نظارة طبية أثناء العمل.. فأرى فيه بوضوح اليوم ما كنت أتلمس وجوده منذ أول تعارفي به، وتعاملي معه..

أراه اليوم كبيراً عملاقاً بقلبه.. شامخاً بصفاء روحه.. شديد الوسامة بطيب ابتسامته.. عظيم الإفصاح في اختيارات تعابيره.. جميل البصيرة، رغم قصر البصر.. هذا

هو الشاب الذي يهديني رواية ورقية دون أن يشرح.. فيبوح بحبه عبر عنوانها، ويصف كيف يرى دخيلة نفسي مرسومة في صورة غلافها.. يهديني الأمل في بعض أسطرها.. ويغازلني بالعاطفة الرقيقة في أسطر أُخَر..

قد لا يكون هو من كتب الرواية، ولا اختار عنوانها، ولا شارك باختيار صورة غلافها حتى؛ لكنه كان من أهداني إياها كأنها صنعت لأجلي.. وهو وحده من علم هذا..

لم أخبره حتى الآن أني أنهيت الرواية بيوم واحد، بل ليلة واحدة.. غرقت فيها كأني أغرق في مطر متساقط بلل داخلي بالفرح، كما بلل خارجي بعذب الكلمات..

ومنذ القراءة الأولى، وكنت أعيدها كل يوم تقريباً.. وما زلت أفعل حتى ليلة الأمس.. كانت تهويدة نوم أضمها بين ثنايا الروح ببعض العبارات التي حفظتها عن ظهر غيب.. ثم أطبق أجفاني بابتسامة لأقرأ آيات قرآنية، وعندها أنام قريرة العينين لا يشغلني ثقل الهموم، فله صباح جديد يعينني لحمله ربي..

هل تظنون أنها اللحظة التي تحركت فيها مشاعري للمرة الأولى بشكل جديّ؟

أنا لا أعلم.. لكني أعلم عن يقين أن ما تحرك بي هو الإنسانة قبل الأنثى.. وليتكم جميعاً تعلمون عمق الفرق بين الاثنتين.. وليتني أملك فصاحة أكبر لتعبر عنها.. وأدلة لتفسرها..

أعددت لهنودة الشاي بالحليب، وسلمته لكفيها الطفوليين، بابتسامة فرح كفرحها.. فأخذت الحلوة ترتشف منه بحذر طفلة؛ بينما كان باهر ينظر إليّ كما لم ينظر من قبل..

لقد انتظر.. لم يحاول قول شيء طوال ستين يوماً.. لكنه عرف تأثير الرواية عليّ بالتأكيد فترك لأسطرها حسن تقديم مشاعره..

قدمت له القهوة التي يحب، وهو ما زال ينظر.. ليأخذها من يدي، وعيناه تبديان قلة الصبر، وشفتاه تنطقان بها: وبعد هذا.. ألن يكون لنا شأن يا أشرقت؟

كنت مرتبكة.. هل بدأ تبلد مشاعري يتقهقر؟! هل هذا شاطئ جديد يُدغدغ أطراف مشاعري، وأنا أمد قدمي فيه بخطوة مترددة؟!

التقطت قطعة القماش التي أمسح بها الأسطح لأقلبها بين يدي بغباء وأنا أرد: أنت لم تبارك لي..

كنت أهرب وأتجاهل جملته والسؤال المحلق بجناحي فراشة بيننا..

ما زال داخلي غير مستعد.. تُرى هل تحولت ردود أفعالي العاطفية إلى عقدة متأصلة تستوجب علاجاً؟! وهل أريد علاجها أم أني مرتاحة لانكماش شعوري كأنثى؟

أيضاً لم يبارك، بل قال وهو يرخي نظراته، ويرتشف من قهوته: لقد قرأت تغريدتك الأولى اليوم.. لقد أعجبني اختيارك من الرواية.. كما أني تركت لك تعليقاً..

شعرت بعيني تتسعان دهشة! وودت لو استطعت فتح هاتفي اللحظة لأرى تعليقه..

رفع عينيه إليّ فجأة فخرجت الكلمات عفوية: الرواية بديعة.. مؤثرة.. ملهمة.. أنا أدمنتها..

شعرت بضجيج الشارع، وحركة المارة تخفت.. تباعدت الأصوات، ونحن ننظر لبعض هكذا..

رد بجدية: قلتها لك ولم تصدقيني..

شعرت بحرارة أعلى وجنتي، وأنا أعلم عن يقين أنه لا

يقصد الرواية فأتساءل بتعثر: قلت.. ماذا؟

رد بجدية: ما قالته لك الرواية.. (إني أصدقها)..

بدا باهر أنضج عمراً.. أشد وضوحاً.. أكثر هيبة.. وهو يضيف ببساطة كي لا يترك أي مجال لتفسير مغاير: أنا أصدق مشاعري نحوك... أشرقت..

ثم ابتسم مطرقاً ببعض الخجل الذي يميزه ليردد كلماتي السابقة عن الرواية فيصف بها مشاعره: إنها.. بديعة.. مؤثرة.. ملهمة.. أنا أدمنتها..

نبض قلبي المتسارع لم يكن خدعة.. لم يكن عارضاً (أنثوياً) جانبياً لتصريح عاطفي من (ذكر).. نبض قلبي المتسارع هو إحياء لإيماني أني ما زلت أنثى في العمق.. وأن البرود يغادرني بالفعل مكتفياً بما خلفه من أضرار في حياتي..

تحية مسائية من صوت شديد الرقة أوقفت عملية الإنعاش ولو إلى حين! لمحت وجه باهر المغتاظ بإحباط للمقاطعة، بينما التفت للزبونة أبتلع ريقي لأحاول الابتسام في وجهها وأنا أرد التحية: مساء الخير!..

كانت فتاة محجبة أظنها تجاوزت الثلاثين بنظارة طبية،

وابتسامة حلوة فقالت لي بصوتها الرقيق المميز: أنت مسؤولة إن أخطأت اليوم، وأعطيت وصفة دواء خاطئة.. رائحة المخبوزات كانت عذاباً حقيقياً بالنسبة لي طوال الساعات الماضية..

ضحكت ودقات قلبي قد عادت لانتظامها الرتيب لآخذ الكوب من يد هنودة التي طالبت بقطعة مخبوزات بينما أرد على الفتاة بالشكر لتعرفني الفتاة بنفسها قائلة: أنا الدكتورة علا.. أعمل في تلك الصيدلية هناك.. واعتبريني منذ اليوم زبونة دائمة..

أعطيت لهنودة ما اشتهت، بينما أرحب بزبونتي الجديدة ببشاشة، وأنا أعرفها بنفسي: تشرفيني دائماً دكتورة.. أنا اسمي أشرقت..

تفاجأت الدكتورة علا قليلاً، وقد ظنت أن اسمي على اسم الكشك (رَيحانة) ثم بدأت تسألني عن المخبوزات التي أصنع.. طال الكلام معها، ليُعيد باهر كوب القهوة شبه الفارغ، ويصر على دفع الحساب، حتى أخجلني بإصراره، ثم انسحب قائلا: أتركك لزبائنك.. سلمت يداك، وموفقة بعملك الجديد.. هيا هنودة..

في لمحة تمس القلب، مدت هنودة يدها نحوي لتلامس أصابعي دون أن تصافح.. فقط لامستها هكذا ثم ابتسمت

ابتسامة تزرع بذور الفرح في القلب وهي تقول بخجل: شكرًا..

مستني بقوة تلك الحلوة هنودة.. شعرت أني إنسانة معها أكثر مما شعرته مع أي إنسان آخر..

تلاقت نظراتنا أنا وباهر للحظة قبل يقول بنبرة عادية: سلمت يداك أشرقت.. أنصحك أن تعلني لنفسك على تويتر، وأيضا الانستغرام..

أخذت أهز برأسي؛ بينما باهر تطرف عيناه ناحية الدكتورة علا قبل أن يقول بأسلوب متوارٍ مؤكدا عليّ: لا تنسي التويتر..

عدت لهز رأسي، ونحن نلوح لبعض، ومن يرانا يظننا نتفارق، لكننا في الواقع كنّا نلتقي.. فما بيننا كان يبدأ حقيقياً للتو، لكن لم أكن أعرف إلى أي الطرق يأخذني..

حالما غادرت الدكتورة علا سعيدة بالمخبوزات التي حصلت عليها مني كنت أسارع لهاتفي لاهثة كي أفتحه، وأقرأ رده على تغريدتي.. ويا له من رد! هل تصدقون أن باهر من كتبه ولم يقتبسه؟!

الحب ذاته عائلة.. أفرادها الثقة والتسامح والإيمان والدعم و.. القلب الخافق.. وَضَعِي تحت القلبِ الخافق ثلاثة خطوط.. إنه الفرد المتعب المشاغب الذي لا يهدأ ولا يستكين؛ لكنه سيظل الأكثر حظوة، ورغباته أوامر..

*****

مرت الأيام على نفس الوتيرة، ونحن منتصف الصيف اللاهب.. الكشك زاد الإقبال عليه والحمد لله.. لقد أحسن شاهين اختيار الموقع في شارع تجاري كهذا، وكان يرسل إليّ كل معارفه هناك.. مهما فعلت لن أجازي شاهين حقه.. هو وسمارا أغرقاني بأفضالهما..

أطياف تحاول أن تساعدني في الكشك؛ فساعة أقبل على مضض، وساعة أرفض بشدة.. لم أكن أحتمل رؤيتها تنتظر طلبات الزبائن، وتصبر على التصرفات المزعجة للبعض، أو أن تتقبل بصمت كلمة مستهينة متعالية من البعض الآخر..

(أطياف) لن تكون (أشرقت) جديدة بتعليم محدود، ومهنة متواضعة.. بل ستكمل تعليمها، وتبني مستقبلها بشكل صحيح.. لقد كان حلمي أن أرى أطياف وباقي أخوتي قد نالوا ما لم أنله..

(حَدَثٌ جديد) في حياتنا حصل قبل أيام.. لا أعرف كيف أصف أهميته.. سأحكي لكم وأترك لتقديركم حجمه وتأثيره.. دعوني أدخل في صلب الحَدَث.. أمي تركتنا، وتزوجت رجلاً متزوجًا وله (عيال)! اكتشفنا أنها كانت على علاقة به منذ مدة وعرفته من الفيسبوك! لتزيد الطين بلّة عندما صرحت لنا أنها متزوجة منه بالسر منذ قرابة الشهر، وعندما حان الوقت لتنتقل إلى بيته بعد حل مشاكله، وترتيب أموره، قررت إخبارنا وهي تلم ملابسها في حقيبة!

(زوجها) هذه المرة له مهنة، وأمي كانت فخورة بمهنته.. مهنة في ظاهرها هي العلاج بالأعشاب، لكن في الباطن يعمل في السحر والشعوذة وجلب الحبيب! ويبدو أن أمي أصبحت خلال الفترة الماضية يده اليمنى؛ فتحضر له الزبائن، لذلك قرر أن يكافئها بالزواج منها ولتتوحد المصالح.. كل هذا علمته بعد بحث وتقصي أجريته في سوق العطارة أبّان رحيلها..

عن نفسي لم أصدم من هجرها لنا؛ لكن صدمة أخوتي هي ما صدمتني.. كانوا يراقبون خروجها من حياتنا بوجوه الأيتام المنكسرين.. فلم أشعر إلا وأنا أضمهم جميعا في عناق جماعي جعل دموعهم تهطل صارخة بيتمهم، ودموعي تهطل صارخة بعجزي عن منع هذا الألم عنهم..

لقد كان هذا نصيبهم في أهم التي أنجبتهم للحياة، وعليهم أن يرضوا به ويمضوا قدماً..

حلّ الليل وأوشك وقتي على الانتهاء.. أخذت ألملم الأغراض داخل الكشك، وعيناي تناظران الطريق ترقبان مقدم باهر.. لقد عودني على هذا كل يوم، يأتي ليساعدني في الإغلاق.. ثم يطمئن لاستخدامي وسيلة نقل آمنة، قبل أن يدعني أرحل.. وحتماً ولا بد أن أتصل به لأُطمئنه أني في البيت..

هل ترون أنها كانت خطة محكمة منه ليفرض نفسه على روتين حياتي؟!

حسنًا! دعوني أخبركم بسر.. باهر يغيظني بصبره وصمته! أتصدقون منذ تلك التغريدة لم يكلمني مجدداً في الموضوع؟!

بت أشعر أننا تحولنا بقدرة قادر لزوجين مملّين اعتادا وجودهما مع بعض منذ سنوات، ولم يعد الكلام مهماً.. حسنًا! ربما بالغت بكلمة (مملين) لكني مغتاظة منه ويستحقها مني..

لا تبدأوا الدفاع عنه، وأنه يعطيني مساحة، ويريدني أن أقف على قدمي، وكل الكلمات التي تحمل نفس المعنى والهدف.. أنا متعبة.. حقاً متعبة.. رغم سعادتي بما أنجزه،

ورغم مخاوفي من المستقبل المادي لي ولعائلتي؛ إلا أني متعبة.. ليس تعباً جسدياً فقد اعتدت عليه بل ونخورة أني أعوض سنوات السجن في بيت عزّام..

أنا متعبة من شعور جديد ينتابني.. يتسلل عبر كلمات (غيوم ميسو) التي أعيد قراءة مقاطع منها كل ليلة.. يراود (اكتفائي الذاتي) عن نفسه! يسخر من ذاك التبلد العاطفي الذي رفعت رايته لأشهر.. إنه شعور الوحدة..

ها هو وجه باهر يطل مع ذكري لكلمة (وحدة).. أظنه متآمر مع (الكلمات) عليّ.. فتبرز كلمات عجيبة في توقيت عجيب معه.. لم أشعر أني عابسة إلا عندما اقترب مني وهو يقول باسماً: من آخر زبون أزعجك هكذا؟

لم أرد عليه، وأخذت أجمع بعض الأكواب في الصندوق الكبير المخصص لها كي تبقى نظيفة للغد؛ بينما أساله بتجاهل لملاحظته: كيف حال هنودة؟

كنت فظّة النبرات كما أظن، وشعرت بعيني باهر ترمقانني بفضول أغاظني أكثر! لماذا لا يغضب مني على الأقل؟! رد بتلك الابتسامة التي أظنها تحمل خبثاً أكثر من الطيبة الخجول وهو يلملم معي: تسأل عنك..

هل يسمي هاتين الكلمتين بمحاولة تودد مفترضة؟!

تخصّرت وأنا أتساءل بفظاظة أشد: هل تركتها مع جارتك أم سالم؟ لا أظن تصرفك هذا جيداً بحقها..

توقف عما يفعل؛ لينظر إليّ بسؤال عمره أيام، وأخيراً قرر أن ينطق به: أظن الأفضل أن تخبريني بما يزعجك منذ أيام، بدلا من استهدافي كوسيلة تفريغ..

ربما كان محقاً في تخمين جزء من سبب حالتي العدائية.. فأنا لم أخبره عن أمي ورحيلها.. ولا تسألوني لماذا لم أفعل.. فقط شعرت.. شعرت بالخزي من أن أقول له المزيد؛ فما يعرفه عني يكفي ويزيد!

قررت تجاهل الشق الذي يخصه من انزعاجي لأخبره أخيراً عما أخفيته عنه ويسبب لي طاقات سلبية: أمي تركتنا يا باهر..

عقد حاجبيه وهو يتساءل: ماذا تعنين تركتكم؟ هل عادت لزوجها؟ أقصد عمك..

أطلقتُ تنهيدة وأنا أرد: بل تزوجت رجلاً آخر.. متزوجًا وله عيال..

أيا كان ما انتظرته منه كردة فعل مؤكد أني لم أتوقع جملته المباغتة المكونة من كلمتين محددتين: تتزوجيني

أشرقت؟

كيف انتقلنا من الشق الذي يخص زواج أمي ورحيلها؛ وقفزنا قفزاً مع الشق الذي يخصه؟!

الرد كان جاهزاً على أطراف فمي منذ أسابيع؛ فنطقه لساني ببساطة كأنه رد بديهي لسؤال معروف في امتحان صعب: باهر أنا لا أنفعك..

عبس بطريقة لم أعهدها منه من قبل، وهو يرد باستهجان: هل تظنين أني رجل لا يفهم؟! لا يقدّر الأمور بشكل صحيح؟ لقد تركتك تعرفينني كفاية لتقدري أني لست أبلهاً..

شعرت بحرارة تغزو جسدي بأكمله من قمة رأسي حتى أخمص قدمي المحشورتين في حذائي الرياضيّ المستهلك.. كان غاضباً في الواقع، وأنا مذهولة من غضبه بينما أتمتم كبلهاء: لم.. أقصد..

يده امتدت لتمسك يدي بقوة دون سابق حدث (جلل) كهذا بيننا؛ فأشعر بعيني تحرقانني من شدة التحديق فيه، وأنا لا أرمش؛ بينما هو يسأل بعزم: تتزوجيني أشرقت؟ هكذا دون روايات ودون مقدمات.. ولا تمهيدات..

- عفواً.. آسفة.. لكن.. أتيت لآخذ (مخبوزاتي)..

كان صوت الدكتورة علا الرقيق كستار أُسدل على انفعال باهر الذي سارع لتحرير يدي؛ بينما أنا أستوعب نظرات الدكتورة علا التي تتنقل بيني وبينه، فابتلعت ريقي بصعوبة، وأنا أتحرك بعشوائية بحثاً عن العلبة البلاستيكية الخاصة بالدكتورة علا والتي أضع لها فيها يومياً قطع المخبوزات التي تحب تأخذها لبيتها..

قدمتها لها وأنا أقول بحرج بالغ: تفضلي دكتورة.. كنت أنتظر مجيئك قبل أن أُغلق الكشك..

ردت الدكتورة عليّ وهي تبتسم لوجهي وتقول: سلمت يداك.. آسفة لأني تأخرت عليك.. أعلم أن هذا وقتك للأغلاق..

تمتمت بكلمات لا أذكرها حتى؛ بينما تنسحب الدكتورة لتتركني مع باهر ونظراتها الفضولية تحوم حولنا بوضوح..

إياكم أن تصفوها حشرية.. لقد كانت قلقة لأجلي و.. حسنًا.. يبدو أنها كانت مستمتعة بطريقة ما بما يحصل بيني وبين باهر..

انتقلت نظراتي لباهر العابس بعد ذهاب الدكتورة؛

فشعرت أن عليّ توضيح الأمور معه أكثر لأقول مستأنفة الحوار: حتى لو وافقت، هل فكرت كيف سنعيش؟

يا إلهي ما زال غاضباً! نظراته إليّ تشع بالغضب.. إنها أول وأطول مدة رأيت فيها باهر غاضباً.. رد وأنا أشعر أنه يضغط على نفسه، ليكون أكثر هدوءً: شقتي فيها ثلاث غرف.. هي شقة والديّ رحمهما الله.. وأنت تعرفين أني أعيش فيها مع أختي هنودة فقط..

لا أصدق أننا نناقش السكن! كيف انتقلنا لهذه المرحلة؟! بينما يضيف باهر وكأنه أمر واقع: هنودة ستفرح بمشاركة أطياف لغرفتها.. والأطفال ستكون لهم الغرفة الثالثة.. إنها الغرفة الاوسع في الشقة..

كنت شاكرة أنه تغافل عن ذكر مشاركتي له بالغرفة الأولى!

بحثت في عقلي عن أي اعتراض منطقي ومجددا (لا تسألوني) لماذا! كفّوا عن الأسئلة غير المنطقية في الموقف الصعب الذي أنا فيه.. أحتاج دعمكم لا توبيخكم وعجبكم! وجدتني مغتاظة لأقول له كأني أفحمه بالحقائق: وماذا سيحصل بعدها؟ كيف سنعيش؟ وعندما يكبرون..

قاطعني وقد بدا نافد الصبر: الذي تدفعينه لإيجار البيت

سينفع أخوتك أكثر.. وأي مشاكل نواجهها سنجد الحلول لها يوماً بيوم.. ألا تعيشين حياتك يوماً بيوم؟

صمتّ.. وكأني وقعت بفخ! لم أعرف كيف أبحث حتى عن (منطق للرفض)..

فجأة رفع باهر سبابته باتجاهي ليقولها صريحة ما أحاول إخفاءه: المشكلة ليست في كل ما قلتُه يا أشرقت.. المشكلة فيك أنت.. أخبريني بكل صراحة.. أتخافين أن أظلمك؟

شعرت بدموع تحرق عيني، وهما تنبتان من المآقي لأرد بصدق: بل أخاف أن أظلمك أنا..

هدأ فجأة، وهو يحدق فيّ دون أن ينطق بكلمة جديدة.. فأخفضت نظراتي، وأنا أحاول شرح الأمور: تجربة الزواج التي مررت بها كانت عصيبة للغاية.. بشعة.. نخرت داخلي نخراً.. أنت لا تعرف تفاصيل ما مررت به مع عزّام.. هل تصدق؟ وأنا أتذكرها اللحظة أفكر أن الزواج مرة أخرى ضرباً من الجنون!

شعرت بالرقة تغمرني، وهو يرد علي: دعيني أُعينك في هذا أيضا..

رفعت وجهي إليه لأقول بحمائية نحوه: ما ذنبك أنت؟!

رد بمواراة غزلية يذكرني برده على تغريدتي: أنا أتبع أوامر (الأكثر حظوة)..

عاودت الإطراق، وأنا أشعر بداخلي يتأرجح بين الذوبان والتبلد.. كأني أطوف بينهما وأتشتت.. الأول أخافه، والثاني أكرهه..

جاءني صوت باهر بمحاولة إقناع جديدة: هذا أنسب وقت يا أشرقت.. أنت وإخوتك الآن بمفردكم بعد رحيل والدتك.. ستكونون عرضة للقيل والقال، وربما المضايقة..

طرحت سؤالا غريباً حتى على مسامعي أنا: هل ستتزوجني شفقة بي وبإخوتي؟

ضحك للمرة الأولى منذ حضوره، وهو يرد بسخرية رقيقة من نفسه: سأتزوجك شفقة بنفسي.. أنا أبذل مجهودا خرافيا لإقناعك، وقدراتي الكلامية لا تسعفني..

نظرت إليه، وشعرت أني مجنونة حقاً لأقاومه؛ فعبرت عما أفكر فيه بالقول: أعلم أنك فرصة لمن في مثل وضعي، ومن يسمع حوارنا ويعرف ظروفنا، سيتهمني أني غبية..

حاول أن يرد لكني سبقته بالقول: هل أستطيع أن أطلب منك الانتظار حتى بدء العام الدراسي؟

لا أعلم كيف قلتها؟! لكنها خرجت من بين شفتيّ، ولم يعد بالإمكان إعادتها في جوفي..

الصدمة على وجهه أربكتني وهو يتمتم: هل أنت جادة؟

بتردد تساءلت: هل تراها مدة طويلة؟

رد وهو يحدق في وجهي كأبله: هي مدة طويلة بلا ريب.. لكن.. ما قصدته هل أنت جادة بالقبول..

لم أدرك جدية الرد السابق المنفلت مني؛ حتى وصفه هو بهذا الشكل (الجدي)..

التزمت الصمت، وأنا أفكر بهول خطوة كهذه..

كيف تورطت بهذا؟! والأدهى كيف ورطتُ باهر معي؟!

*****

كان يوماً من أيام الربع الأخير من الصيف اللاهب،

وأنا أعمل بإنهاك في الكشك، وأمسح العرق عن جبيني وأكاد أحطم المروحة الصغيرة التي وجودها كعدمه..

سلمت طلب المخبوزات لزبونة صعبة الإرضاء كثيرة الشكوى، وأنا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. أخذت مني الطلب وأعطتني النقود على مضض، ورحلت دون حتى أن تقول (شكراً)..

تنهيدة خرجت من أعماقي، وأنا أعاني الإجهاد.. فلا يخفف عني إلا النظر إلى حصيلة اليوم من المدخول.. فأشعر ببعض الاطمئنان أن العمل يسير بشكل جيد نسبياً.. رغم إني ما زلت بعيدة عن الاكتفاء وسداد فواتيري..

أهم شيء اللحظة أني سددت إيجار البيت، لكن احتياجات اخوتي لم أستطع توفيرها والطعام يكاد لا يسد الرمق إلا بشق الانفس..

نظرت إلى ساعة يدي الجلدية؛ فرأيتها تشير للثانية عشرة والنصف.. ما زال الوقت مبكرا باكراً جدا لانتهاء العمل.. يا لها من أيام صيف طويلة..

هل ظننتم أنه سيكون يوماً مملاً جديداً يستنزف طاقتي الجسدية بالعمل، وطاقتي النفسية بعرض الزواج الذي عليّ

مواجهة توابعه قريباً جدا؟

لا.. لم يكن مملا على الإطلاق.. فلم تمر ساعة حتى جاءني مرسال من عزّام يطلب مني الحضور على وجه السرعة وبإلحاح شديد إلى مستشفى حكومي..

ربما ترون تصرفي غريباً، وأنا بهذه النفسية المستنزفة، لكني قررت الذهاب.. احتجت أن أجازف بما هددتني به وداد قبل أشهر، وأذهب إليه فقط كيّ أنظر في عينيه، وأرى نظرته إليّ الآن.. فقط كي أريه أني لست الطفلة المراهقة المملوكة لرغباته الحيوانية المنفرة.. أردته أن يشهد على (أشرقت) الحقيقية التي لم يعرفها يوماً..

وهذا ما كان..

ذهبت.. ورغم كرهي له هالني سوء وضعه.. وقفت عند سريره كأني أقف على قبره! كان وضعه مريعاً بمعنى الكلمة.. حدس غريب أنبأني أنها ستكون آخر مرة أراه في حياتي..

لم أجلس حتى؛ بل وقفت منتصبة القامة جامدة المحيا، لا أظهر أي شعور، ويدي مسترخية على حقيبتي الجلدية بتأهب للمغادرة، رغم أني وصلت للتو..

أنظر إلى عزّام وجسده الذي فقد كثيراً من وزنه، قد تهالك على فراش المرض.. مرمي في هذا المستشفى البائس في عنبر ضمّ عدة أسرّة لمرضى حالتهم صعبة..

الجو كانت خانقاً للغاية، ورائحة الفقر تعلو مع رائحة المرض والإهمال..

في البداية هلّل عزّام لمجيئي، وكأنه لم يوشك على اغتصابي وقتلي في آخر لقاء بيننا! وبدلا من أن يبدي حتى محاولة استرضاء واهية كي أسامحه، أخذ يشكو مما فعلته وداد به.. كان من الحمق أن أنتظر منه، ولو اعترافاً بالجرم الذي أوقعه بي.. أيقنت أن عزّام في دخيلة نفسه لا يراني حقّاً إلا (جارية مملوكة) لا حقوق لها على الإطلاق يفعل بها ما يشاء، دون أن يراجع نفسه مرتين.. استمعت بصمت لشكواه من (زوجته).. لقد أخذت منه كل شيء تقريباً ورمته عليلا في مستشفى رخيص تنتظر موته لتأخذ الباقي.. كان هذا عقابها له، وقد هدر كرامتها كأنثى.. وفي يدها أن تنهيه في رمشة عين، لكنها آثرت الانتقام البطيء اللذيذ.. وقد فعلت..

لقد فهمت ساعتها معنى جملة سمعتها من شيخ (يسلط الله أبداناً على أبدان).. ورب العالمين قد سلط وداد على عزّام، لتكون هذه المرأة الشنيعة أداته سبحانه لتنفيذ عقابه الدنيوي في عزّام..

قد تقولون إني قاسية القلب؛ لأني لم أتأثر على الإطلاق بكل ما هو فيه.. لقد استحقه كما استحققت أنا أن أراه بأم عينيّ في الحياة الدنيا.. القصاص الذي يشفي بعض الجروح، ويعزز إيماني بالعدل الإلهي..

سألته وقد ضقت ذرعاً بأنانيته المألوفة وهو لا يتكلم إلا عن نفسه: ماذا تريد مني؟

عندها فقط بدا متنبهاً لينظر إليّ عن قرب.. ليرى (أشرقت) كيف أصبحت.. فتيل باهت من هوس قديم ما زال يتلاعب هناك في عمق عينيه الغائرتين، وهو يمرر نظراته المرهقة فوق جسدي.. شعرت أني أوشك على صفعه وهو معلول هكذا لكني تماسكت بينما هو يتمتم: تبدين بأفضل حال رغم نحولك..

رددت باقتضاب: أحمد الله.. ماذا تريد؟

نظر إليّ مطولاً بصمت حتى أوشكت أن أتركه وأغادر، لكنه في اللحظة الأخيرة وقبل أن أنفذ، مال قليلا بجسده ونظر يميناً وشمالا ليتأكد أن لا أحد متنبها له ليُخرج من تحت وسادته كيساً بلاستيكياً أسود.. مد يده بالكيس إليّ وهو يقول بصوت مسموع لمن حوله: صديق جلب لي علبة الحلوى الكبيرة هذه، ولم أشأ أن أحجله برفضها، فقبلتها

منه ولم أخبره أنها لا تناسب صحتي.. إنها حلوى ممتازة.. خذيها يا أشرقت..

تعجبت مما يفعل، وتلك النظرات في عينيه التي تحذرني التعليق بأيّ شيء.. فتطلعت حولي مرة أخرى، ولم أر إلا وجوهاً مريضة مرهقة تنتظر الفرج.. لم أهتم بمخاوفه المُبالغ فيها وأخذت الكيس وأنا أتحسس العلبة عفويا وعندها استرخى عزّام برأسه للخلف ليقول بصوت خافت: هذه (الحلوى) ليست محلية.. نحاذري وأحسني التصرف فيها.. هي كل ما أخفيته عن الحيزبون كي لا تأكلها أيضا.. كانت عند رجل ثقة ائتمنته عليها وطلبت منه إحضارها لي اليوم.. لم يعد هناك أمل أن أخرج من هنا، ولا أمل أن (آكلها) بنفسي.. ومؤكد لن أدع الحيزبون تحظى بها..

لقد فهمت مقصده، لكني لم أفهم ما معنى أن يعطيني المال فقالها عزّام بتعب: خذيها أنت.. أُعطيها لك أفضل.. كما أنه حقك وحق كل ما فعلته بك..

ما زال ينظر إليّ، كأنه يودعني ليقول بنفس الخفوت: كل ما أطلبه منك أن تخصصي جزءا من الحلوى ثواباً لي..

وللمرة الأولى والاخيرة رأيت عينيّ عزّام دامعتين وهو يقول بحشرجة: لقد حرمت نفسي كما حرمتك من

الأطفال.. لولا هذا لربما كنتُ حظيتُ اليوم بمن يدعو لي بالشفاء.. أو الرحمة..

ثم أغمض عينيه، وكأن دمعته اليتيمة كانت أصعب من أن يظهرها لي أكثر، ثم لوّح بيده وأمرني بخشونة: انتهى أشرقت.. ارحلي..

لم يكن هناك ما أقوله له.. ولا حتى كلمة وداع.. استدرت بصمت، وما إن خطوت خطوة واحدة مبتعدة حتى قال لي: أنا واثق أنك امرأة نظيفة.. قد لا تصدقين لكني أعرفك جيدا.. لقد كبرتِ في بيتي أشرقت..

لا أعلم كيف أدرك عقلي مباشرة أنه كان يشير إلى ما أخبرته به ذاك اليوم الأغبر عن خياناتي له، وأنّي كنت أستقبل الرجال في غيابه..

أكملت خطواتي وعزّام وراء ظهري.. وصوت رحيله عن الدنيا يؤذن..

عدت إلى البيت، واختليت بعيدا عن ضجة أخوتي لأعتكف في غرفة والديّ التي أنام فيها مع أطياف.. أُقفلت الباب، وعلبة (الحلوى) في يدي..

جلست على حافة السرير، وأنا أخرج العلبة من الكيس،

ودون مزيد من التخمينات فتحت العلبة الكارتونية..

شهقة لم أستطع منعها خرجت من بين شفتيّ، وأنا أتطلع لخمس رزم من أوراق نقدية من فئة المئة دولار.. رفعت رزمة وقلبت أوراقها لأقدر أن كل رزمة فيها ألف دولار..

أعدت الرزمة مكانها بهدوء، وأنا لا أشعر بشيء.. ثم دمعت عيناي فأطبقُ أجفاني وأنا أتمتم: شكرا يارب..

*****

في اليوم التالي، ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى دار أيتام، وتبرعت برزمة من المال الذي أعطاني إياه عزّام؛ كصدقة جارية له.. فعلت هذا لوجه الله.. وليبارك في أخوتي وصحتهم وكل حالهم..

أما باقي الرزم فأودعتها في البنك، وعاهدت نفسي أني لن أمسهم إلا لأجل أخوتي أو حاجة ملحة..

ومرت الأيام..

باهر يشعر بصمتي.. لكنه لم يسأل.. يكلمني عن شقته وتجديدها، فأوشك أن أخبره عن المال بحوزتي، لكني

أتراجع..

أنا حتى لا أعرف إنْ كنت سأتزوجه أم لا!

حتى جاء خبر وفاة عزّام.. مات وحيداً في تلك المستشفى.. بعد أسبوعين فقط من زيارتي له.. وقد حرص عزّام أن يوكل أحدهم بإعلامي الخبر حال حصوله.. وكأنه لم يرتجِ من بشر شيئا عداي أنا..

وجدت نفسي أجلس على الكرسي الصغير في الكشك، ودموعي تجري مع كل ذكرى مهينة مررت بها مع عزّام.. منذ أول ليلة بيننا.. بل منذ عزاء أبي ونظراته الفجة التي اشتهتني، وأنا ابنة السادسة عشرة..

لا أدري لماذا كنت أبكي! أهي رهبة الموت أم هي الصفحة التي انتظرتها تطوى إلى الأبد؟!

- ماذا هناك أشرقت؟! استلمت رسالتك وأتيتك مباشرة.. قلقت جدا وأنت تقولين تعالي إليّ الآن، وترفضين مكالمتي بالهاتف!

التفت لوجه باهر القلق عبر فتحة الكشك التي أخدم منها الزبائن تخنقتني غصة البكاء مجددا، وأنا اراه بنظارته الطبية التي يلبسها اثناء العمل فقط.. لقد حضر إليّ دون

حتى أن يتذكر خلع نظارته..

كان باهر يحدق فيّ بقلق متزايد ثم تحرك ملتفاً من الجانب كي يدخل من باب الكشك ويغلق الباب خلفه بينما يتساءل: بالله عليك لماذا تبكين هكذا؟! هل أخوتك بخير؟ أمك بخير؟

تمتمت بدموعي الجارية: عزّام.. مات..

بدا جلياً أن ردي صدمه لأفصح عن المزيد مضيفة: أعطاني.. خمسة آلاف دولار.. ولم أخبرك..

تعابير وجه باهر تبدلت وهو يسألني بهدوء: احكي لي من البداية.. متى أعطاك المال ومتى توفي؟

وبينما هو يقف أمامي عابسا هكذا من خلف نظارته الطبية، كنتُ أحكي له كيف أرسل بطلبي قبل أكثر من أسبوعين وكيف أخذت المال منه..

هتف باهر بغضب حقيقي: تذهبين إليه بمفردك؟! ودون أن تخبريني يا أشرقت! أهذا مقامي عندك؟

كنت أمسح دموعي وأنا أتلمس احتواء منه: أنت يجب أن تفهمني.. أنت تحديدا باهر إن لم تفهم الآن لن تفهم

بعدها..

زمّ شفتيه وهو ينظر إليّ عبر زجاج نظارته، بينما كنت أشرح له أسبابي: كان يجب أن أواجهه بمفردي.. أن أراه وأنظر في عينيه، دون أن أخافه، أو أحتاج لحماية خارجية.. كان يجب أن أشهد ضعفه وانكساره وهو الذي كسرني مرات لا تحصى..

ارتفع حاجبا باهر قليلاً، بينما أفسر له ما قد يصله بشكل خاطئ: لا لكيّ أشمت.. أقسم لم يكن هذا شعوري.. لكني احتجت أن أشعر بحقي في رؤية عقابه، وحقي أن لا أهابه أبداً..

عاد باهر لعبوسه، وهو يسأل باقتضاب: والمال؟

رددت وأنا أشعر لحظتها بالخجل لأني أخفيت الأمر عنه: وضعته في البنك لأجل أخوتي.. تبرعت بجزء منه لدار أيتام صدقة لروح عزّام كما طلب هو مني..

زفر باهر بقوة ثم قال بنبرة قاطعة: هذا المال لن يدخل بيتي..

حاولت أن أكلمه: باهر..

فقاطعني وبنفس النبرة كان يقرر مصيرنا معاً: زواجنا بات حتمياً بأقرب وقت..

غريزياً كنت أقاوم وأنا أقول: لكن باهر..

هذه المرة كانت الدكتورة علا من تقاطعني وهي تسأل بحرج لا يخلو من الفكاهة: هل أطلب حصتي من مخبوزات اليوم أم أرحل؟

كلانا ينظر إليها. وقد بدت تحاول الابتسام وهي تعدل من وضعية نظارتها الطبية..

فتحت فمي لأرد فسبقني باهر (أشواطاً) وهو يعلنها: ربما تستطيعين المباركة لنا أولاً دكتورة علا..

عادت الدكتورة علا لتحرك نظارتها، والابتسامة الهبلاء على فمها ولا بد أني بدوت هبلاء مثلها، بينما يضيف باهر وأنا أطرق برأسي في خجل فظيع: أنا وأشرقت سنتزوج أول يوم من شهر أيلول..

*****

بوح أخير

اللحظة التي شهدتها الدكتورة علا وباهر يعلن أننا (سنتزوج) في الأول من أيلول كانت لحظة دخولي حلقة جديدة من حياتي..

حلقة تجسدت أولاً في صورة حلقة ذهبية التفت حول بنصري الأيمن أصر باهر أن ألبسها في اليوم التالي على إعلانه.. ولبس هو حلقة فضية..

لكن الحلقة الحقيقية التي قصدتها كانت مشعة أكثر من الذهب؛ فتبهر بصري وتلجم لساني.. هل تصدقون أني أسميتها حلقة صمت! كنتُ صامتة وكأن ما يجري لا يعنيني.. صامتة لا أريد أن أتفاعل من الداخل فأكتفي بالخارج.. أستمرُّ بشكل طبيعي بالعمل، وأنتظر باهر يومياً ليعيني على الإغلاق، وما تغير أنه بات يركب معي الحافلة، وفي محطتي ينزل بصحبتي، لكنه يودعني هناك ليعود في حافلة أخرى عائداً إلى نقطة انطلاقنا الأولى.. لم يوصلني مرة إلى باب البيت، خوفاً على سمعتي بالطبع..

هل تظنون أني كنت لا أتكلم معه؟! على العكس.. كنت أثرثر.. أثرثر كثيراً، لكن كله من الخارج فقط..

فالداخل كان عميقاً.. عميقاً للغاية لا يصل لقراره أحد.. وهذا هو الصمت الذي أعنيه.. صمت الداخل..

باهر كان يشعر بهذا، لكني فهمت طبيعته.. يمنحني دوماً مساحة لأكون مع نفسي فلا يقحم نفسه إلا عند الضرورة.. أظنه كان يفكر أني متهيبة فكرة الزواج؛ فآثر أن يتغافل عن حالتي، ويجاريني بتفاعلاتي الخارجية فقط..

البارحة حصل موقف غريب.. ذكرني بجملة محددة في تغريدة الدكتورة فريدة عن المحطات في الحياة والأشخاص الجدد في حياتنا..

ورحبوا بأي رفيقٍ جديدٍ؛ فربما فيه كل الخير..

كنت في الكشك أستعد لإغلاق مبكر؛ فلدي موعد مع الطبيبة النسائية.. موعد مهم للغاية وسيحدد أشياء كثيرة.. إنه (بعض) من (الداخل) الذي أصمت عنه! أقنعت باهر أن لا حاجة لوجوده معي في هذا الموعد داخل عيادة نسائية.. فتركني أذهب لوحدي بناءً على إصراري..

لقد حاولت جاهدة أن أكون قوية، وأذهب بمفردي.. قاومت ولم أطلب حتى من سمارا أن تأتي معي كي تساندني.. في الواقع ليس سندا فحسب؛ بل احتجت لمن لها ثقافة أكبر، كي تفهم من الطبيبة ما قد يستعصي عليّ

فهمه..

لم يسبق أن طلبت من سمارا مرافقتي في مشاويري السابقة مع الطبيبة، رغم أنها من دلتني عليها، لكن هذه المرة كنت خائفة بشكل مختلف.. ومع هذا يجب أن أقطع الشك باليقين قبل إتمام زواجي من باهر..

وبينما أنا أغلق الكشك خذلني صمودي فجلست على الكرسي محدقة بالفراغ.. المخاوف تغلبت عليّ والوساوس تكاثفت بشكل مرعب.. لكن يجب أن أذهب..

- مساء الخير يا عروس.. سعيدة أني لا أقاطع حواراً بينك وبين خطيبك.. لقد أصبحت عادة سيئة عندي.. تجعلني أشعر كمتطفلة حشرية.. واقسم بالله أنا لست كذلك..

التفتُّ يمينا لأرى وجه الدكتور علا البشوش، وهي تبتسم لي بثرثرتها الممازحة.. ويبدو أن وجهي كان معبراً للغاية، جعل ابتسامتها تضمحل شيئا فشيئا، ثم تسألني باهتمام: هل أنتِ بخير؟

خنقتني العبرة، وشعرت أني كمن أُصيب بشلل يمنعه التحرك، فاستنجدت دون تفكير: هل تستطيعين الذهاب معي للطبيبة من فضلك؟

دكتورة علا هذه عجيبة للغاية.. عادت إلى نفس الابتسامة خلال ثانية واحدة، وهي ترد ببساطة، لا يمكن توقعها: مؤكد.. متى موعدك؟

رددت والكلمات تكاد تتساقط من فمي؛ قبل أن تتشكل في جمل: بعد.. ساعة.. يجب أن.. ننطلق بعد نصف ساعة لا أكثر..

أشارت لي بإصبعها علامة الإنتظار، وهي تخرج هاتفها من حقيبتها، وتقول: سأجري اتصالاً وأكون جاهزة حالما تنهين إغلاق الكشك..

ثم سمعتها تتكلم عبر الهاتف، وأنا ذهني مُغيب فقط وجدت القوة لأكمل إغلاق الكشك، وقلبي يلهج بحمد الله أن أرسل لي الدكتورة علا كي تكون سندي هذا اليوم..

بعد ساعتين كنت على الرصيف الملاصق للمبنى الذي فيه عيادة الطبيبة وقد خرجنا أنا والدكتورة علا للتو وحالما قالت لي (مبارك نجاح العلاج) حتى انهرت في البكاء وأنا أرمي نفسي على صدرها، فلم تخذلني بل ضمتني بقوة، وهي تقول لي بتأثر: الحمد لله.. أنا سعيدة من أجلك..

كان جسدي يختض وأنا أستعيد كلام الطبيبة التي

أكدت لي قدرتي على الإنجاب، وأن فحوصي ممتازة والحمد لله.. كما أنها طمأنتني أنها ستتابع معي بعد الزواج أيضًا..

لا يوجد هناك أروع من الاستناد على كتفٍ غريبٍ تلتقيه في الشارع، وأنت توشك على الوقوع أرضاً؛ فيلتقطك، ويسندك، ويشد أزرك، دون سابق تخطيط..

ورحبوا بأي رفيق جديد فربما فيه كل الخير..

وقد كان في الدكتورة علا كل الخير..

لقد كانت هذا الغريب.. الرفيق الجديد.. الذي رافقني الرحلة، ولا يهم متى ستفارقني لتنزل محطتها..

*****

- إذن أصبحت الدكتورة علا صديقتك الصدوقة، وترافقك للطبيبة النسائية!

ابتسمت في وجه سمارا، وهي تناغشني معاتبة بتلك الجملة؛ بينما أعدّ لها فنجان القهوة في المطبخ، وقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء.. زوجها إياد كان لديه لقاء مع أحد أصدقائه، فطلبت منه سمارا أن يوصلها إلى بيتي مع صغيريها فرح والقرد..

ورغم أنها كانت تمزح معي؛ إلا إني شعرت بحاجة للتوضيح، فقلت وأنا أقدّم لها فنجان القهوة: صدقيني لم أكن أنوي أن أطلب من أحد المجيء معي.. لكن.. لا أعرف ما جرى لي.. فجأة شعرت أن قوتي تخذلني، وخفت كثيراً من النتيجة.. وما إن رأيت الدكتورة علا أمامي، حتى خرج الرجاء من فمي كي ترافقني للموعد..

أطرقت.. وساد صمت بيننا لا يقطعه إلا صوت الأطفال الذي يصلنا من غرفة المعيشة، وقد بدوا مستمتعين كثيراً باللعب مع الصغيرة فرح ذات السنتين والنصف وقد كانت بقمة الحماس وهي تركض هنا وهناك تستكشف مكاناً جديداً عليها..

اما (القرد) الذي بلغ السبعة أشهر فأطياف أصرت أن تعتني به بنفسها.. كم بدت حلوة وهي تحمل الصغير بين ذراعيها بحنان أمومي فطريّ..

حسنًا! لنعد إلى حالتي أنا، ونترك حديث الأطفال هذا..

لا أعلم لماذا صمتُّ هكذا مع سمارا رغم رغبتي الصارخة كي أفصح لها عن كل مخاوفي.. لم يكن لي (أم) جيدة ناصحة غيرها.. وقد قضيت ليلة طويلة تراودني أفكاراً سوداء.. شديدة السواد..

فبعد اطمئناني لموضوع الحمل؛ انتابتني هواجس أرّقت ليلتي، وسرقت مني النوم وأنا أعاني بمفردي حالة (هلع).. أرجوكم لا تنعتوني بالكئيبة أو الدرامية.. أنا.. فقط.. خائفة.. وكأني أواجه كل الاحتمالات التي قد تعجّل بنهاية حزينة بائسة مع باهر؛ حتى لا أفجع عندما تحصل..

- ماذا هناك يا أشرقت؟ لماذا أنت صامتة هكذا؟! هل هناك ما تريدين قوله وتحرجين منه؟

سؤال سمارا وجد صدى قوياً داخلي.. أردت أن أخبرها.. حقاً أردت! لكني عجزت.. وكأنّ هناك حاجزاً نفسياً يمنعني الإفصاح عما يعتريني..

أردت أن أسألها.. هل أخبر باهر عن كل شيء؟ عن تفاصيل أكثر من حياتي المريعة مع عزّام؟ وهل يجب أن أخبره عن علاقتي بزيد، وكل ما تحمله من تفاصيل شائنة فعلتها بغفلة عن عظم الذنب واستغفرت الله كثيرا عنها وما زلت..

- ربما لن أملك الإجابات الصحيحة.. لكن ما أنا متأكدة منه أني سأدعمك دائماً وأحاول جهدي تفهمك..

دعمي وتفهمي؟! هل ستتفهم سمارا مخاوفي من أن

أتصرف بطريقة مبتذلة في لحظات حميمية قادمة بعد زواجي من باهر؟ أنا لم أعرف إلا تلك العلاقة المشوهة مع عزّام.. لم أتعامل إلا باسلوب واحد كان أقرب لـ (عاملة جنس مأجورة مدى الحياة) تؤدي عملها مهما كان شاذا ومنفراً، المهم أنها ترضي رغبة الطرف الآخر الذي اشترى خدماتها..

لم أعرف معنى النعومة الحقيقة.. الرفق.. اللين.. لم أتذوق طعم السكن والمودة.. لقد قرأت الكثير.. والدكتورة فريدة كانت منجماً بالنسبة لي في هذه الأمور وغيرها.. كما قرأت نصائح الرسول عليه الصلاة والسلام كيف يعامل الرجل زوجته في علاقتهما الحميمية الخاصة.. كيف يداعبها ويتقرب منها بما يرضيها كما يرضي نفسه.. أنا لم أعرف بأهمية وجود كل هذا بين الزوجين رغم أني تزوجت عزّام لسبع سنوات!

قضيت ليلة الامس أتساءل كيف سيعاملني باهر؟! وكيف ستكون ردة فعلي على تعامله؟

ثم أتساءل رغماً عن شعوري بالخزي.. لماذا لم تنتبني مخاوف كهذه مع زيد؟! ربما لأني أشهدت زيدًا على الكثير من بوحي، وسمحت له أن يرى عن قرب صورة واضحة لمعاناتي مع عزّام، فجعلني تلقائيا افترض تفهماً منه، كما افترضت بجهل حتمية زواجنا.. بينما باهر لم ير إلا

الإطار الخارجي للصورة..

مهلا.. ربما زيد رأى صورة واضحة كاملة لعلاقتي بعزّام وعن قرب شديد.. لكن باهر رأى (أصل الصورة).. رآني أنا.. أحبني أنا..

انعصر قلبي بقوة، وأنا أفكر لأول مرة أني.. أحب باهر! و(لأني أحبه) تتنابني هذه المخاوف والهواجس.. أخذ نبض قلبي يتسارع، وأنا أفكر بتشتت، ومخاوف أخرى بالاتجاه المعاكس.. أنا خائفة ربما أكثر من ردة فعلي أن تكون باردة، فلا أستجيب له؟! ماذا لو نفرت منه؟ ماذا لو رفضته؟

- يا إلهي!

لم أشعر بالكلمة المستنجدة العفوية التي خرجت من فمي إلا عندما سمعتها أذنايّ!

لتعلق سمارا عليها بأسلوبها الفكاهي: من الواضح أنّ هناك حواراً يدور داخلك ولا يصل مسامعي.. يبدو أن باهر على حق..

شدتني الجملة الأخيرة، فتساءلت وأنا انظر إلى وجهها الباسم: باهر؟!

ارتشفت سمارا ما تبقى من قهوتها، ثم وضعت الفنجان جانباً قبل أن تقول: باهر طلب مني أن أكلمك.. لأن (حوارك الداخلي) هذا قد طال.. وهو قلق عليك.. وعلى نفسه بالطبع..

شعرت بالغيظ من باهر فتساءلت بحنق: ولماذا لا يكلمني بنفسه؟

ردت سمارا وهي تنظر في عينيّ: لأنه شعر بحدسه أنك بحاجة لحديث امرأة مقربة منك.. ومؤكد ليست الدكتورة علا المعنية.. فأنا الأقرب لك..

رغم فكاهتها، لم أبتسم، بل شعرت أن نبضات قلبي تُسحب مني، فنطق لساني بما يختصر كل حواراتي الداخلية: أنا خائفة سمارا..

عقدت سمارا حاجبيها، وهي تتساءل بجدية: ممّ تخافين بالضبط؟ صارحيني.. يمكنك قول أي شيء..

لا أعلم لماذا لا أفصح بكل شيء؟! ما الذي يمنعني؟ هل هو الحرج، أم ربما لأني لم أعد أعطي ثقتي الكاملة لأحد؟!

لقد كان جرح زيد عظيماً للغاية.. لا تعرفون كم هو

جارح، ويقطع نياط القلب عندما يخذلك من تضع فيه كل ثقتك..

ربما اختفى أثر زيد كرجل من حياتي.. لكن أثر خذلانه لي ما زال موجوداً حياً، يسلبني حق الثقة بأناس يستحقونها..

وكأن سمارا كانت تشعر أو تسمع بعض حواراتي الداخلية، فتقول لي بحنان: أنا موضع ثقتك.. لا تنسي هذا يا أشرقت وأنت تخبرينني بما يخيفك هكذا وتكتمينه.. يجب أن تقوليه لي.. دعيني أتشاركه معك.. صدقيني أحياناً بعض المخاوف نعطيها حجماً أكبر مما تستحق..

كنت أهز رأسي موافقة، دون أن أعرف لماذا أهزّه! ثم عانيت وأنا أجبر لساني على قول بعض الذي أعانيه: خائفة من كل شيء.. وأولها.. كيف سأتصرف مع باهر.. عندما.. عندما.. أقصد.. بعد زواجنا..

بنباهة حزرت سمارا المقصد لتقول بلطف: فهمت.. تقصدين العلاقة الحميمية..

توترت فأطرقت برأسي لأنظر إلى كفيّ المتشابكين، بينما أهمس بهلع بدأ يطفو على السطح: أشعر أني مشوهة.. مشوهة من الداخل.. يا إلهي لماذا ضعفت ورضيت بهذا

الزواج؟!

شعرت بجسدي كله يتألم من شدة التشنج.. أغمضت عيني بقوة، ودوامة عنيفة من مشاعر سلبية تسيطر عليّ.. موجة غثيان انتابتني كما الماضي؛ عندما كان عزّام يعاشرني.. لم أشعر إلا بيد سمارا عند ذقني، وهي ترفع وجهي للأعلى فأفتح عينيّ تلقائيا لأحملق بلطف ملامحها ثم قالت بتأنٍ: أشرقت.. أنت تعرضتِ لإساءة نفسية وجسدية، لكن فطرتك بقيت سليمة.. تُدركين الخطأ من الصواب.. الطبيعي من الشاذ.. فتشبثي بهذه الفطرة؛ لأن فيها نجاتك..

موجة هلع جديد هاجمتني بشراسة؛ نخرج صوتي مجروحاً خافتاً، وأنا أسألها: هل تظنين أني بحاجة إلى طبيبة نفسية ربما؟ لعلاج؟ لكن من أين سأدفع؟!

ممتنة منها للغاية لأنها لم تظهر في تلك اللحظة أي تعابير إشفاق كانت ستشعرني بالإهانة والتحقير؛ بل منحتني تعابير المشاركة بالمحنة التي أمر فيها مع نفسي لتقول ببساطة: أحيانا نستطيع علاج أنفسنا بأنفسنا.. هوّني على نفسك.. دعي الأمور تجري بطبيعتها، وإن تعثرت سنجد طريقة لحلها..

خرجت تنهيدة عميقة من صدري.. كنت بحاجة

لأحدهم أن يقول لي هذا.. لكن.. ماذا عن باهر؟! هل سأريحه؟ هل سأكون زوجة طبيعية؟!

أحرقت دموع أجفاني، وأنا أهمس بصدق: أشعر أني أنانية.. أعرض باهر لكل هذا..

ردت سمارا بحزمها الأمومي الذي يحتاجه (الأبناء) في أوقاتهم العصيبة وهم يتخذون قرارات مصيرية: هذا كان خياره أشرقت.. هو ليس بغبي، ولا شاب مندفع.. وأنت لست أنانية لإنك تريدين الزواج منه كما يريد هو.. لو كنتِ حقا أنانية لما شعرتِ بكل هذا الهلع لأجله.. كلاكما بالغان، والحياة حمّلتكما مسؤوليات مبكرة جعلتكما أرجح عقلاً..

رغم أن الهواجس لم تختفِ تماماً؛ إلا أني ارتحت لفكرة أنه خيار باهر كما هو خياري.. و.. نعم.. أنا أريد الزواج من باهر، كما يريد هو..

أي كلام آخر مغاير لهذه الحقيقة؛ سيكون كذباً على نفسي..

ما زال هناك أمر واحد عالقاً.. وصمة العار التي سأحملها إلى مماتي.. لم أستطع النظر إلى سمارا، حدّقتُ بعيني بعيدا وأنا أسألها: هل.. أخبره عن كل شيء.. أعني.. عن

حياتي مع عزّام.. و.. عن.. زيد..

ردت بجملة واحدة كانت كالبلسم على روحي الجريحة: ما ستره الرب لا يفضحه العبد..

فأعدت نظراتي إليها؛ بينما هي تضيف بهدوء: عزّام مات، وزيد ذهب لحال سبيله.. وأنت يا أشرقت اطوِ صفحة الماضي.. ابدئي حياة جديدة حقيقية مع باهر.. واحمدي الله كثيراً لأنه منحك هذه الفرصة التي لا تتكرر في العمر إلا نادراً.. وهذا أكبر دليل كم أنت إنسانة نظيفة من الداخل ليكرمك الله بها.. ولأنك مجاهدة لأجلك ولأجل أخوتك المتعلقين برقبتك..

خرج الحمد من أعماق قلبي؛ مع إحساس بالرضا ملأني راحة: ألف حمد وشكر.. أنت محقة..

فجأة تبسمت سمارا وهي تقول بشقاوة: هذا جيد.. لأن الأول من أيلول على الأبواب.. وباهر يريد أن يبدأ منذ الغد بنقل أغراضكم إلى شقته..

شعرت بموجة هلع من نوع آخر.. نوع ودود يجعل الحرارة تشع من جسدي وأنا أتمتم: نقل الأغراض؟!

ردت سمارا بنبرة عملية، وهي تشير بكفيها لما حولها،

وكأنها تقصد البيت الصغير الذي يأوينا أنا وأخوتي: أجل أشرقت.. لقد حان الوقت لتتركي كل هذا خلفك.. وأخوتك أيضًا يحتاجون للاستقرار في بيتهم الجديد؛ قبل بدء السنة الدراسية..

لقد كانت محقة للغاية.. لا ينفع الآن الاستسلام للمخاوف والهواجس.. فأخوتي معي بنفس السفينة.. سفينة ترأب صدعها، وستنطلق تشق عباب بحورٍ جديدة أملاً بحياة أفضل..

*****

الأيام التالية كانت مليئة بالعمل.. كنا نعزّل البيت، ونتخلص مما لن نأخذه معنا.. سمارا وشاهين وباهر كانوا خير معين، وقد تولى باهر بنفسه نقل ما نريده إلى شقته.. الشقة التي لم أرها إلا في اليوم المحدد.. هل تسألون ماذا أعني بـ(اليوم المحدد)؟ حسنًا.. سأخبركم..

اليوم المحدد هو اليوم الذي وصلنا فيه أنا وأخوتي إلى الحي الذي يقطنه باهر.. ترجلنا من السيارة ونحن نحدق فيما حولنا ببعض الوحشة العفوية، أو على الأقل هذا كان إحساسي..

الحي كان متوسط الحال بمبانٍ في منتصف العمر؛ لكن

لها متانتها، وبعض جماليتها الباهتة.. لم يكن حياً شعبياً كما لم يكن حياً راقياً.. لكن الأكيد هو أفضل بكثير من حينا المُنهك الذي كان يوماً حياً زاهراً ببيوت جميلة واسعة ترفع عنها أصحابها بمرور الزمن ليبيعوها، وينتقلوا إلى حي جديد أرقى، وبناء بيوت أكثر حداثة، ومن اشترى بيوتهم (القديمة) فرز كل بيت إلى عدة بيوت صغيرة ضيقة كحال بيتنا ليسكنها أمثالنا نتكدس فيها.. فمن يعيش حالنا لا يهتم إلا أن يكون هناك سقف يأويه ولا يكشف ستره..

- أشرق الحي بك يا عروس..

ابتلعت ريقي بخجل، وهمسة باهر صاحبتها تنهيدة صغيرة مرتاحة..

لا أعرف كيف سأقولها.. لكن يجب أن أكتبها.. في هذه المرحلة من الحكاية لا ينفع تأخير إطلاعكم على بوح عاطفي حقيقي كهذا في حياتي..

(اليوم المحدد) لم أكن أعني به زيارتنا الأولى لشقة باهر ومحل سكناه.. بل.. هو يوم عقد قراننا.. أجل لقد فعلناها صباح اليوم عند المأذون الشرعي.. وشاهين وحامد كانا الشاهدين.. لقد تزوجنا أنا وباهر! هل قلتها حقاً؟! أنا مشدوهة كيف استطعت!

سمارا كانت تزغرد من قلبها،ش في مكتب المأذون.. وشهرزاد التي أصرت على الحضور حاولت تقليدها وفشلت فشلا ذريعا.. أما أنا فأقف بينهم جميعاً بسروالي الجينز وبلوزتي القديمة والجديلتين السخيفتين تتراقصان حول وجهي؛ بينما أراقب مذهولة مصدومة، وكل ما أريده هو الذهاب إلى الكشك كي أعمل! كي أشعر أني على الأرض.. أرض صلبة لا تزعزعها أحلام مربكة؛ تهمس للواقع أنها ستفرض نفسها عليه.. بينما باهر يبارك لي وعيناه تفيضان بالراحة.. لقد خشي أن أبدل رأيي بآخر لحظة.. وأصدقكم القول أوشكت أن أفعل!

- هيا يا عروس.. هنودة بانتظارنا بشوق كبير..

تجاوزت ذكرى عقد القران، الذي جرى قبل ساعة، لأركز في حدث اللحظة..

كف باهر قبضت على كفي بإحكام؛ وهو يسير بي نحو مدخل المبنى، وأخوتي يسبقوننا الدخول، كأنهم يحنون (بيتهم الجديد) بالفطرة.. أو ربما (الرغبة) بحياة جديدة تداوي جراحهم أيضًا..

- أشرقت.. أشرقت..

صوت مناداة باسمي جعلتني أرفع رأسي للأعلى، حيث

مصدرها قبل أن أدخل البوابة لأرى هنودة تلوح لنا بحماسة من شرفة الطابق الثاني.. فأخذت ألوح لها بينما ألمح إلى جوارها امرأة بشوشة المُحيا ترتدي وشاحًا أبيض على رأسها، وتلوح لنا أيضًا، ثم أخذت تزغرد..

شعرت بالحرارة في وجهي، وأنا ألوح لهما بغباء، ولا أعرف كيف أتصرف؛ بينما باهر أظنه كان يخفف عني خجلي، وهو يخبرني عن تلك المرأة البشوش: هذه الخالة أم سالم.. امرأة في منتصف الستينات، وحيدة بعد وفاة زوجها.. لها ولد واحد، لكنه في مدينة أخرى يزورها بالشهر مرتين أو ثلاث.. ستحبينها رغم أنها حشرية بعض الشيء؛ لكنها طيبة للغاية، وخدومة..

كنت أهز رأسي؛ بينما أشعر بأصابعه تداعب باطن كفي..

ماذا يفترض أن أفعل اللحظة؟! أتركه أم أسحب يدي؟! ربما إن تركته ظنني متهاونة وإن سحبتها ظنني أرفض محاولاته الأولى للتقرب.. ما هذا الغباء الذي استولى علي؟!

كانت رحلة صعود الدرج لطابقين منهكة لأعصابي.. لا أعلم لماذا توقف باهر عن الكلام! ثرثرته كانت تخفف عني، وتلهي عقلي عن التفكير بعض الشيء..

تنفست الصعداء أخيراً، وأنا أدخل الشقة مع زغاريد الخالة أم سالم، التي اكتشفت أنها كانت امرأة ضخمة للغاية! بينما ركضت هنودة نحوي لتعتصر جسدي في عناق عاطفي يذيب القلب..

دخلنا الشقة وأنا أحاول جاهدة أن أجاري ترحيب الخالة أم سالم الحار، واحتضان هنودة المتكرر، وهي تعتصر جسدي في كل مرة.. الغريب والعجيب أن أطياف وباقي أخوتي انسجموا مع هنودة والخالة أم سالم، كأنهم على معرفة سابقة! كانوا هم في قمة الحماسة، خاصة الصغار وهم يركضون في أنحاء الشقة كأنهم يركضون في حقل شاسع! حاولت أن أحجّم حماستهم قليلا، وأنا محرجة وربما غيورة لأني لا أستطيع الانفتاح بمشاعري هكذا، لكن باهر (الذي ما زال يمسك بكفي) منعني وطلب مني تركهم يتآلفون دون عائق..

هنودة جرّت أطياف من يدها لتريها الغرفة التي ستتشاركانها.. نظرات أطياف موجهة إليّ في تردد، وكأنها تطلب دعماً لأشجعها.. فابتسمت لها، وأنا قلبي موجوع.. لقد كانت متحمسة هي الأخرى، لكن عمر المراهقة يمنعها التصرف بعفوية كما يفعل الأطفال..

أوجعوني كلهم بحماستهم تلك.. شعرت وكأنهم وجدوا

أخيراً (بيتهم).. لا أعرف هل هو باهر من منحهم بطيب روحه هذا الإحساس، أم لأنهم كرهوا البيت القديم الذي لم يمنحهم إلا اليُتم، واليوم يشعرون أنهم في بيت حقيقي؛ يمنحهم أهمية وجودهم في هذه الدنيا..

الخالة أم سالم اختفت في المطبخ، لكن قبل اختفائها غمزت لباهر وهي تقول له: فلتر العروس غرفتها بنيّ..

لقد أخبرتكم أن باهر صامت معظم الوقت.. أليس كذلك؟ حسنًا! عذراً لأني أكرر نفسي.. أنا مرتبكة، والأفكار تتداخل مع بعض..

حالما اختفت الخالة أم سالم في المطبخ بعد إشاراتها تلك، تنحنحت وأنا أحاول الكلام: الشقة.. جميلة.. لكن.. لماذا لم تأتِ سمارا معنا؟!

وددت لو عضضت لساني قبل أن أذكر سمارا، بينما أنا اواجه نظرات باهر المغتاظة..

رد وهو يعبس قليلا في وجهي: ربما لتمنحنا بعض الخصوصية؛ كي نتآلف بمفردنا في البيت الذي سيجمعنا نهاية الأسبوع..

ابتلعت ريقي بهلع؛ وأنا أتساءل بصوت خرج خافتاً

مبحوحا، بينما نبض قلبي يصل عنان السماء: نهاية الأسبوع!

وقف على قدميه، وسحبني من كفي لأقف معه، بينما يرد دون أن ينظر إليّ: هل نسيتِ؟ الأول من أيلول.. هو موعد عرسنا.. سنقيمه هنا في الحي..

عقلي كان يحسب الأيام المتبقية (لنهاية الأسبوع)، بينما قدماي تحسبان الخطوات من غرفة المعيشة إلى.. غرفة النوم..

لا ليست (غرفة النوم) وحسب.. بل هي غرفتنا.. أقصد ستكون غرفتنا.. أعني نهاية الأسبوع.. رباه.. لا بد أني مصابة بالهذيان الذاتي.. وإياكم أن تسألوا من أين أتيت بهذا التعبير لأني سأرتكب جناية! ألا ترون حالتي؟!

حسنًا! ما خشيته حصل.. باهر أدخلني الغرفة و.. أغلق الباب..

أُذناي تصفران، وأنا أحدق فيه كيف يقف عند الباب المغلق، وينظر الي.. كانت نظرة هي الأولى من نوعها.. نظرة رجل لامرأة.. لا.. بل نظرة رجل لامرأة باتت حلاله..

لم أشعر إلا بذراعيّ يلتفان حولي، وأنا أقول بتوتر شديد: افتح الباب باهر..

كان قد أفلت كفي عندما دخلنا، وتركني أتوسط الغرفة، بينما هو عند الباب..

لا تسألوني أن أصف لكم الغرفة.. يكفي أنها تحتوي على سرير كبير مزدوج وأربعة جدران و.. باب مغلق يعزلنا تماماً أنا وباهر عن الجميع.. شعرت بالعرق البارد يتجمع على جبيني، وموجة غثيان مريعة تنتابني، وأنا أعاود التوسل بارتجاف: افتح الباب.. من فضلك..

سأل بهدوء غريب: هل تستخدمين عطر الريحان؟

فاجأني سؤاله.. لم أتوقعه، كما لم أتوقع أن يتنبه أو يميز عطري الرخيص الذي أشتريه كسائل عالي التركيز، وبعبوات زجاجية اسطوانية صغيرة.. كان عطراً لا يقدره أحد كما أقدره أنا..

شعرت بقلبي يخفق بقوة، وأنا أرد عليه: كيف عرفت أنه عطر الريحان؟! لم يميزه أحد قبلك..

قال وهو يتحرك نحوي: منذ أول يوم دخلتِ فيه مكتب شاهين، وأنا كنت محتارًا هو عطر ريحان أم عطر ورد

القرنفل..

وقف أمامي بالضبط، وسط غرفة النوم مضيفاً: ثم تأكدت عندما اخترتِ اسم (رَيْحانة) للكشك.. أنه يعني لك الكثير.. أليس كذلك؟

همست بحشرجة، وجسدي كله بحالة استنفار أقرب للذعر: كيف تعرف هذا؟!

رعدة سرت في أوصالي، وذراعاه تلتفان حولي لتضماني إليه في البداية برفق شديد، ثم همس وهو يميل بفمه قرب أذني: (لأني أحبك)..

لم يعد يهمني هل هو اعتراف مباشر، أم إنه يلجأ مجددا لعنوان رواية غيوم ميسو..

في تلك اللحظة أنا كنت في قمة التركيز مع ما يحصل.. جسدي كان متشنجاً للغاية أقرب لجذع شجرة لا حياة فيها، بينما عقلي يبحث بين دهاليز استجاباتي العاطفية..

كانت دهاليزي صاخبة للغاية، وأنا أُعافر كيّ أستمع إلى ما يقال فيها..

أغمضت عيني دون أن أشعر، وكفا باهر تمران فوق

ظهري بتأنٍ.. ما زلت لا أُقاوم، وفي ذات الوقت لا أستجيب بشكل واضح..

أخذ يهمس وحضنه يزداد جرأة وحرارة: يا طيب عطرك، ورِقَّة منبتك يا ريحانة!..

هل تذكرون اسم ريحانة الذي أخبرتكم عنه بأول البوح؟ للمرة الأولى في حياتي عرفت معنى أن أكون (ريحانة).. اسمًا ومعنى تمنيته لأجده اللحظة في حضن باهر.. ريحانة..

كان يضمني إليه أكثر، فأشعر أكثر بـ (ريحانتي).. أشمها في نفسي.. ألمسها في جلدي.. أزرعها في روحي، ليسقيها حضن باهر كي تخضّر..

كنت أرتجف الآن لكن ليس رعباً.. وإنما استجابة عاطفية صريحة لا تشويش فيها.. ارتعش قلبي في صدري ليزغرد خفقاناً عندما لمست شفتا باهر أسفل عنقي..

ذراعاي ارتفعتا لتحاوطا جذعه، وأنا ألهث بخفقان الهوى، وأهمس باسمه في ارتجاف لذيذ: باهر..

استيقظت دفعة واحدة كل مشاعري كأنثى.. استيقظت بشكل مخيف، لكني لا أريد إيقافها اللحظة.. وباهر يفقد سيطرته قليلا ليمنح شفتيّ أولى القبلات.. ويا

لها من قبلات.. كانت حلماً قديماً راود خيال مراهقة كنتها حول الحبيب المنتظر.. هذا هو حبيبي وزوجي أنا، ولا حبيب ولا زوج قبله أو بعده.. لأجله سأمزق أوراق بوحي الماضية كلها، وأرميها خلف ظهري دون اكتراث لما كتبته فيها.. جُلَّ ما يهمني اللحظة أن أعيش من جديد.. أن أكون رَيْحانة باهر، كما يستحق أن تكون له أنثى..

هل قلت لكم سابقاً إن (انوثتي) ماتت للأبد؟! احذفوا هذا لو سمحتم.. كانت حماقة.. وهذا درس جديد تعلمته.. كلمة (للأبد) غير موجودة في قاموس دنيانا.. بحلوها ومرها..

كنت أضمه إليّ كما يضمني.. نلتصق ببعضنا، حتى ونحن كففنا القبلات اللاهثة.. لم أستطع إجبار نفسي على تركه، وقد وجدت (ريحانتي) فيه..

حتى شعرت بجسده يتوتر، وهو يهمس لاهثاً بصوت مخنوق: كله في أوانه.. لم يتبق إلا بضعة أيام.. وأعدك بشرفي أنك ستكونين أكثر سعادة ليلة زفافنا.. أكثر انفتاحاً وأماناً واكتمالاً..

رفعت وجهي إليه لأنظر إلى وجهه عن هذا القرب الحميمي.. كان قلبي يخفق بجنون، ولا أصدق أننا ملتصقين

ببعض هكذا، نعاني كي نجبر جسدينا على إيجاد حدود تفصلنا..

ابتسامة ملأت وجهه، ثم مال بشفتيه إلى خدي هامساً: خداك أحمران للغاية..

لم يهمني لحظتها لو كشف عن أدق مشاعري.. لقد منحني طمأنينة وتفتحاً عاطفياً يرضي كل أنوثتي..

الأيام التالية كانت أسعد أيام حياتي.. ولن أرضي خيالاتكم أني قضيتها في قبلات محمومة مع زوجي.. (أحب أن أسميه زوجي)..

لا.. لم تكن كذلك بكل تأكيد.. كنا نجمع كل الشوق يوماً بيوم.. ساعة بساعة.. حتى يوم الزفاف..

أطياف اتخذت دور الأخت الكبرى لهنودة؛ فضمتها لقطيع الصغار الذين تقودهم.. اكتشفت أن أطياف (أم) بالفطرة.. بل وتستمع بهذا الدور..

أما الصغار الأربعة فجهزنا غرفتهم بزوجين من الأسرة ذات الطابقين.. فكانت فرحتهم عارمة..

الأيام القليلة هذه كانت انفتاحاً لنا جميعاً..

أظنها أيامًا لن ننساها أبداً.. قضيناها في شقة باهر، ونحن نرتب الأمور ولا نفترق الا آخر الليل؛ عندما نعود لبيتنا الذي بات خاليًا تقريبًا من الأثاث، فنفترش الأرض، وننام في حضن بعض نحلم جميعا بيوم زفافي؛ حيث سننتقل نهائيًا إلى بيتنا الجديد..

وجاء ذاك اليوم الموعود.. أشرقت روحي إشراقها الكامل مع إشراقة شمسه.. ودّعت بيتنا القديم غير آسفة على فراقه.. إنه إحدى أوراق بوحي؛ التي لا أريد إعادة قراءتها.. وكما وعدت نفسي سأمزقها يوماً لأجل زوجي.. حبيبي باهر..

زوجي.. حبيبي باهر.. زوجي.. حبيبي باهر..

حسنًا! سأكف.. أنا أشاكسكم بالتكرار فقط...

دخلت غرفتنا بعد ليلة احتفال وسط الحي من أجمل الليالي.. لقد زفونا بعربة سوداء يجرها حصان، ومزينة بالورود الصناعية..

ربما لم تكن أنيقة، كما يفعلها بعض الناس من عليّة القوم.. لكن بالنسبة لي كانت بجمال عربة سندريلا..

عينا باهر لم تفارقا عينيّ، واللمعة فيهما تذكرني بأنها ليلتنا التي انتظرناها.. فأردها بضحكة من القلب..

شاهين رقص كثيراً في الحفل، وهو يحمل ولده يوسف.. لقد كان أخي وأبي الذي يقف بظهري في يوم كهذا.. وجوده أمان لا يمكنكم تصوره.. هذا الغريب الذي لن أتخلى عن رفقته لآخر يوم في رحلة حياتي..

سمارا تزغرد مع أختها هديل بابتهاج، وشهرزاد تشاركهما، وقد بدت مستمتعة كأنها طفلة في مدينة الملاهي!

حقاً غريبة تلك المرأة كيف تجد تآلفا مع طبقة اجتماعية مختلفة عنها تماماً؟!

وانتهى الحفل.. وغادر الحضور.. والخالة أم سالم أصرت أن تأخذ هنودة وكل أخوتي ليبيتوا ليلتهم عندها.. إنها في نفس الطابق.. شقتها مقابل شقتنا..

هذه المرة عندما أغلق باهر باب الغرفة بعد دخولنا؛ سعيت إليه كما سعى الي..

الشوق حطم كل انتظار.. يداه كانت ترتجف، وهو يفك أزرار ثوبي الكريمي من الخلف؛ بينما أنا أصارع

خجلي، وأنا أفتح أزرار قميصه ببعض التردد.. حاوط وجهي بين كفيه، وأصابعه تعبث بلفائف شعري، حيث تناثرت أزهار صغيرة ليهمس بتقطع: إن كنت تحتاجين ليلة بمفردك ف..

قاطعته بقبلة جريئة على شفتيه؛ وأخذت أضمه إليّ؛ لأكسر كل الحواجز أمامي وأمامه؛ بينما ألهث وأنا أقول له: أبداً لا تتركني الليلة.. أنا أحبك باهر.. أريد أن أكون لك أنثى كما حلمت أن أكون مع فتى أحلامي.. امنحني هذه السعادة.. لقد وعدتني..

وقد كان.. وثوبي يهبط عن جسدي تركت نفسي لفطرتي مع باهر.. ولم تخذلني تلك الفطرة.. كما لم يخذلني باهر..

لقد تحررت.. تحررت روحي فتحرر جسدي.. جسدي الذي تاهت بوصلته قد استعاد الاتجاه الصحيح..

*****

تغريدة

إن كنتِ رَيْحانة، فابحثي عن رجل يُميز عطر الريحان.. ليس المهم أن يسمع كل بوْحك.. لكن المهم أن يعرف

حقيقتك، دون حاجةٍ لبوْح..

#شكرا_دكتورة_فريدة

#شكراً_ كاتبتي

انتهى البوح...

بوحُ رَيْحانة

٢٠٢٠

الجزء التاسع من سلسلة «قلوب تحكي»

(سلسلة قصص منفصلة متصلة)

بقلمي.. كاردينيا الغوازي

وهذا الجزء هو (الأول) الذي ينشر ورقياً، ولم يسبق عرضه على الانترنت

تنويه

سلسلة «قلوب تحكي» والمعروضة على الانترنت هي مجموعة روايات؛ وكل رواية مكتملة بحد ذاتها، رغم وجود روابط خفية بين كل جزء وآخر.. السلسلة موجهة للمجتمعات العربية عامة دون تحديد البلد، وتناقش بشكل أساسي قضايا الزواج والطلاق..

أنتقل بين حكايا السلسلة وشخصياتها من مجتمع العاصمة

بطبقاته المختلفة (ثرية ومتوسطة وفقيرة) إلى مجتمع الريف والعشائر..

كل رواية لها أجواؤها الخاصة، وشخوصها الرئيسية التي أختارها من شخوص ثانوية في أجزاء سابقة..

سلسلة " قلوب تحكي "

بَوْح ريحانة

إن كنتِ رَيحانة؛ فابحثي عن رجل يميز عطر الريحان.. ليس المهم أن يسمع كل بوحك.. لكن المهم أن يعرف حقيقتك؛ دون حاجة لبوح..

تغريدة

9 789777 793179

منشورات تدوين

إبداع

ضياء
t.me/twinkling4